في رحَاب مَنف

© حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: في رحَاب مَنف
تـأليـــــــــف: السيد فرج الشقوير
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح القـطـــــع: 21X14
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 11090 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 634 - 0

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

في رحَاب مَنف

رواية

السيد فرج الشقوير

-

إهداء

إلى ابني الغالي عبد الرحمن

وإلى ابنتي أروى حبّة الفؤاد

خير ما يترك الأب لابنه ذِكراً طيباً وعملاً نافعاً، وصِيّتي كونَا على عهدِكما بالله.. محبتي.

السيد فرج الشقوير

تقدمة

هذه الرّواية خياليّة وُضعَت في سياق تاريخي معلوم بالقرآن والتّوراة، وهناك منْ ينكر وجود نبيّ الله موسى في مصر من أساسه بدعوى باطلة أنّه ليس له ذكر في النقوش المصريّة، والمعلوم أنّ الملوك كم لهم من سرقات ومن محو إنجازات لملوك سابقين، ومن هنا لا صحيح إلّا ما قصّه الله سبحانه، وتعيين فرعون الخروج هنا إجتهاداً شخصيّا حيث أنه من المعلوم عند علماء المصريات أنّ فرعون الخروج مُخْتَلفٌ على تعيينه كما هو مُخْتلفٌ على رجوع بني إسرائِيل إلى مصر، هذا والله المُوفِق.

السيد فرج الشقوير

الخُرُوجْ

بَدَتْ رُبُوعُ مِصْرَ فِي عَامِهَا هَذَا بِوَجْهٍ كَالِحٍ كَامْرَأَةٍ قَدْ نَالَ مِنْ رَوْنَقِهَا مَرَضٌ عُضَالْ، وَتَمَكَّنَ الإِرْهَاقُ مِنْ "مَمْفِيسٍ"[1] دُرّةِ التَّاجِ الفِرْعَوْنِيِّ فَنَالَ مِنْ زَهْوَتِهَا نَيْلَا ، وقَدْ أَخَذَهَا جَدْبٌ وَعِقَابٌ إِلَى العَنَاءِ وَالشَظَفِ والرَّمَادَةْ، كَانَتْ آيَاتُ مُوسَى قَدْ أَفْنَتْ مَا ذَرُوْهُ[2] فِي سُنْبُلِهْ، وعَطَّلَ الطُّوفَانُ حُقُولَهَا عَنْ الفَيْءِ أَعْوَامَاً، فَضَجَّ النَّاسُ مِنْ يَدِ القُدْرَةِ الَّتِي لَا يَمْلِكُونَ حِيَالَهَا مِنْ حِيلَةْ، فَبَاتُوا يَرَوْنَ فِي مُوسَى سَاحِرَاً فَذَّاً قَدْ غَلَبَ سِحْرُهُ عَظَمَةَ الفِرْعَوْن، وإِنْ كَادُوا ليُؤْمِنُوا بِه لَوْلَا هَذَا إلإِرْثُ الغَالِبُ مِنْ مِيثُولُوجْيَا اعْتَنَقَتْ مِصَرَ مِنْ أَزْلِهَا الضَّارِبِ فِيمَا قَبْلَ التَّارِيخْ، ولَوْلَا بَطْشُ إِلَهٍ شَيَّعَ وَحْدَتَهُمْ شِيَعَاً لَا تَجْتَمِعُ إِلَّا عَلَيْهِ .

فِي خِضَمِّ بَحْرِ العَنَاءِ هَذَا كَانَ مُوسَى آيَسٌ مِنْ أَهْلِهَا ومِنْ كَاذِبِ وُعُودِ القَوْمِ كُلَّمَا رُفِعَ عَنْهُمْ آيَةْ، قَدْ آتَاهُ اللهُ أَمْرَاً أَفْشَاهُ فِي أَسْبَاطِ إِسْرَائِيل لِمَوْعِدَةٍ وعَدَهَا إِيَّاهُمْ، واسْتَكْتَمَهُمْ لِيَومِ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَدُوٍّ يَرْهَبُونَهُ.. رَهْبَتَهُمْ رَبَّ مُوسَى إِلّا القَلِيلَ مِنْهُمْ، فَبَاتُوا عَلَى شَوْكٍ فِي انْتِظَارِ أَمْرِ النَّبِيّ، وبَاتَ فِرْعَوْنُ رَاغِبَاً فِي ضَمِيرِهِ رَحِيلَ هَؤُلَاءِ عَنْ سَاحَتِهْ، وبِهَا يَسْتَرِيحُ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ أَفْلَسَهُ أَمَامَ شَعْبِهْ، ويُرِيحُ النَّاسَ مِنْ زَيْغِ قُلُوبِهِمْ فَيَرْجِعُونَ فِي رِضَىً إِلَى ذَاتِهِ الإِلهِيَّةْ!، والّتِي وَرِثُوا إِيمَانَهُمْ بِهَا كَسَلَفٍ قَانِعِينْ، واللّيْلُ قَدْ مَضَى مِنْهُ ثُلُثُهُ عِنْدَمَا انْدَلَعَ الأَمْرُبالخُرُوجِ انْدِلَاعَ المَاءِ، بِلَا جَلَبَةٍ تَخَافَتُوا فِي سَعْيِهِمْ خَارِجَ المَدِينَةْ، يَحْدُوهُمْ مُوسَى ومِنْ

---

[1] عاصمة مصر وقتها

[2] ما تركوه.

خَلْفِهِمْ هَارُونُ فَلَا يُخَلِّفُونَ سَخْلَةً[1] مِنْ جُمُوعِ بَنِي إِسْرَائِيلْ، وأُهْرِيقُوا فِي طَرِيقِهِمُ كَمَاءِ فَيْضٍ يُسَابِقُونَ سُعَالَ فِرْعَونْ، لرُبَّمَا قَضَّ هَدْأَتَهُ فَأَفَاقَ عَلَى نُزُوحِهِمْ!، وَمُجِدُّونَ فِي تَوْسِيعِ الفَارِقِ مِنْ مسَاحَةٍ ومِنْ وَقْتٍ قَبْلَ أَنْ تَعِي إِلَيهِمْ عُيُونُ الطَّاغِيَةْ .

رَاحَ النَّدَى يَتَلَكَّعُ أَمَامَ أَشِعَةِ آتُون، والَّتِي بِدَوْرِهَا تَسَاهَلَتْ فِي كَنْسِهِ مِنْ شَوَارِعِ المَدِينَةْ، حَتَّى زَحَفَ الصُّبْحُ كَسُولاً مُتَثَائِباً كَأَنَّهُ رَاغِبٌ أَلَّا يُوقِظَ القَوْم !، بالنِّهَايَةِ أَفَاقَتْ رَغْمَ تَكَاسُلِ الوَقْت، يفِيضُ النَّاسُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ وسَطَ شَوَارِعٍ خَالِيَةٍ مِنْ سِحْنَةِ قَوْمِ مُوسَى، فَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ كعَادَةِ المُسَخَّرِينَ فِي أَنْ يسْبِقُوا سَادَتَهُمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، فَأَنْكَرَتْ سَابِلَةُ المِصْرِيُّونَ الشَّوَارِعَ الَّتِي مَا أَلِفُوهَا إِلَّا مَلْأَى بَعُمَّالِ إِسْرَائِيلَ وبُؤْسِهِمْ، وبَدَأَ الحَدِيثُ يِزْحَفُ حَتَّى نَمَا إِلَى قَصْرِ الفِرعَونْ، وقَدْ بَدَأَتْ تَرْتَادُهُ أَرْجُلٌ سَارَعَتْ بأَصْحَابِهَا بَيْنَ انْزِعَاجٍ وبَينْ اسْتِفْهَامْ، وحَتَّى ضَجَّ بِهِمْ بَهُوُ فِرْعَونْ، وفِي انْتِظَارِ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ... إِرْتَفَعَ لَغَطُهُمْ وَكَادَ يَضِيعُ صَوْتُ الحَاجِبِ الصَّادِحْ :

- حَضْرَةُ مَوْلَانَا فِرْعَوْنُ مِصْرَ نُورُ آتُونَ، ومَالِكُ مِصْرَ والنُّوبَةِ وأَرْضَ فَارَانَ المُعَظَّمْ، فَسَجَدَ النَّاسُ بَينَ يَدَيهِ وخَنَسُوا لِجَلَالِهْ !، جَلَسَ فَوْقَ عَرْشَهِ ثُمَّ آذَنَهُمْ بالرَّفْعِ مِنْ رُكُوعْ، وفِي عُجَالَةٍ بَادَرَ بالسُّؤَال قَائِدَ عَسْكَرِهْ..

- هَلْ حَقَّاً هَرَبَ عَبِيدِي بِكُلِّيَّتِهِمْ عَنْ أَرْضِنَا يَا نَارْمَرْ؟، ... كَيفَ وَأَنْتَ قَائِدُ الجَيْشْ؟!

- عَادُوا عَنْ بَكْرَتِهِمْ أَمْسُ كَالّينَ كَثِيرَانِ الحُقُولْ، لَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يُثِيرُ رَيْبَةً يَا مَوْلَاي كَدَأْبِهِمْ

[1] صغير الضأن

ثُمَّ مُتَعَجِّباً فِي ضَمِيرِهْ " كَيْفَ وَأَنْتَ الإِلَهُ مَا عَلِمْتَ تَدْبِيرَهُمْ ؟! "

عَلَا صَوْتُ "مِنْكَاوْ " كَاهِنُ آمُونَ الأَكْبَرُ وقَدْ خَشَعَ بِرَأسِهِ: فَلْيَخْرُجُوا يَا سَيِّدِي آبِقِينَ مِنْ ظِلِّكَ إِلَى حَالِكِ طَالِعٍ نَتَأَمَّلُهُ، وَلتَأْكُلَهُمْ البَيْدَاءُ عَنْ آخِرِهِمْ، أَوْ لَيسَيحُوا بِضَلَالِهِمْ عَنَّا، قَدْ أَرْهَقَنَا حَقَّاً مُوسَى بسِحْرِهِ وكَفْرِهْ، ليَرْتَاحَ قَلْبُ مَوْلَانَا الفِرْعَوْنُ ولِتَنْعَمَ البِلَادُ بالدِّعَةْ.

قَاطَعَهُ هَامَانُ يُرْضِي غُرُورَ الفِرْعَوْن:

- ومَا لَنَا لا نَتْبَعُهْ ؟، أيَخْرُجُ عَنْ غَيْرِ إِذْنٍ مِنْ مَوْلَاهْ؟!

ثُمَّ أَيُّهَا المُوَقَّرُ قُلْ لِي مَنْ يَخْدِمُ فِرْعَونَ وَأَشْرَافَ مَمْفِيسَ إنْ تَرَكَهُمْ؟!

هَل لهَؤُلَاءِ السَّادَةِ صَبْرٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ المُضْنِيَةْ؟!

إنَّ وُجُودَهُمْ هُنَا حَتْمَاً ضَرُورَةٌ للدَّنِيءِ مِنْ أعْمَالٍ نَسْتَنْكِفُهَا جَمِيعَاً، قَدْ كَفَاكُمُوهَا هَؤُلَاءُ الطّائِفَةُ مِنْ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ دَهْرَا !، وَضَرُورَةٌ لمَجْدِ فِرْعُونْ.. أَلَّا يَنْتَبِذُوا أَرْضَاً دُونَ عَلْمِهِ وخِلَافَ أَمْرِهْ، ليُعِيدَهُمْ رَهْنَ مُلْكَهِ صَاغِرِينْ، ثُمَّ إِذَا شَاءَتْ نَفْسُهُ المَعْبُودَةُ أَنْ يَطْرُدَهُمْ بِمَلْكِهِ فَلْيَفْعَلْ، ... قُلْ لِي أَيُّهَا الجَلِيلُ مِنْكَاوْ ....

أَلَا تَرَى فِي خُرُوجِهِمْ دُونَ رِضَى الفِرْعَوْنُ اسْتِخْفَافَاً لَا نَقْبَلُهُ يَحُطُّ مِنْ عَظَمَتِهْ؟!، إنَّ مَوْلَايَ الفِرْعَوْنُ لَا يَقْبَلُ هَذَا أَبَدَاً ولَا يَرضَاهُ لَهُ مُخْلِصْ.

تَغَيَّرَ وَجْهُ الكَاهِنِ خَوْفَ أَنْ يَجِدَ الفِرعَونُ فِي نَفْسِهْ، فَانْتَفَضَ يَدْفَعُ تُهْمَةً ولَوْ سَفِهَ نَفْسَهْ:

مَوْلَايَ الفِرْعَوْنُ كُلُّنَا نَعْمَلُ للصَّالِحْ، قَدْ نُصِيبُ كَثِيرَاً ويُجَانِبُنَا التَّوْفِيقُ أَحْيَانَاً، فاغْفِرْ ذَنْبَاً لَمْ نَأتِهِ عَنْ قَصْدٍ يَا سَيِّدِي، ثُمَّ الرَّأْيُ مَا قد أَشَارَ بِهِ العَزِيزُ هَامَانُ ومَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْهُ جَلَالَةُ الفِرْعَوْن.

هَزَّ المَلِكُ رَأْسَهُ رَاضِيَاً، وأَشَاحَ بوَجْهِهِ نَحْوَ قَائِدِ جَيْشِهِ كَأَنَّمَا يَسْتَشِفُّ رَأْيَهُ، فأَوْمَأَ نَارْمَرُ ولَبَى مَوْلَاهُ مُسْتَرْضِيَاً غُرُورَهْ:

الرَّأيُّ مَا يَرَاهُ فِرْعَوْنُ المَعْبُودْ، كُلُّنَا طَوْعُ أَمْرِهِ المُقَدَّسْ وطَوْعُ حِكْمَتِهْ.
فَسَكَتَ الفِرْعَونُ سَاعَةْ وهُمْ خُشُوعٌ بَينَ يَدَيْهِ فِي انْتِظَار مَا تُمْلِيهِ حِكْمَتُهْ ثم راح يحدث نَفسَهُ "إنَّكَ لَتَشْعُرُ بارْتِيَاحٍ لخُرُوجِهِمْ، إنَّهُ الكِبْرُ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ إقْرَارٍ بِهَزِيمَتِكَ أَمَامَ رَبِيبِ نعْمَتِكَ، هُو ذَا مُوسَى الصَّغِيرُ قَدْ حَقَّقَ رُؤْيَاكَ، إنَّهُ الرُّعْبَ يَعْتَرِيكَ مُنْذُ أتَاكَ بِدَعْوَتِهِ، لَا تُنْكِرْ، أَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ انْتَظَرْتَ النِّهَايَةَ كُلَّمَا أبْرَزَ لَكَ آيَةً تُثِيرُ خَوْفَكَ فِي حَضْرَتِهْ، ثُمَّ يَطْغَى العِنَادُ كُلَّمَا انْصَرَفْ، كَنتَ قَرِيباً مِنْ أنْ تَأخُذَ برَأيِّ مِنْكَاوْ لَوْلَا شَيْطَانُكَ الحَبِيبُ هَامَانْ، إنَّهُ يَعْرِفُ كَيفَ يُدَلِّكُ كِبْرِيَاءَكَ فَيُحِيلُهُ كِبْرَاً تَرْتَاحُ لَهْ، إنَّ الإلَهَ فِي حَاجَةٍ لِمَنْ يُنَافِقُ قُدْرَتَهُ ويَغْذُوهَا لَهُ وَقْتَ فُتُورٍ عَنْ عَدُوٍّ يَخْشَاهُ، فإذَا بِهِ وَقَدْ صَارَ إلَهَاً قَادِراً، أَلَا يَعْلَمُ رِبُّ مُوسَى الحَقِيقَةْ؟
مَاضَرُّهُ لَوْ تَرَكَ لَكَ شَهْوَةَ أنْ تَكُونَ إلَهَاً كَاذِبَاً مَا دَامَتْ قُدْرَتُهُ كَمَا رَأَيتْ؟
فَلْيَأْخُذْ عَبِيدَهُ ولْيَتْرُكْ لِي عَبِيدِي، اللَّعْنَةُ عَلَى هَامَانِ العَزِيزْ "
يَعُودُ الفرعون مِنْ إطْرَاقَتِهِ الطَّوِيلَةِ عَازِمَاً عَلَى مَايَكْرَهُ إرْضَاءً لكَبْرٍ يَعْشَقُهْ.
تَجَشَّأَ الإلَهُ ثُمَّ قَالْ: ليكُنْ يَا هَامَانُ أَمْرَاً كَانَ مَقْضِيًّا، وَلْتَحْشُرْ جُنْدَكَ أيُّهَا القَائِدُ نَارْمَرْ، وأَمَّا أنْتَ يَا هَامَانُ فَلتُرْسَلْ رُسُلَكَ إلى مدَائِنِ كِيمِيتِ[1] الطَّيِّبَةْ، ولْتَجُدْ بأَشِدَّاءٍ مِنْ أَبْنَائِهَا للحَرْبْ، هَذَا إنْ كَانَتْ حَرْبَاً أيُّهَا النُّبَلَاءْ.
ثُمَّ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ كَأَسْعَدِ حَزِينٍ لَا يَقِفُ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى حَالْ.

[1] الأرض السمراء وهي من أسماء مصر

رَحِيلْ

فِي خِلْسَةٍ مِنْ مدِينَةٍ نَائِمَةْ، خَرَجَا عَلَى مَوْعِدٍ مُتَسَلّلَيْنِ إلَى ضِفَافِ النّهْرِ فِي حَذَرْ، شَبَحَانِ مِنْ ظِلٍّ تَحْتَ ضَوْءِ القَمَرِ تَعَانَقَا لَا مِنْ خَوفْ، رَتْقَاً[1] كَمُقْلَةٍ بمحْجَرِهَا قَدْ أغْمَضَ المَسَاءُ عَلَيْهِمَا جَفْنَيهْ، وانْتَحَتْ بِهِمَا شَجَرَةُ كَافُورٍ تَحْتَهَا، كعَادَةِ الكَافُورِ مَعَ العُشّاقِ حِينَ يُؤنِسُ بهِمْ وَقْفَتَهُ الأزَلِيّةْ، وقَدْ غَشِيَهُمَا صَمتٌ العَدَمِ مُنْذُ غَافَلَا الوُجُودَ بِرُمَّتِهْ، أَلْقَتْ مَاعِتُ بِرَأسِهَا فَوْقَ صَدْرِه، وبِاسْتِكَانَةِ مَنْ تُخَادِعُ قَلَقَاً جَاثِمَاً فِي حَشَاهَا، ويَقْطَعُ صَوْتُ سِنِفْرُو الصّمْتَ فِي لَهْجَةٍ مِثلَ الفَحِيحْ

- أَنَا قَلِقٌ يَا مَاعِتْ، إنَّهَا لَيْسَتْ بالحَرْب ولَوْ كَانَتْ هِيَ فَمَا الحَرْب أخْشَى تَعْلَمِينْ، هِيَ نُزْهَةٌ رُبَّمَا لَكِنْ لَسْتُ بِالمُطْمَئِنْ، ولسَبَبٍ لَا أعْلَمُهُ كَهَاجِسٍ مُرِيبْ.

- خَوْفِي مِنْ غِيَابِكَ لَا مِنْ سِوَاهْ، لَسْتُ بِالّتِي تَصْبِرُ يَا سِنِفْرُو وأنْتَ أَعْرَفُ بِي مِنْ نَفْسِي، فَلِيَرْحَلْ هَؤُلَاءُ الكُفّارُ بِفِتْنَتِهِمْ مَلِيَّاً عَنّا وعَنْ رُبُوعِنَا، مَاذَا يَضُرُّ فرْعَوْنَ بِنُزُوحِهِمْ عَنَّا وقدْ فَعَلَ مُوسَي مَا قَدْ فَعَلَهْ؟

- هُوَ الفِرَاقُ يَا مَاعِتْ، هَاجِسٌ يُلَازِمُنِي مِنْ يَوْمِ الزّينَةِ، المَشْهَدُ كَانَ مَهِيبَاً، الرّبُ نَفْسُهُ بَدَا مُتَوَتّرَاً جِدّاً، أَمَا رَأَيْتِهِ كَالِحَ الوَجْه؟

- بَلْ هُوَ غَضَبُ الآلِهَةِ مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الرَّبِّ يَا سِنِفْرُو، أَمَا رَأَيْتَهُ يَعْصِفُ حَازِمَاً بِعُتَاةِ سَحَرَتِهْ، وعَلَى مَا لَهُمْ مِنْ سِحْرٍ مَا اسْطَاعُوا معَ رَبٍّ غَاضِبٍ حِيلَةْ؟

---

[1] تداخل الشيء في الشيء.

- لَكِنَّهُ سُؤالٌ مُحَيّرْ، لِماذَا يَا مَاعِتَ لَمْ يُنْزِلْ رَبُّنَا فِرْعَوْنُ المَعْبُودُ شُؤْمَهُ بِمُوسَى وهُوَ كَبِيرُ السّحَرَةْ؟، أَلَمْ يَكُنْ بِانْتِقَامِهِ أَوْلَى؟

أَمَا سَاوَرَكِ شَكٌّ يَا مَاعِتْ؟، ثُمّ كَيْفَ خَرَجَتْ آلآفُهُمْ دُونَ عِلْمِ الرَّبّ؟ هَذَا أَمْرٌ يُثِيرُ رَيْبَتِي يَا مَاعِتَ الطّيّبَةْ، وهُوَ السُّؤَالُ نَفْسُهُ أَبَدَاً، لمَاذَا أَخَّرَ فِرْعَوْنُ المَعْبُودُ عَذَابَهْ، مِمَّا اضْطَّرَّهُ لطَلَبِ مُوسَى خَارِجَ حُدُودِ مَمْفِيسْ؟

هَل تَرَيْنَهَا مِنْهُ حِكْمَةً يَعْلَمُهَا؟

- أُوو يَا سِنِفْرُو الحَبِيبْ، أَتَشُكُّ فِي قُدْرَةِ فِرْعَوْن؟

- لَا يَا مَاعِتَ لَكِنّهُ حَدِيثُ نَفْسْ، مَا كُنْتُ لأُخْفِيَهُ عَنْكِ و مَنْ يَدْرِي؟

غَدَاً نَخْرُجُ فِي أَثَرِهِمْ، وعِنْدَمَا نَلْحَقُ بِهِمْ سَتَزُولُ وَسَاوِسِي بِلَا رَجْعَةٍ يَقِيناً، لَا عَلَيْكِ الآنَ ودَعِينَا نَغْتَنِمُ لِقَاءَنَا الأَخِيرَ قَبْلَمَا نَمْضِي، تَنَاوَلَ صَفْحَيْهَا بَيْنَ كَفّيْهِ كَإِجَاصَةٍ شَهِيّةٍ كَأَنَّهُ آخِرُ عَهْدِهِ بِهَا، وفِي أَسَىً اقْشَعَرَّ مِنْهُ الظَلَامُ.

- أُحِبُّكْ يَا حَبَّةَ الفُؤَادْ، شَيءٌ بِدَاخِلِي يُحَدِّثُنِي بمَجْهُولْ، ويَقْتُلُنِي شَوْقِي إِلَيْكِ مِنَ الآنَ، إِرْتَمَتْ فِي حُضْنِهِ كَهُرَيْرَةٍ كَانَ عَصَفَ بِهَا شِتَاءٌ قَارِسْ، فِي دِعَةٍ كَأَنّهُ الوَسَنُ يُدَاعِبُ الجُفُونَ أَرْدَفَتْ:

عَيْنَاكَ رَعْ يَا سِنِفْرُو أُصَلِّي لَهُمَا عُمْرِي، مَا لِيَ عَنْكَ سَلْوَى يَا شَغَفَ مَاعِتَ ونَارَهَا التِّي سَتَأْكُلُهَا فِي غِيَابِكْ - أَنْتِ "نُوتُ" جَمِيلَتِي، مَنْ يَرَى بِهَا رَعْ يَا مَاعِتَ الرُّوحِ الحَبِيبَةْ، بِشَوْقٍ ضَمَّهَا ورَاحَا فِي قُبْلَةٍ بَدَتْ كَأَنْ عَادَتْ لحُضْنِ أَرْضٍ سّمَاءْ، عادَ صّمْتٌ يَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِمَا مِنْ جَدِيدْ، كُلَاهُمَا يُغَالِبُ جُمُوحَهُ، يَسْتَبِدُّ بِهِمَا الحَنِينُ ولهَاثُ رّغبَةِ عَارِمِةِ كَاسِحَةْ، أَنْفَاسُهُمَا تُسْرِعُ مُضْطَرِبَةْ، رَجْفَةُ الرَّغْبَةِ فِي أُوَارٍ تزْحَفُ نَاعِمَةً

نحْوَ جَسَدَيْنِ هَائِمَيْنِ وَجْداً، تَسَلَّلَتْ رُوحُ أَبُو فِيسَ تُشْعِلُ نَارَ الشَبَقْ، فيَسعَى عَلَي مَهَلٍ بنَارٍ مُوقَدَةْ، دُونَ إرَادَةٍ وبِلَا وعْيّ يَغِيبُ رُوَيداً شَطَنُهُ فِي جُبِّهَا بجُنُونِ الصّدَى، فِي خِدْرٍ ابْتَسَمَتْ خَجَلاً صَرَاصِيرُ الحُقُولْ، وشَرَعَتْ سّعَافِيرُ فِي الرُّبَى تُزَاوِلُ الرَّقْص، وأغَانٍ رّتِيبَةٍ فِي طُولِ بَالٍ مِنَ "إيتْرُو عَا"[1] المُقدّسْ، وبيْنَ فَيْنَةٍ وأُخْرَى تَقْفِزُ إحْدَى القَرَامِيطُ تَتَنَفّسُ لُجَيْنَ القمَرِ المُسْتَحِمّ فِي النَّهْرِ بِلَا دَوْشَةْ، ونَامَ اللّيلُ مَسْرُوراً فَوْقَ الحُقُولِ يُضَاجِعُهَا فِي أَنَاةْ، حَتَّى أَفَاقَ عَلَى غَيْرِ هُدَى، لَا يَعْلمُ مَتَى غَافَلَهُ عَاشِقَانُ وانْسَلّا بِلَا إذْنٍ مِنْهُ نَحْوَ مَدِينَةٍ مُتَنَائِبَةْ! .

مَا استَفَاقَتْ مِنْ سَكْرَةِ لَيْلَةٍ عَفَوِيّةْ، ولَا دَرَتْ كَيْفَ فَجَرَتْ لَيْلَتَهَا تِلْك، دَائِماً تَحْتَ إلْحَاحِ شَبَحِ الفِرَاقِ الّذِي يُلْقَى بسِحْرِ غِوَايَتِهِ تُفْعَلُ أَفَاعِيلْ، تَقَاسَمَهَا رُعْبٌ لرَحِيلِ سِنِفْرُو، فَتُوَاسِيهَا لَذَّةُ العِشْق، واسْتَلْقَتْ بِظَهْرِهَا فَوْقَ الفِرَاشِ وتَرَكَتْ فِي دِعَةٍ رَأْسَهَا لنُمْرُقَةٍ نَاعِمَةْ، بفُتُورٍ بَيْنَ عِفْرِيتٍ ومَلَاكٍ يَتَنَاوَبَانِ نَفْساً رّقِيقَةً سَاهِمَةً فِي اللَّاشَيءِ، وبِعَيْنَيْنِ تَسْطَعُ فِيهِمَا صُورَةٌ لشَبَحَيْنِ يُنْضِجَانِ خُبْزَةَ العِشْقْ، بَيْنَمَا تَتَسَلَّلُ أَشِعَّةُ الشّمْسِ إلَى سَمَاءِ مِصْر، أَطْفَأَ السَّاهِرُونَ مشَاعِلَ القَارِ الّتِي آنَسَتْ لَيْلَتَهُمْ العَصِيبَةْ، لَمْ يَكُنْ يوْمَاً عَادِيّاً كَسَالِفِ أيّامِ مِصْر،

والزّاخِرُ دَوْمَاً بِالحَيَاةِ صَعِيدُهَا، قَدْ أفَاضَتْ قُرَى كِيمِيتِ[2] بِجُلِّ أَشْرَافِهَا وبغَوْغَائِهَا إلَى صَعِيدِ مَنْفٍ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِ فِرْعَوْن، حَيْثُ انْتَخَبَ قَادَتُهَا لِلْجُنْدِيّةِ جَمِيعَ مَنْ قَفَزُوا فوْقَ العِشْرِينْ، وإلَى مَنْ هُمْ دُونَ الأَرْبَعِينْ، فشَكّلُوا مِنْهُ قَوَامَ خَمِيسٍ[3] عَرَمْرَمْ، كَي يُطَارِدَ جَمْوعَ إسْرَائِيلَ الصّابِئَةِ

---

[1] النيل

[2] الأرض السمراء وهو اسم قَديم لمصر.

[3] الجيش

الّذِينَ قَدْ خَرَجُوا فِي مَعِيّةِ مُوسَى، فَانْضَمُّوا إِلَى جَسَدٍ ضّخْمٍّ مِنْ جَيْشِ فِرْعَونَ النّظَامِيّ، وعَلَيْهِ أَفْرَغَتْ مِصْرُ قُوَامَهَا المَتِينَ، تَارَكَةً المَدَائِنَ خَاوِيةْ، إلّا مِنْ عَجَزَةِ رِجَالٍ فَانِينْ، ومِنْ نّسَاءٍ مُتَفَاوِتَاتِ الأَعْمَارْ، ومِنَ الأَطْفَالِ مِثْلَهُنّ، وتَرَكَتْ مِنْ جَمُوعِ الخِصْيَانِ والعَبِيدِ مَنْ يَقُومُونَ عَلَى أُمُورِ الثُّلّة المُتَبَقّيَةْ، حِيثُ أَنَّ الأَمْرَ لَا يَعْدُو مَسَافَةَ اللّحَاقَ بَأُمّةِ الصّابِئَةْ، وإِعَادَتِهِمْ فِي الأَصْفَادِ إِلَى نِيرِ الخِدْمَةْ، وتَحْتَ سَوْطِ الفِرْعَونِ كَمَا كَانَ الأَمْرُ آنِفَا، وبَاتَتْ مِصْرُ فَي إِشْفَاقٍ مَشْفُوعٍ بِانتِصَارٍ سَرِيعٍ مَا أَيْسَرَهُ عَلَى إِلَهِ مِصْرَ المَعْبُودْ ،

و لَاحَتْ مَمْفيسْ قُصُوراً خَاوِيَةْ، قَدْ أَفْرَغَتْ آهِلِيهَا إِلَى السَّاحَاتِ لوَدَاعِ الجَيْشِ الظَّافِرْ، فتَرَى المَدِينَةَ كَعَلِيلٍ قَاءَ مَا بِجَوْفِهِ طَفْقَةً وَاحِدَةْ، قَدْ جَلَسُوا مَا بَيْنَ نَمَّامٍ يَلْتَهِمُ بَلَذَّةٍ أَعْرَاضَ القَوْمِ مِنْ أَنْسَالِ إِسْرَائِيلْ، ويَلُوكُونَ سِيَرَ غَيْرِهِمْ مِمّنْ كَانُوا قَدْ أَخْفُوا كُفْرَهُم بِفِرْعَونْ، ومَا بَيْنَ حَدِيثٍ عَنْ نَعْمَةٍ لَا حَصْرَ لَهَا تَفَاوَتَتْ مَا بَيْنَ نَاطِقٍ رَاغٍ وثَاغْ[1] ، ومَا بَيْنَ كُرَاعٍ[2] تَنُوءُ بِالصّامِتِ[3] الثّمِينْ، ومَا تَرَتّبَ عَلَيْهِ مِنْ إِفرَاغِ القُصُورِ مِنْ زِينَتِهَا ومِنْ تَعْطِيلٍ لأَجْيَادِ النّسَاءْ، سَادَ فِي جَوِّ مَمْفيسَ العَامَّ لَغَطٌ مِنْ مَشَاعِرْ، لَا تُمَيّزُ أَثْنَاءَهُ غَضَباً مِنْ فَرَحٍ ولَا سُبَاباً مِنْ مَدِيحْ، فكَأَنّمَا هِيَ الْأُلْفَةُ يَحْتَالُهَا القَوْمُ لَيْسَ إِلَّا، وأُنْسَاً يَطْمِرُونَ بِهِ هَواجِسَاً بِدَوَاخِلِهِمْ، قَدْ قَرَّتْ غَرِيبَةً ومَجْهُولَةً فِي أَنْفُسِهِمْ القَلِقَةْ، فتَحَلّقُوا وعَلَى قِلّتِهِمْ كَادَتْ تَمْتَلِئُ بِهِمْ سَاحَةُ مَمْفيسَ الرّحِيبَةْ، غَيْرَ أَنّ نَاظِرَاً مُدَقّقَاً لِيَرَاهُمْ لُعَاعَةً قَلِيلَةْ، يَبْدُونَ كَسُؤرِ نَهْرٍ غَاضَ مَاءَهُ بَعْدَ فَيْض، فِي حِينْ ظَلّ

---

١ البقر والغنم

٢ الخيل

٣ الذهب والفضة

كَهَنَةُ آمُونْ رَعْ[1] رَبُّ مِصْرَ الأَزَلِيّ فِي عُزْلَتِهِم دَاخِلَ المَعْبَدْ، لَمْ يُغَادِرُوهُ ويَعْلُواْ لَهُمْ طَنِينْ، يُرَتِّلُونَ أَمَامَ تَمْثَالِ آمُونَ المَعْبُودِ كالنّحْلَاتِ هَمْهَمَاتٍ مُبْهَمَةْ، وأَدْعِيَةٌ خَاشِعَةْ، ويَسْتَحْضِرُونَ بِقُوَّةِ التّعَاوِيذِ أَرْوَاحَاً هَائِمَةً للتّاسُوعِ المُقدّسْ، ويَخَصُّونَ الإِلَهَ "جِبْ " بالتّمْجِيدْ، كإِلهٍ كَلّفَهُ آمُونُ بشُؤُنِ الأَرْضْ، يَرْجُونَهُ طَيَّ المَسَافَةَ البَعِيدَةَ لِفِرْعَونْ، حَتّى يَلْحَقَ فَوْرَاً بِالمَارِقِينَ مِنْ عِبَادِهِمَا، فَشاعَتْ فِي الأَجْوَاءِ أَدْخَنَةٌ مِنْ البُخُورْ، تُؤنِسُ أُنُوفَ قِلّةٍ مُتَبَقّيَةٍ مِنْ الشّعْبِ وكَأَنّهَا تحْمِلُ بُشْرَى الإِجَابَةْ .

وَ جَلَسَتْ مَاعِتُ فِي حُزْنٍ عَلَى غَيْرِ بَعِيدٍ مِنَ النَّاسْ، فِي قُرْبٍ يَضْمَنُ لَها بَعْضَاً مِنْ أُنْسْ، وعَلَى بُعْدٍ يَتَعَهَدُ لَهَا بخُلْوَةٍ مَعَ النَّفْس، شَابَّةٌ فِي شَرْخِ الشّبَابِ ذَاتَ قَوَامٍ جَامِعٍ مُشْتَهَى، وعَيْنَانِ مِنْ مُهْلٍ قَاتِلَتَيْنِ قَدْ زَادَهُمَا البُكَاءُ سِحْرَاً، إِبْنَةٌ وَحِيدَةٌ لِرَجُلٍ مِنْ العَامّةِ يُدْعَى " أُوسِرْ "، ولامْرَأَةٍ طَيّبَةٍ يُنَادُونَهَا "تُويَا" تَيَمُّناً بمَلِكَةٍ مِنْ مَلِكَاتِ مِصْرَ الذَاهِبَاتْ، هِيَ رَبّةُ بَيْتٍ تَقْلِيدِيّةْ، وُسِمَتْ بطِّيبَةٍ وبِهَا مَسْحَةٌ مِنْ جَمَالٍ ذَاهِبٍ إِلَّا بَعْضَهْ، مَسْحَةٌ مُقْنِعَةٌ تَحْفَظُ لهَا مَنْزِلَةً عِنْدَ أُوسِرْ، وكَانَا قَدْ خَالَطَا العَامّةَ مِنَ المُوَدِّعِينَ وذَابَا فِي عُمُومِ اللّغَطْ، مُنْصَرِفَيْنِ لأَحَادِيثٍ يَقْتُلُونَ بِهَا الوَقتَ، بَينَمَا الحَقِيقَةُ يَقتُلُ الجَمِيعَ خَوْفٌ مُشتَرَكٌ عَلَى مَصِرْ، مِصْرُ الّتِي أُرْهِقَتْ مِنْ وَيْلَاتِ مُوسَى تِبَاعَاً حَتَّى كَدّ عَيْشُ النّاسْ، حَارُوا بِدَدَاً مَا بَيْنَ سَطْوَةِ فِرْعَوْنَ ومَا بَيْنَ آياتِ مُوسَى، وهَا هُمْ يُلقُونَ سَمْعَاً لفرْعَونَ يَأسَاً مِنْ حَالٍ بَائِسٍ، ورَجَاءٌ لأيِّ العَاقِبَتَيْنْ، إِنْشَغَلَ أُوسِر وتُويا شَأنَ النَّاسِ عَنْ شَابَّةٍ حَزِينَةٍ بِمَا يشْغَلُهُمْ، وَحْدَهَا مَاعِتُ لَاهِيَةً عَنْ مَدِينَةٍ مُرْتَابَةٍ بَيْنَ رَجَاءٍ وقَلَقْ، وقَدْ انْتَحَتْ بِشُجُونِهَا الّتِي تَسْتَعِرُ فِي قَلْبِهَا الغَضّْ،

[1]) إله في أساطير مصر كلفه رَع أبو الآلهة بشئون الأرض.

قَلْبٌ لَا قِبَلَ لَهُ بِهَمٍّ تَعْجَزُ عَنْهُ امْرَأَةٌ دَرِبَةٌ مُحَنّكَةْ[1]، سِنِفْرُو كُلُّ أَمَلٍ لَهَا فِي دُنْيَا لَمْ تَعْرِفْ مِنْهَا غَيْرَ مَمْفِيس، وهَا هِيَ مَمْفِيسُ تَأْخُذُ كُلّ حَبِيبٍ لَا سِنِفْرُو وَحْدَهُ إِلَى طُمُوحِ الفِرْعَونْ، ولَا تَدْرِي لَهُمْ يَوماً يُرْجَعُونَ فِيهْ، وحَتّى يَشَاءَ رَبُّ مِصْرَ هَذَا الخَارِجُ لانْتِقَامِهْ، أَصْلاً هِيَ كَشَابّةٍ غَرّةٍ لا يُعْنِيهَا مِنْ مَجْدِ مَمْفِيسَ شَيْئًا، ولَا ذَنْبَ لَهَا فِي حَاجَةِ الرّبِّ إِلَى نَصْرٍ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ عَبِيدِهْ، أَمَا كَانَ يُمْكِنُ لِإِسْرَائِيلُ أَنْ تَدِينَ بِفِرْعَوْنَ ربّاً ومَا خَرَجَ إِثْرَهُمْ سِنِفْرُو يَطْلُبُهُمْ مَعَ النَّافِرِينْ؟، سُؤالٌ أَرّقَ لَيْلَهَا مُنْذُ أَخْبَرَهَا سِنِفْرُو بِخُرُوجِهِ فِي زُمَرِ الذّاهِبِينْ، كَيْفَ أَسْرَعَتْ بِهَا السّاعَاتُ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُن؟

كَيفَ تقِفُ عَلَى وَدَاعِ قلْبِهَا التّائِهِ بيْنَ حُشُودٍ مِنْ عسْكَرٍ وضَجِيجٍ مَنْ صَلِيلٍ ومِنْ صَهِيلْ؟

هَا هُوَ سِنِفْرُو تَخْجَلُ مِنْ زِيِّهِ العَسْكَرِيّ دَمْعَةٌ كَالنّارِ، وهُوَ يُوَلّي مَمْفِيسَ ظَهْرَهُ تَارِكَاً صَقِيعَ الوَحْدَةِ يَنْهَشُهُمَا مَعَاً، يَبْحَثُ عَنْ نَظْرَةٍ أَخِيرَةٍ فَلَا يَظْفَرُ بِهَا، هَا هُوَ يَمْضِي شَارِدَاً وأَقْرَب لجُنْديٍّ مِنْ قِرْمِيدٍ لَا تُنَاسِبُهُ دُمُوعٌ ولَا رِقّةَ قُلُوبْ، ومَاضٍ فِي زَحْمَةٍ مِنَ شّجُونٍ نَحْو مَصِيرِهْ، أَمّا عَنْ مَاعِتَ فتُرْعِجُهَا الجَلَبَةٌ وأَصْوَاتٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلّمَا أَمْعَنَ الجَيْشُ جَادّاً فِي الرَّحِيلْ، فَتَوَارَى مِثْلَ لُقْمَةٍ فِي مَعَدَةِ صَحْرَاءٍ مَهُولَةْ، تَعُودُ مِنْ شُرُودِهَا، وقَدْ شَرَعَتْ المَدِينَةُ تُبَدّدُ سَحَائِبَ حُلْكَتِهَا الكَئِيبَةِ بِمَشَاعِلٍ تَنْفُثُ دُخَّانَاً أَرْبَى مِنْ ضِيَاءْ، ولَاحَتْ السَاحَةُ هَزِيلَة فِي وَسَعِ مَدِينَةٍ تَنَامُ بَارِدَةً لأَوّلِ مَرّةْ، التَفَتَتْ لزَحْمَةِ النّاسِ الّتِي تَرَاهَا تَوّاً كَمْنْ خَرَجُوا فجْأَة، تبْحَثُ عَنْ أَبَوَيْهَا بِعَيْنَيْنِ زَائِغَتَيْنِ مِنْ خَوْفْ، هِيَ لَا تُرِيدُ أَنْ يَلحَظَا جَزَعَهَا المُرِيبْ، ولَا دُمُوعَهَا الّتِي بِلَا سَبَبٍ يَفْهَمَانِهْ، إِطْمَأَنّتْ لانْشِغَالِهِمَا فِي سَمَرٍ مَعَ

[1] خبيرة

ثُلّةٍ مِنَ جِيرَانْ، فَتَنفّسَتْ شُكْرَاً لرَعْ وهِيَ تُسْرِعُ مُيَمِّمَةً صَوْبَ الدّارْ، بَيْنَمَا يُسَابِقُهَا إلَى مِخْدَعِها حُزْنٌ كَالبِئْرِ عَمِيقٌ قَدْ أزْمعَ عَلَى الرُّقَادِ بِحُضْنِهَا أَمَدَاً تَجْهَلُهْ، وإلَى مَا شَاءَ لَهَا الرَّبّ، واللّيْلُ يُفْسِحُ لَهَا جَوْفَاً صَوْبَ البَيْتِ حَتّى اخْتَفَتْ عَنْ عُيُونِ الشَّوَارِعْ، فتَجْتَمِعُ إلَيْهَا الهُمُومُ تُغَمِّسُ مِنْ أتْرَاحِهَا مَا طَابْ .

اليَمّ

لمْ يَكُنْ بَنُواْ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِ الدّرَجَةِ مِنَ الإيمَانِ بِالرّبِّ الوَاحِدْ، مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقِينهُ فِي مُوسَى ورَبِّهِ أَوْثَقُ مِمّا فِي رَاحَتَيّ يَدَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِقَلِيلْ، إلّا أنّ عَامّةَ بَنِي إسْرَائِيلَ مِمَّنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ رَبَّ مُوسَى عَلَى حَرْف، بَلْ كَانَ أَغْلَبُهُمْ يَتَعَاطُوْنَ مَعَ النّبِيِّ عَلَى أنّهُ نَادِلٌ يَحْملُ إليهِمْ المَنّ والسّلْوَى، أوْ الفُومَ[1] ومَا تَشْتَهِي نُفُوسُهُمْ مِنْ قثّاءٍ وعدَسْ، مَاذَا وإلّا لَنْ يَدْخُلُوا حَظِيرَةَ الرّبّْ، بَلْ الأَنْكَى كَانُوا يَتَعَاطُوْنَ مَعَ الرّبِّ نَفْسِهُ كَرَبِّ أُسْرَةٍ مَسْؤُلٌ عَنْ عِيَالِهِ ولَوْ كَانُوا عَاقّينَ حَتَّى، وكَأنّ الرّبَّ فِي حَاجَةٍ إليْهِمْ كَعُبّادٍ لَا يَمْتَلِكُ سِوَاهُمْ عَبِيداً فِي سَمَاوَاتِهِ وأَرَاضِينِهْ، قَوْمٌ هَذِهِ سِيمَاهُمْ لَمْ يَكُنْ ليَخْرُجُوا مَعَ نَبيّهِمْ إلّا عَلَى مَضَضْ، وفِي أغْلَبِهِمْ مُنَافِقِينَ، قَدْ غَلَبَهُمْ رَجَاءُ ثُلّةٍ مُؤْمنَةٍ فقَالُوا فِي أنْفُسِهِمْ " إنَّا مَعَكُمْ "، طَمَعاً فِي حِيَازَةِ الخَيْرِ فِي زُمْرَةِ مَنْ يَطَالُهُمْ وإنْ كَانُوا فِي شَكٍّ مِنْه، وحَتّهُمْ الرَّهَبُ الّذِي كَانَ بَاعِثُهُ خَوْفٌ أنْ يَنْفَرِدَ بِهِمْ زَبَانِيَةُ فِرْعَوْن، فَأَضْحَوْاْ كَأَبْعَارٍ وكَهَشِيمٍ فِي وِدْيَانٍ جَرَفَهَا سَيْلٌ مُرْغَمَةْ، كَانَ بَنُوا إسْرَائِيلَ مِنْ فَوْرِهِمْ قَدْ وُقِفُوا عَلَى البَحْرِ فِي ذهُولْ، فمَا عايَنُوا قَبْلاً أفُقاً يَلْتقِي مَعَ تلْكَ الزّرْقةِ الوَاسِعةْ، والّتِي كلّمَا فرَشُوا أنْظَارَهمْ تَاهَتْ فِي أزْرَقَيْن، هُمْ منْ أَلِفُوا رَغْمَ سُوءِ العذَابِ نَضْرَةَ الوَادِي وعُذُوبَةَ النّهرْ، ولهَذَا قَدْ أخَذَ مُعظَمَهُمْ إرْتيَابٌ مِنَ النّجاةْ، مُوقِنُونَ بِعَذَابٍ لابُدّ وَاقِعٌ بهِمْ، وبَدَا أنّهُ لَا حِيلَةَ لهُمْ بيْنَ بلْقَعٍ[2] خَاويّةٍ وبيْنَ مِلْحٍ أُجَاجْ، وبَدَا النّبيّ والّذِينَ معَهُ

---

[1] نبات الرجلة

[2] خاوية وخراب

فِي شُغُلٍ عمّا سَاوَرَ حشُودَهُمْ الغَارقَةَ فِي بَحْرِ الخَوْفْ، يَقْتُلُونَ أوْقاتَهمْ فِي دُعَاءٍ يَجْأرُ بهِ النَّبِيُّ "مُوسَى" ويَصْدَعُونَ مِنْ خَلْفِهُ بالتّأمِينِ علَى غَيْرِ ثِقَةٍ بالفَرَجِ فِي عُمُومِهِمْ، مَا انفَضَّ مُوسَى مِنْ صَلَاتِهِ حتّى جَاءَتهُ بِشَارَةٌ عَرِفَهَا "هَارُونُ" فِي سَمْتِهْ، فَلَاحَ وَضِيءَ الوَجْهِ كَجَرْمِ سَماءٍ فِي ليْلٍ حالِكْ.

وقَامَ فَتَاهُ "يوشع "[1] منَادِيَاً فِي حشُودِ إسرَائِيلَ المائِجِينَ خَوْفَاً ورِيبَةً كُلّما رَأوْا غُبارَ جيْشِ الطّاغِيةِ يقْتَربْ، فَيثِيرُ لغَطَاً لَا حِكْمَةَ فِيهْ، وَقَفَ "يُوشَعُ" بقَامَةٍ متّسِقَةٍ كَرَجُلٍ فِي كمَالِ خِلْقَتِهِ بَهِيَّاً بوَجْهِهِ النّوْرَانِيّ، إعْتَلَى كُتْلَةً مِنْ حَجَرِ الشّاطِئِ رَافِعَاً عصَاهُ فِي إشارةٍ للجُمُوعِ أنْ تهْدَأ، فَسَرَتْ فيهِمْ إشَارَتهُ كهَفيفِ الطّيبْ،

وسَكَتُوا رَجَاءً فيمَا ستَنبِسُ عنْهُ شَفَتاهُ المُبَارَكَتَان، بتَملْمُلٍ أَصْخَواْ إليْهِ وهُوَ يسُوقُ مِن دِيبَاجَتِهِ مُرَصّعَ الثّنَاءِ والحَمْدِ لرَبِّ الخَائِفِينَ هَؤُلَاءْ، وأرْدَف:

_ أيْ خِرَافَ بَني إسْرَائِيلَ الّتِي لَا تُشبِعُها نِعْمَةْ، إنّهُ الرّبَّ الّذِى أخْرَجَكُمْ مِنْ ذلّةِ فِرعَوْنْ، فَمَا كَانَ ليُسْلِمَكُمْ لبطْشِه، السّكِينةُ السّكِينةُ يَا قلِيلِي الإيمَانْ، هذَا هُوَ كَلِيمُ اللهِ يَأْمُرُكُمْ بالتّمَايُزِ كُلُّ سِبْطٍ علَى حِدَةٍ فِي انتِظَارِ أمْرِ الله، فالطّاعَةُ ثُمَّ الطّاعَةُ يَا قَومْ، فقَدْ أتَتْكُمْ بِشَارَةُ اللهِ والسّلامْ.

وَ هبَط "يُوشعُ" مَاضِياً لمَكَانهِ مِنْ "مُوسَي " فِي وَقَارْ، تارِكاً مِنْ خلْفِهِ القَوْمَ لحَدِيثِ النّفُوسِ عَمّا سَوْفَ يَؤُولُ إليْهِ الأَمْرْ، هَوَاءٌ هِيَ أفْئِدَتُهُمْ بالرّغمِ منْ وَصَايَا يُوشَعُ المُطَمئِنَّةُ المُطْمْئِنَةْ، رَاحُوا يَنْتَظِمُونَ بِصَمْتِ الوَاكِفِ[2] وبسُرْعَةْ، يُسَابِقُونَ الوَقْتَ حَتّى انْتَهُوْاْ إلَى اثْنتَيّ عشْرَةَ لِوَاءْ،

---

[1] يوشع بن نون وهو فتى موسى

[2] المرتعد

وعلَى اخْتِلَافِ أعْدَادِهِمُ الغَفِيرَةْ، تَنَادَي القَوْمُ كُلُّ حِزْبٍ إلَى أمٍّ تجْتَمِعُ إلَيْهَا أصُولُهْ، وكَانَ سِبْطَيّ يُوسُفَ وبِنْيَامِينَ أبْنَاءُ "رَاحِيل" أقْرَبَهُمْ للسّكِينَةْ، وفِي دُعَاءٍ خَاشِعٍ انْصَرَفُوا يُحَدِّثُونَ اللهْ، واصْطَفّتْ أسْبَاطُ " رُوبِيل وشَمْعُونَ ثمّ لَاوِي فيَهوذَا وزِيَالُونْ ويَشْجَرْ" وهُمْ هؤُلاءُ السّتّةُ تَجْمَعُهمْ " لِيَا " فِي خُؤُلةٍ مَعَ "رَاحِيلْ "، ويشْملَهُمْ كُلُّهُمْ يَعْقُوبُ بِالأُبُوَّةْ، فلَاحُوا خَلْقَاً عَظِيمَاً فِي أدْعِيَتِهِمْ كطَنِينِ النّحْلْ، بيْنَمَا تراصّتْ أسْبَاطٌ أرْبعَةٌ تجْمَعُهُمْ سَرِيّتَانِ تسَرَّى بِهِمَا "إسْرائِيلُ" النّبيّ، قَدْ تجَاوَرُوا "دَانٌ فنِفْتالِي فَجَادٌ ثُمّ سِبْطُ أشَرْ "، وبَدَا المَشْهَدُ مِثْلَ قِيامَةٍ صُغْرَى يَنْتَظِرُ كلٌّ عَلَى حِدَةٍ مصِيرَهُ مِنْ نجَاةٍ أوْ مِنْ هَلَاكْ .

فِي البعِيدِ كَانَتْ غُلَالَةٌ مِنْ غُبَارْ، تَتَّضِحُ كُلّمَا دَنَتْ بِهَا إلَى سَاحِلِ البحْرِ أخْلَاطٌ مِنْ جُنُودٍ يَسُوقُهَا الحِقْدِ

وفِي زِينَتِهِ كانَ فرْعَونُ يتَوَسّطُ جَيْشَهْ، وظَهَرَ فِي عُلُوٍّ كأنّهُ إلَهُ قَطِيعٍ عَنْ رِضَىً يُسَاقْ، بغُرُورٍ يَقُودُ جُنْدَهُ لنَصْرٍ أوْعَدَهُم بهِ كإلهٍ قَادِرْ، رَغْمَ مَا يشْتَكِيهِ مِنْ تسَلُّخَاتٍ جَرَّاءَ طُولِ الرّحْلَةِ، فَأوْمَأ إلَى "هَامَانَ" قَائِلاً:

- اللّعْنةُ علَى هذِهِ الأوْجَاعِ مَا بَرِحَتْ تَشْتَدُّ وقَدْ طَالَتْ المَسَافَةْ، هِذِهِ الشّرْذِمَةُ أبْعَدَتْ جِدّاً كطَرِيدَةٍ تُطِيلُ أمَدَ نَحْرِهَا، ثُمّ قهْقهَ عَالِياً كَعَادَةِ إلهٍ مَرِيضٍ يَتنَاسَى أوْجَاعَهُ الطَّارِئُ مِنْهَا والمُزْمِنْ!

- سَلِمَ موْلايَ فِرْعَونْ، إنْ هِيَ إلّا سَاعةً ويُدْرِكُهُمْ حِقدُ الإلهِ المُنتَقِمْ

- أتُراهَا حَقّاً سَاعةْ؟ ... أنَا فِي أشَدّ حَاجَةٍ لطّبِيبْ، أخْشَى أنْ نتَقاعَسَ عنْهُمْ فَلَا نسْتطِيعُ لَهُمْ طَلَبَا

- أيْنَ يلُوذُونَ مِنْ غَضَبِ موْلايْ؟

مَا يَشْغَلُنِي أَمْرٌ أَهَمّ، فلا تُؤاخِذنِي أنَا أرَى مَا قَدْ حَاقَ بفِرْعَونَ منْ هِرَمْ، وَاجِبي تَنْبِيهُ مَوْلاي أنّهُ قدْ حَمّ التّفكِير جدِّيّاً فِي وريثٍ لعَرْشِ مِصْرَ أَطَالَ آمُونُ عُمْرَكَ، وهَمَّ يُنَادِي بِمعَالِجِي الإِلَه، بيْدَ أنّ رَبّهُ إسْتَمْهَلهُ فِي أسَىً وأرْدَفَ:

- حقّاً يَا هَامَانُ قَدْ اسْتَبَدَّ بمَوْلَاكَ الشَّيْب، عنْدَمَا نعُودُ ذَكِّرْنِي أنْ نُنَاقِشَ الأمْرَ علَى وَجْهِ من السُّرْعَةْ، ألَا تَبّاً للنّسَاءْ، آلَافٌ مِنْهُنّ قَدْ ضَاجَعْتُ ومَا أفْلَحَتْ مِنْهنّ فَاشِلةٌ فِي الحَبَلِ سُوَى المَلِكَةْ، مَاذَا لَوْ أَصَابَ نَسْلَهَا العَطَبْ؟، قَالَهَا وهُوَ شَارِدُ الذّهْنِ يُسَائِلُ نفْسَهْ، أَكلُّ هَذَا العُمْرُ ومَا رَزَقْتُ نَفْسِي للْآنَ بِعَدَدٍ مَوفُورِ مِنْ آلِهٍ صَغِيرةٍ إتّقَاءَ المَوْتِ، أرْبَعَةُ منَ الأَبْنَاءِ لَا يُحْتَالُ بِهِمْ عَلى الفَنَاءْ، مَاذَا تُرَاهَا تقُولُ الرّعِيّةُ عَنْ أمْرٍ كهَذا؟، ألسْتُ أرْزُقُهمْ وتَحُلُّ عَلَيْهمْ نعْمَتِي وتَشْمَلُهُمْ حِمَايَتِي؟، ألَمْ أكْفِهِمْ عنَاءَ أعَمالٍ وأشْغَالٍ مُضْنيَةٍ وحَمّلْتَها بَنِي إسْرائِيلَ عَنْهُمْ؟، لَكِنْ مَا هَذِهِ بِحُجّةٍ لِي بَعْدَ الآنَ، لَابُدّ لِي كَإلَهٍ لمصْرَ أَلّا أنْشَغِلَ بالرّعِيّةِ جُلَّ وَقتِي، لابُدّ لِي كَإلَهٍ عَادِلٍ أنْ أشْمَلَ نَفْسِي لَوْ قَلِيلاً برِعَايَتِي، هَذِهِ التِي أُسْرِفُهَا هُنَا وهُنَاكَ عَلَى رُبُوعِ نفُوذِي المُتَرَامِيَةْ، كَانَ جَادّاً فِي عَزْمِهِ ومُزْمِعَاً أمْرَاً أرْجَأهُ إلَى حِينْ .

قَطَعَ شُرُودَهُ مُنَادٍ يَصِيحُ: بُشْرَى للْفِرعَوْن، هذِهِ نِعَاجُ إسْرَائِيلُ لَاحَتْ يَحْجُرُهَا المَاءُ المُبَارَكُ ليُدْرِكَهمْ مَوْلايَ فِرْعوْن، فَصَاحَ هَامَانُ مِنْ فوْرِهِ فِي الجَيْشِ بصَوْتٍ جَهُورِيٍّ أجَشّ:

- تَعَالَتْ قُدْرَةُ مَوْلَانَا رَبُّ الوَادْ، أَرَأيْتُمْ يَا جُنْدَ مِصْر، أنْظُرُوا كيْفَ حَاصَرَهُم فِرعَوْنُ بعِزِّ قُدْرَتِهِ واسْتَبْقَاهُمْ لحِقْدِكُمْ المُقدّسْ؟

هتَفَ الجُنْدُ فِي آنٍ مَعَاً يُمجِّدُونَ رَبَّهُمْ فِي خُشُوعٍ صَادِقْ، قَدْ زَلْزَلَ هُتَافُهُمْ البَادِيَة، بيْنَمَا "هَامَانُ" يضْحَكُ فِي نفْسِهِ مِنْ برَاعَتِهِ فِي خُبْثِ الكُوبرَا المَلِكْ.

تَرَاءَى الجَمْعَانُ بغْتةً كَأنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ زَمَنْ، ونَادَى الفِرْعَوْنُ فِي عِبَادِهِ وقَدْ أدْرَكَ فَرِيسَتَهُ أنْ يَتَمَهَّلُوا، رَاحَ يتَسَلَّى بالنّظَرِ فِي عيْنَيْهَا قَبْلَ هُجُومِهِ القَاتِلْ، وَالشّمْسُ تتَفَرّجُ عَلَى المَشْهَدِ سَافِرَة، كَمُتَسَائِلٍ فُضُولِيٍّ لَا يَزُولُ حَتّى النّهَايَةْ، عَلّهَا تَحْظَى بإجَابَةٍ تُشْفِي غَلِيلَهَا، البَحْرُ هُوَ الآخَرُ أخَذَتْهُ رَهْبَةُ الدُّعَاءِ المُتَنَامِي مِنْ

أفْوَاهٍ لَا يُحصِي لهَا عَدَداً وَلَوْ حَاوَلْ، كَانَ مُنْخَرِطَاً فِي خُشُوعِ المَوْتِ كمُنْتَظِرٍ أَمْرَاً لَا يَعْلَمُهْ، وهَذِهِ الطَّيْرُ قَلِقَةً بِلَا سَبَبٍ غَيْرَ مَا تَسْتَشْرِفُهَا الخِبْرَةْ، لَاحَتْ تُسَائِلُ نَفْسَهَا عَنْ بَحْرٍ يَؤُمُّ البَشَرَ فِي صَلَاةٍ جَامِعَةٍ خَاشِعَةْ.

وَ عَنْ بَرِيقٍ يَعْكِسُهُ البَحْرُ فِي أعْيُنِهَا، كَأنّمَا وَضَاءَةُ القَبُولِ فِي جَبِينِ عَابدٍ تَزَلّفَ[1] حَتَى يَنَالَ رِضَى اللهْ، وفِي البَعِيدِ غبَارٌ لَمْ يَهْدَأ بَعْدُ، أَضْفَى عَلَى جُنْدِ فِرْعَوْنَ رَهْبَةً كَلَيْلٍ مُزْدَحِمٍ بالغِيلَانْ[2] ، آلَافٌ مِنْ الحَوْقَلَاتِ تَتَرَدّدُ فِي لَا نِهَائِيّةِ الصّحْرَاءِ، وكَأنّها تمَهَّلَتْ عَنْ سَمَاعِهَا السّماءْ، فَبَدَتْ وكَأنّهَا تَبَدّدَتْ مَاءَ غَيْثٍ لَمْ يَكُنْ قَطّ، والكَوْنُ سَكَتَ مِثْلَ طِفْلٍ يَنْتَظِرُ حَدُّوتَةً مُدْهِشَةْ .

---

١ تقرب.

٢ كائنات أسطورية مخيفة.

الوَغَى

- انْظُرْ يَا حِزْقِيَالُ تِلْكَ الحُشُودُ المُزَمْجِرَةْ، أَوْشَكَتْ أَنْ تُدْرِكَنَا، ولَا حِيلَةَ لَنَا مَعَ جُمُوعِهِمْ المُدَجّجَةِ بِكُلّ بَتّارٍ قَاطِعْ، إنْ هِيَ إلّا سُوَيْعَةً مِنْ نَهَارٍ ويَفْتِكُونَ بإسْرَائِيلَ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، لَسْنَا نَعْلَمُ لمَاذَا أَتَى بِنَا النّبِيُّ مُوسَى لمَكَانٍ كَهَذَا، لَا فِرَارَ مِنْهُ ولَا نَجَاةَ وقَدْ حُوصِرْنَا بِلَا حِيلَةْ؟

- حَقّاً يَا إفْرَايِمْ رُبّمَا تَكُونُ النّهَايَةْ، هَذِهِ إسْرَائِيلُ تَرْتَجِفُ مِنْ مَصِيرٍ مَحْتُومْ، هَاصِرُنَا مِثْلَ رِئَامٍ[1] لَا فِرَارَ لَها مِنْ قَسْوَرَةْ، ولَا تَعْلَمُ لهَا قُبُلاً مِنْ دُبُرْ، هُمْ جُنْدُ فِرْعَوْنَ عَلَى غَيْرِ بَعِيدٍ مِنَّا يَتَضَاحَكُونَ فِي هَزْءٍ لَا يَتَعَجّلُونَ نّهَايَةً قَدْ ضَمِنَهَا البَحْرُ كَأَنّهُ حَلِيفٌ لَهُمْ، فَمَا حِيلَةُ مُوسَى ومَا بَالَهُ يَنْتَظِرُ ورَبُّهْ؟

- رَأَيْتُ يَا إفْرَايِم هُمْ جُنْدُ فرْعَوْنَ فِعْلاً فِي غِبْطَةِ مَنْ ظَفَرَ بطَرِيدَتهْ، فأرْخَى لَهَا رَسْنَاً ورَاحَ مُتَسَلّيَاً بِجَزَعِهَا فِي شَمَاتَةْ، هُوَ المَوْتُ إذَنْ لَا مَحَالَةْ، قَالَهَا حِزْقِيَالُ ورَمَى بِعَيْنَيهِ إلَى الأَرْضِ وعَلَاهُ قُنُوطٌ بَادْ، بِيَنَما عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ يَصُولُ فِرْعَونُ بَعَجَلَةٍ حَرْبِيّةٍ رّشِيقَةٍ وبأَنَفَةٍ يَجُرُّهَا زَوْجٌ مِنْ جِيَادٍ مُطْهَمَةْ، يَقُودُهَا سَائِسٌ مُحْتَرِفٌ ومِنْتَخَبٌ مِنْ حَرَسِهِ الفِرْعَوْنِيّ، حَتّى بَدَا مُطمَئِنّاً لعَتَادِهِ ولجَيْشِهِ الّذِي حُشِرَ مِنْ أَجْلِ سَاعَتِهِ هَذِهْ، فَنَادَى فِيهِمْ أَنْ يَرْتَاحُوا سَاعَةً لَا يَغْفلُونَ خِلَالَهَا عَنْ عَدُوّهِمْ حَتَّى لَوْ بَاتَ فِي قَبْضَتِهْ، ثُمّ آوَى إلَى عَرِيشَةٍ مَلَكِيَّةٍ مُجَهّزَةْ، مِتَألّمَاً وهُوَ يَصِيحُ بِهَامَانَ آمِرَاً بالطّبِيبِ عَلَى عَجَلْ، أَتْعَبَتْ الطّرِيقُ الوَعِرَةُ العَجِيزَةَ المَلَكِيّةَ للإلَهْ، وأنهَكَتْ التّسَلّخَاتُ مِنْه فَخِذَيْنِ لَهُمَا مِنَ القَدَاسَةِ شَأْن،

[1] نعام.

ومَا لبِثَ الطّبيبُ أنْ حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْه، وَ قَدْ جَلَسَ الرّبُّ مُتّكِئَاً إلَى عَرْشِهِ البَدِيلِ المَحْمُولْ، مَآداً بِسَاقَيْهِ فَوْقَ خُوَانٍ أَدْنَى مِنَ العَرْشِ فِي إنْهَاكٍ بَادٍ عَلَى سِحْنَتِهْ، وقَدْ نَزَعَ تّاجَهُ عَنْ رَأسٍ مَلَكِيٍّ مِنْ اللَّغَبْ، فَلَاحَتْ صَلْعَتَهُ يَتَنَاثَرُ مِنْ أثْنَائِهَا فَضْلُ شَعْرٍ ذَاهِبٍ أَشْيَبْ، ومِنْ بَينَ يَدَيْهِ جَلَسَ الطَّبِيبُ يَدْعَكُهُ بِزَيْتِ الخَرْوَعِ بِعِنَايَةٍ، ورَنَا بِعَيْنَيْهِ الشِّبْهِ نَائِمَتَيْنِ نَحْوَ هَامَان مُرْدِفَاً فِي سُخْرِيَةْ:

- جِرْذَانٌ مِنْ عَبِيدِي فِي النّظَرِ إلَيْهِمْ مُتْعَةْ، وأَيُّ مُتْعَةٍ لَوْ يَعْلَم الآبِقُ مُوشِي يَا هَامَانْ هَاهَاهَا

- حَقّاً يَا مَوْلَايْ، أُنظُرْ لحَيْرَتِهِمْ واضْطِّرَابِهِمْ كِنِعَاجٍ مِنْ أمَامِهِم بَحْرٌ لجّيّ ومنْ وَرَائِهِمْ أُسُودْ، هَأهَأهَأ إنّهَا لَمَذْبَحَةٌ أكَيدَةْ.

- سَتَكُونُ يَا هَامَانُ يَقِيناً، قَلِيلٌ مِنْ رَاحَةٍ ثُمّ تَكُووونُ مَشِ ي .. نَتِي

كَانَ فِرْعَوْنُ يَلْفظُ كَلمَتَهُ جَاحِظَ العَيْنَيْنِ مِنْ فزَعْ، وقَدْ هَبَّ وَاقِفَاً كَلدِيغْ، فَأُسْقِطَ فِي يَدَيْ هَامَانَ مِنْ وَجْهِ رَبّهِ المَذْعُورْ، وهُوَ يَلتَفِتُ وَرَاءَهُ بعَشْوَائِيّةْ، ليُصْفَعَ بالّذِي أخَذَ فِرْعَوْنَ مِنْ هَوْلْ، تَحَجّرَ مِنْ تَوّهِ كتَمْثَالٍ لَا رُوحَ فِيهْ، وإذاهُ يَرَى جَيْشَاً جَمِيعَهُمْ سَامِدِينَ كَأصْنَامٍ بِلَا حِرَاكٍ ولَا إدْرَاكْ، قَدْ أصَابَتْ هَيْئَتُهُمْ رَجُلينِ تزَيَّلَا مِنْ قَوْمِ مُوسَى، مَا أشَاحَا عَنْ جَيْشِ مِصْرَ نَاظِرَةً مِنْ الرَّهْبَةِ واليَأس .

كَانَ إفْرَايمْ وحِزْقِيَالُ مَا بَرِحَا يَتَبَادَلَانِ حَدِيثَهُمَا فِي يَأْسْ، كرَجُلَيْنِ مِنْ شَعْبِ يَهُودْ، والّذِينَ إمْتَهَنُوا الجُحُودَ كُلّمَا أَحْدَثَ رَبُّ مُوسَى لَهُمْ آيَةْ، يُقَلّبَانِ النّظَرَ تَارَةً خَلْفَهُمْ، وتَارَةً نحْوَ مُوسَى مَا بَيْنَ الإشْفَاقِ وبَيْنَ الرَّجَاءْ، وفَجْأةً جَحَظَتْ عُيُونُهُمَا كأنّمَا هَوْلٌ قَدْ صَكّ الفِرْعَوْنَ وجنُودَهُ فَحَطّتْ عَليْهِمْ الطّيْرُ وأفْرَخَتْ، وهُمَا يَلْتَفِتَانِ بِآليّةٍ نَحْوَ صَوْتٍ بِلَا شَكٍ هُوَ الصّاعِقَةُ لَا غَيْرَهَا، فِاذَا هُمَا وقَدْ جَثَيَا بِلَا وَعْيٍّ فِي زُمْرَةِ بَنِي إسْرَائِيلِ الرّاكِعَةْ، لَا صَليلَ لَا صَهِيلَ ولَا حِرَاكْ، كَأنَّهَا مَاتَتْ الدّنْيَا فَجْأةً مِنْ كُلِّ

مَظَاهِرِ الحَيَاةْ، فَرِيقَانِ قَدْ جَمَعَ الرّعْبُ قُلُوبَهُمْ لمَرّةٍ وهُمَا الأعْدَاءْ، لَا شَيءَ غَيْرَ زَمْجَرَةِ البَحْرِ كَلَيْثٍ لَا يُنْبِؤُ مَنْ مِنْهُمَا فَرِيسَتَهْ، ورَذَاذٌ ثِقِيلٌ مَالِحٌ يَتَسَاقَطُ شَامِلاً بالبَلَلِ الجَمِيعْ، البَحْرُ كَمَنْ سَيقِيءُ مَاءَهُ فَوْقِ فَيَافٍ قَاحِلَةٍ عَنْ آخِرِهْ، وكَأنّ مَلَكاً خَفِيّاً وعَظِيماً يُنَقِّلُ قَدَمَيْهِ فِي لُجّتِهْ، يُقَايِلُ[1] المَاءَ كَحَكَمٍ عَادِلٍ يُوزّعُ البَحْرَ إرْثَاً بَينَ رَجُلَيْن، وللْبَحْرِ أطِيطٌ مِنْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ الثّقِلَتَيْن، فَلَاحَ البَحْرُ للنّاظِرِ مِثْلَ جِنّيٍّ مَارِدٍ يَمُدُّ يَدَيْهِ نحْوَ السّماءْ، يُنَازِعُ الأَلَمَ والشَّقِيقَةَ ولَا يُعْلَمُ لَهْ نِيّةْ، أَ يَرْمِي الجَمِيعَ بالهَوْلِ أَمْ نَاتِفٌ رَأسَهُ مِنْ وَجَعْ؟، وَسَكَتْ ليَكْتَمِلَ المَشْهَدُ المَهِيبْ، كَجَبّانَةٍ تَفْغُرُ فَاهَا فِي انْتِظَارِ وَلِيمَةٍ دَسِمَةْ، سَكَتَ كَمَنْ مَاتَ بَغْتَةً رَافِعَاً يَدَيْهِ كَأشَمّ جبَلَينِ مِنْ مَاءْ، فَاغِراً فَاهُ كَأنْثَى تُجَرّبُ النَّدِيبْ، سُكُوتٌ قَطَعَتْهُ رِيَاحٌ دَافِئَةٌ فَجْأةْ، فكَادَتْ تَأخُذُ كُلَّ النّاسَ عَلَى غِرَّةْ، وكَأنّهُ المَلَكُ نَفْسُهُ يَنْفُخُ فِي قَعْرَ يَمٍّ بَارِدٍ يَجِفُّ لِنَفْخَتِهِ الوَحْل .

وَقَفَ مُوسَى مَشْمُولاً برِعَايةِ اللهِ فِي طُمَأنِينَةْ، يُرَاقِبُ فِعْلَ رَبّهِ فِي إيمَانٍ رَاسِخٍ وخُشُوعْ، يَشَاهِدُ الطّرِيقَ العَجِيبَ بَيْنَ أَخْشَبَيْنِ مِنْ المَاءْ، رَأَى الأَرْضَ تتَخَدَّدْ، عَجُوزٌ يَتَجَعّدُ وَجْهُهَا حَتّي تَيَبَّسْ، أدْرَكَ بُغْيَتَهُ فَالتَفَتَ إلَي قَوْمِهِ فِي يَقِينٍ آمِرَاً:

_ الآنَ يَا قَلِيلِي الإيمَانَ مَاضٍ أنَا فَاتّبِعُونْ، ثُمّ خَاضَ فِي سِكّةٍ مَا دَاسَتْهَا قَبْلَ قَدَمَيْهِ قَدَمٌ ولَا مَشَى ظِلْفٌ مُتَمْتِمَاً بالحَمْد، القَوْمُ فِي سَكْرَةٍ لَيْسَ مُنْهُمْ آمِنْ، مَنْ يَخُوضُ مَخَافَةً كهَذِهْ؟، لَيْسَتْ بالمَفَازَةِ التِّي يُحْتَمَلُ مِنْهَا نّجَاةً ولَوْ كَانَ أمَلَاً ضَعِيفَاً، فمَا آمَنُوا أنْ يَكُونَ هَذَا حَتّى عَايَنُوا مُوسَى يَخُوضُ وَاثِقَاً كَبِدَ البَحْر، فَانْدَفعُوا جَمِيعَاً عَلَى هَيئَتِهِمْ صُفُوفَاً، ويَحْتَمُونَ بِمَا أشَاعَهُ النّبِيُّ مِنْ ثِقَةْ، مَا إنْ اطْمَأنُوا حَتّى خَاضُوا عَنْ

[1] يقسم قسمين عادلين.

بَكْرَتِهِمْ البَحْرَ يَطْلُبُونَ النّجَاةَ بِجِدٍّ فِي حَثِيثِ سَيْرْ، يَسُوقُونَ أَمْتِعَتَهُمْ وتُجِدُّ بِهِمْ المَطَايَا، فزَايَلَهُم الخَوْفُ رُوَيْداً رُوَيْداً ودَاخَلَهُمُ الأُنْس، حَتّى مَضَوْاْ يتَفَرجُونَ علَى عالَمٍ ويتَفَرّجَ عَلَيْهِمْ عَالَمْ، إنتصَفَ بِهِمُ السَّبِيلُ حتّي أنّهُم نَسُوا أمرَ فرْعوْن، أوْ أَنَّهُ نَسِيهُمْ فِرْعَوْنُ الّذِي كَانَ فِي جُنودِهِ تعْلُوهمُ الدّهشَةُ ما زَالُوا .

وَبيْنمَا الإلهُ يعُودُ لرُشدِهِ شيْئَاً فشَيئاً، يُرَجِّعُ بصَرَهُ فِي البَعِيدْ، يُرَاقِبُ إسرَائيلَ وقَد أبْعَدُوا فِي اليَمِّ فَأوْشَكُوا يَتْرُكُونَهْ، وَجُنْدُهُ عَلَى حَالِهِمْ منْ ذُهُولْ، فَأَخَذَ فِيهِمْ صِيَاحَاً وفِي ثقَةٍ عرْجَاءٍ قَدْ تهَدّلَتْ بهَا نبْرَتُهُ الإلهِيَّةُ المُتعَجْرِفَةْ:

_ هَذَا هُوَ البَحْرُ قَذَفَتْ إِسْرَائِيلُ نَفْسَهَا فِي لُجَّتِهْ، آثَرُوا الغَرَقَ جَزَعَاً وخَوْفَاً مِنْ عَذَابِيَ الّذِي أعْدَدْتُّ لهُمْ، فَمَا ظنُّكُم بجَلَالي وقُدرَتي؟ هَا قَدْ أَطَاعنِيَ البَحرُ كَيْ أُعِيدَهُمْ خَاسِئِينَ لحَظِيرَتِي، خُدَّامَاً لِعَظَمَتِي ومِنْ بَعْدُ لرَعَايَايَّ المُخْلِصِينْ، قالَها كَإلهٍ مُتَوَتِّرٍ يطَمَئِنُ لِجَانِبِ عبَادٍ لَهُ رُبّما تزَعزَعَ إيمَانَهمْ بهْ، وتَوَجَّهَ إلَى وزِيرِهِ مُشْفِقَاً، فَنَظَرَ هَامَانُ وقَدْ إرْتَعَدْ، وبَدَا الإنْكَارُ عَلَي مُحَيّاهُ مِنْ جَرْأةِ إلَهٍ يَعْلَمُ جَيِّدَاً أَنّهُ كَاذِبْ، ولَا تَسْمُو بِهِ قُدْرَةُ إلهٍ لَهُ شُرَكَاءُ فِي مُلْكِهِ وأيْضَاً فِي كَذِبَاتِهْ، سرْعانَ ما أخْفَى إنكَارَهُ مِنْ خَلْفِ نظرَتِهِ ذَاتَ المَغزَى، والّتِي يفْهمُها فِرعَونُ جيّداً مردِفاً:

- مولَايَ، ودَنَا منْ ربّهِ يُسِرُّ لهُ بحَدِيثٍ لمْ يكُنْ ليَكُونَ علَى مَلأٍ مِنْ جُنْدٍ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةْ

- أرَي أنْ يَأمُرَ الفِرْعَوْنُ جَيْشَهُ بالعَودَةْ، الأَمْرُ جَلَلٌ يَا مَوْلَايَ لَاقَتْ كَلِمَاتُهُ إرْتِيَاحَاً فِي نَفْسِ فِرْعَوْن، بَيْدَ أنّهُ آثَرَ ألّا يُبْدِى جُبْنَهُ أَمَامَ مُعْجِزَةٍ جَدُّ قَاهِرَةْ، قَدْ أخَلَّتْ بسَلَامِهِ كَمَا ألقَتْ بالوَهَنِ وبالجُبْنِ فِي قُلُوبِ جَيْشِهْ، أرْدَفَ كَأَنَّهُ إلَهٌ فِعْلِيٌّ ولَهُ حِكْمَتُهْ:

- مَاذَا تَقُولُ أَيّهَا الخَرِفْ؟، أبعدَ كلّ هَذَا نرْجِعْ، قَدْ أَوْشَكْنَا أَنْ نَقْتَلِعَ شَأفَتَهُمْ، فَمَا حُجّتُنَا أَمَامَ مَمْفِيسْ؟، بلْ أَمَامَ جُنْدٍ عَايَنُوا مَا تَرى؟، أَ هُوَ الجُبْنُ تَرْضَاهُ صِفَةً تُلَاحِقُ إلَهَ مِصْرَ حَيّاً؟، وتُخَلّدُهَا عنْهُ بَرْدِيّاتُهُ مَيِّتَاً؟، عَجَبَاً لِمَا قُلْتَ عَجَباً!

- مَوْلَايَ مَاذَا وقَدْ عَلِمْتَ أنّهُ لَيْسَ سِحْرَاً مَا تَرَى مِنْ مُوسَى؟، فَلَا مُوسَى ولَا الفِرْعَوْنُ ذَاتُهُ بمَسْتَطِيعٍ أنْ يَفْعَلَ أيُّكُمَا مَا نَرَى، إنَّهَا قُدْرَةٌ لَا نُدْرِكُهَا يَا مَوْلَايْ، ثُمّ أيّهَا الفِرْعَونُ قَدْ كُفِينَا القَوْمَ وحِيلَ بَيْنَنَا ومَا بَينَهُمْ، لنَنْتَهِي إلَى هَذَا لعَلّ فِي الطّالِعِ مَا لَا تُحْمَدُ عَوَاقِبُهُ، ولَكَ الأَمْرُ يَا سَيّدَ الوَادِي، قَالَهَا هَامَانُ فِي لُؤْمِ عَارِفٍ بِمَا فِي نَفْسِ سَيّدِهِ، لِكَيْ يُرْضِي عَجْرَفَةَ إلهٍ خَائِفْ، وبلُؤْمِ سِيَاسِيٍّ مُحَنّكٍ نَظَرَ فرْعَونُ إلَى وَزِيرِهِ، كمَنْ يَفْتَحُ بَابَاً للضّغْطِ عَلَى مُتَمَنِّعٍ لَيْسَ جَادَاً فِي تَمَنُّعِهْ، أرْدَفَ:

- يَبْدُو فِيمَا أثَرْتَهُ شَيءٌ مِنْ حِكْمَةٍ يا هَامَانْ، ولَكِنْ مَا المَوقِفُ إزاءَ هَؤْلَاءِ؟، ألَا يَبْدُو الأَمْرُ مُسْتَغْرَبَاً وهَذَا هُوَ الطّرِيقُ خَلْفَ عَدُوّنَا يَفْتَحُ ذِرَاعَيْهِ لنَلْحَقَ بِهِمْ؟، ومَا يَتَبَقّى لفِرْعَوْنَ مِنْ قُدْسِيَّةٍ فِي قُلُوبِ شَعْبِهْ؟، أَوْ لمَنْ يَنْتَظِرُونَ نصْرَهُ فِي مَمفِيسْ؟، الأَمْرُ بَاتَ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ لإقْنَاعِ شَعْبٍ بأَسْرِهِ قبْلَ جُنْدٍ أَمَامَكَ وهُمْ شهُودْ، أَمَا هُنَاكَ منْ وَسِيلَةٍ مُقْنِعَةٍ كَيْ تُقْنِعَ الجَمِيعْ؟، فَكّرْ يَا هَامَانْ، فَكّرْ فَمَا أَصْعَبَ الأَمْرُ عَلَى نَفْسِ سَيِّدِكْ، وأَطْرَق فِي البعِيدْ .

رَاحَ هَامَانُ يَهْرُشُ رَأسَهُ الحَلِيقَ فِي اسْتِغْرَاقٍ وَحَيْرَةٍ مَعَاً، ويَسْتَدْعِي دَهَاءَهُ الغَائِبْ، ويَهْرُشُ حُنْكَتَهُ أَيْضَاً، يَزْرَعُ الأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْ فرْعَوْنٍ بقَلَقٍ قَاتِلْ، كَانَ يَجْتَهِدُ فِي أَنْ يَخْرُجَ بنَفْسِهِ أوَّلَاً مِنْ رُعُونَةِ إلهٍ صَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَاثِقَاً مِنْ اسْتِجَابَتِهِ لأَيّ حَلّ يُنْجِيهِ مِنْ رَهْبَةِ البَحْرِ حَقَاً، هَذَا مُوسَى مُطْمَئِنّاً إلَى رَبِّهْ،

أمّا أنْتَ يَا هَامَانَ فَأَيُّ رَبٍّ يُطَمْئِنُكْ؟

أَهَذَا الخَائِفُ المُتَشَبّثُ بِمَا سَتَقُولْ؟

أسْعَفَتْهُ الحِيلَةُ أَخِيراً فَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ وهُوَ يَشْهَقُ شَهِيقَ ظَافِرٍ عَادَ لِتَوِّهِ بالغَنِيمَةْ:

- مَوْلَايَ أرَى أنْ نَمْضِيَ خَلْفَ عَبِيدِكَ الصَّابِئَينَ بثِقَةٍ ومَهَلْ، مِثْلَ لِيُوثٍ قَدْ ضَمِنَتْ غَدَاءَهَا، وبدَعْوَى أَنَّهُمْ مُدْرَكُونَ لَا مَحَالَةْ، ولنَتَسَلّى جَمِيعَاً بِفَرَقِهِمْ قَبْلَ الغَنِيمَةْ

- أفصِحْ يَا رَجُلْ، مَا الحِيلَةُ فِي هَذَا؟

- الجُنْدُ قَدْ وَقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ مَا أَصَابَ الفِرعَوْنَ، وسَتَلْقَى الدَّعْوَةَ مِنْهُمْ بَعْضَ الإرْتِيَاحْ، تَحْتَ هَوْلٍ رَأوْهُ يَا مَوْلَايَ كُلُّهُمْ خَائِفٌ يَنْتَظِرُ عِلَّةً مِنْكُمْ، كَمَا تَنْتَظِرُ عِلَّةً أَمَامَهُمْ

- ومَا بَعْدَهُ يَا رَجُلْ؟

- إنّ هَذَا اليَمُّ مَا إنْ يَجْتَازُهُ بَنُو إسْرَائِلُ وقَدْ أوْشَكُوا، فِي ظَنِّيَ مَا فُعِلَ بِهِ إلّا ليَنْجُوا، أتَرَاهُ يَدَعَنَا مُوسَى نُدْرِكُهْ؟، لَا بالطَّبْع، إنَّ آيَةَ سِحْرِهِ تعْلَمُهَا جَيّداً

- وَبُعْدُ يَا هَامَانْ، قُلْ كَلَامَكَ دُفْعَةً وَاحِدَةً فَلَا صَبْرَ لِي

- أظُنّهُ يَا مَوْلَايَ سَيُطْبِقُ بسِحْرِهِ البَحْرَ فَوْرَ عُبُورِهِمْ كَيْلَا نُدْرِكَهُمْ، وَقْتَهَا نَكُونُ قَدْ حِيلَ بيْنَنا وبَينَهُ، فَيَرْتاحَ الجُنْدُ مِنْ أمْرٍ يَرْهَبُونَهُ فِي أنفُسِهِمْ، ويَكُونُ لَنَا تَعْلِيلاً وحُجّةً لرَبٍّ شُجَاعٍ طَلَبَ طَرِيدَةً ولَمْ يُدْرِكْ، أَخْوَفُ مَا أَخَافُ أَنْ يَفْعَلْهَا ونَحْنُ فِي عَيْنِ البَحْرْ، أَوَ ليْسَتْ بالْفِكْرَةِ يَا مَوْلَايْ؟

- تُرِيدُ أَنْ نتَنَاوَمَ حَتَّى يُعِيدَ مُوسَى البَحْرَ سِيرَتَهْ، وقَبْلَ أنْ نَخُوضَ وَرَاءَهُ كَأنّنَا فَاعِلِينْ

- هُوَ ذَا يَا مَوْلَاىَ مَا يُقْنِعُ الجُنُودَ بعَزْمِ فِرْ عَ ون.

لَمْ يُكمِلْ هَامَانُ جُمْلَتَهُ الأخِيرَةَ إلّا وجَوَادَهُ كَالّتِي نَدَهَتْهَا الرِّيحُ غَصْبَاً، وبلَا إرَادَةٍ مِنْهُ عَلَى آثَارِ الفرْعَوْنْ، وإذَا بالجَيْشِ الفِرْعَوْنِيّ يَسَّابَقُ مُنْسَاقَاً خَلْفَ رَبِّهِمْ ووَزِيرِهْ، لِمَا رَأوْا مِنْ جَرْأَةِ شُجَاعَيْنِ يَخُوضَانِ عُبَابَاً إلَى الْعَدُوّ، عُنْوَةً أُخِذَا ولَا مَحِيصْ، فَانْسَاقَ الجَيْشُ خَلْفَهُمَا عَقِيدَةً فِي رَبّهِمْ، ولِمَا بَدَا لَهُمْ مِنْ شَجَاعَتِهْ.

كَانَتْ فَرَسٌ لَا كَأفرَاسٍ رَأهَا جَوَادُ فِرْعونْ، تخْطُرُ فِي دَلَالٍ مَنْ يغْذُوهَا شَبقٌ عَلَى سِكَّةٍ جَدَّتْ لِليَمِّ، وتَرْعَى نَجْمَاً[1] نَابِتَاً لَيْسَ كَأَيِّ حَشِيشٍ طَعِمَهُ جَوَادٌ ولَوْ كَانَ مَلَكِيّاً، أثَارَتْ الفَرَسُ جوَادَيّ الفرْعوْنَ وهَامَانَ فرَكَضَا بِهِمَا نحْوَهَا طَلَبَاً، أوْغَلَتْ بِهِمَا فِي حَشَا البَحْرِ مُرْغِمَيْنَ حَتّى توَرّطَا بالفرْعَوْنِ وبحَليفِ غِوايَتِهْ .

أمْواجٌ منْ بشَرٍ تخُوضُ الطّرِيقَ اليبَاسَ فِي سُرْعَةٍ محْمومَةْ، يَقْتُلُهُمْ الرُّعْبُ رَغْمَ شَجَاعَةٍ ظّاهِرَةْ، والجِيَادُ ترْمَحُ بِهِمْ نَحْوَ مَا يَخْشَونَهُ بِلَا مَلْكٍ مِنَ الجَمِيعْ، وقدْ بَدَتْ لَهُمْ الطّرِيقُ مُمَهّدَةْ، فَتَوَافَدُوا طلِيعَتُهُمْ وفُلُولُهُم حتّى انْتصَفَ بهِمُ البَحرُ فَدَاخَلتْ الفرْعَوْنُ طُمأنِينَةٌ وعَاوَدَهُ غُرُورُهُ المَلكِيّ، والطّريقُ قَاتِلٌ يكْمُنُ لفَرِيسَتِهْ، ويُفْسِحُ فَخَّهُ نَحْوَ الكَارِثَةْ.

فِي عُجَالَةٍ تخْرُخُ فلُولُ إسْرائِيلُ إلِى الضّفّةِ الأُخْرَى يَتَصِايَحُونَ رَهَقَاً وخوْفَاً منْ صَليلِ العجَلاتِ منْ ورَائهِمْ، ومِنْ جنُونِ جيشٍ كأنّمَا عنْقَاءٌ تطِيرْ، فَزِعِينَ كأنْ لَمْ يَعْبُرُوا لُجّةً قَدْ حنَتْ عليْهِمْ مثلَ أمِّ رؤُمْ، ومَا

[1] نوع من الطحالب

إطمَأنُوا بطَبِيعَتِهِمْ اللَّئِيمَةِ لِآيَاتِ الرَّبِّ المتَجسّدَةْ، صَارِخينَ عَوَالٍ[1] تنْدُبُ فِي مآتَمِهَا جُمْلةً واحِدَةْ

- يَا نَبيّ الله هذَا فرْعَونُ كادَ يَأخُذُ أَقفِيَةَ الآخِرِينَ منّا، فمَا بَالُ رِبِّكْ يَا مُوسَى يَترُكُنا لِطَاغٍ انْتَصَفَ بهِ اليَمُّ فَما نَرَاهُ إلّا مُدْرِكَاً؟

عَلَا صَوْتُ "يُوشَعُ" غاضِباً منْ جزَعِ النّاسِ، ومِنْ جُحُودِهِمْ فِعَالَ الله، يَالَ قوْمٍ بئْسَ النّاسُ هُمْ، أمَا تصْبِرُونَ ويَدُ اللهِ كمَا تَرَوْن؟، هذَا نبِيُّ اللهِ يُنَاجِي رَبَّهُ مَا أعْجَلَكُم منْ قَومْ، قاطَعَتْهُ خُطَىً يعْرِفُهَا بقَلْبِهِ مِنْ قبْلِ سَمْعِهِ، كَانَ الرّسُولُ فِي ثِقَةٍ يخْطُو نحْوَهُمْ، فأَفسَحَ لهُ يوشَعُ فِي وَقَارٍ حتّى احْتَلّ مكَانَهُ فِي النّاسْ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنَى علَيهِ ثُمّ واجَهَ القَوْمَ فِي سَكِينَةٍ قائِلاً:

- صَبْرَاً يَا خِرافِيَ الضّالَةَ، قَدْ أُمِرْتُ أنْ أَتْرَكَ البَحْرَ رَهْوَاً فمَا بَالُكُمْ أنتُمْ، أَ أنَا أعْلَمُ أمْ اللهْ؟، أتُرَاكُمْ مَا زِلتُمْ فِي شَكٍّ منْ ربِّكُم؟

هتَفَتْ رُؤُسُ الأسْبَاطِ دَفْعَاً عنْ أنْفُسِهِمْ فِعَالَ جُهَّالَهُمْ فِي حَضْرَةِ شَدِيدٍ يَخْشَونَهْ

- لَا واللّه وقَدْ أرَانَا فَضْلَهْ، أعْذِرْ خَوْفنَا وقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْنَا مَا عَلِمْتْ، ورُبَّ أَمْرٍ نُبّئْتَهُ يَكْشِفُ جزَعَاً فَهُرِعْنَا إليْكَ يَا نَبِيَّ الله

- رُبَّ جَائِعٍ سَأَلَ وأغْلظَ .. لوْ أنّهَ صَبَرَ لأتَاهُ خُبْزَهْ، لِسَانُ حَالِ مُوسَى وقَدْ بَدَا أنّ وَحْياً مَا أتَاهُ، تعَلّقتْ العُيونُ بِعصَاهُ الّتِي عَهِدُوهَا فَرَجَاً، قَدْ أشَارَ بهَا نَحْوَ فِرْقِ البَحْرِ فِي حُبُورٍ وتَهْلِيلْ، شَرَعَ الرّسُولُ يَضْرِبُ بِعَصَاهُ البَحْرَ متَمْتِمَاً الآنَ أُمِرْتْ .

---

[1] من يندبن في المآتم

لَاحَ فرْعَونُ لَا يَمِيّزُهُ النّاظِرُ إليهِ مِنْ جُنْديّ عَادِي، قَدْ تَسَاوَتْ السِّحَنُ تحْتَ هَولٍ أتَى بَفَجْأتِهْ، خَيْبَةٌ وهَلَعٌ وحَيْرَةٌ وتَخَبّطْ، مَاذَا يَحْدُثُ وكَيفَ أوْحَلَتْ بَغْتَةً بالخَيْلِ الطّرِيقُ وكَأنّها لَمْ تَكُنْ كَدِيداً مِنْ بَرْهَةْ؟

تَسِيخُ فِي وَحْلِ اليَمِّ خُيُولٌ كَالرِّيحِ مِنْ لَحْظةٍ كَانَتْ، أبْطَأَتْ بهِمْ كَأنْ شُدَّتْ إلَى سُوقِهَا مَقَامِعٌ وبَلَغَ مِنْهَا الجَهْدُ مَبْلَغهْ، والجُنْدُ فِي مَسٍّ مِنْ جُنُونٍ بَيْنَ رَاجِلٍ قَدْ أخَذَهُ وَحْلٌ لِرُكْبَتَيْه، ومَا بَيْنَ رَاكِبٍ تَسَمَّرَتْ بِهِ سُوقُ مطِيّتِهْ، فَلَاحُوا كَسُجَنَاءِ فَلَاةٍ[1] ابْتَلعَتْ رِمَالُهَا أنْصَافَهُمْ، بَاتُوا مَغْنَمَاً لِكُلّ ذِي نَابٍ أوْ ظُفْر، مَا أشَنَعُهَا مِنْ نِهَايَةْ، القَوْمُ فِي تَوَسُّلَاتٍ نَاظِرِينَ بِرَيْبَةٍ نَحْوَ فِرْعُونْ، فِي فرَاغِ يَدٍ إلّا مِنْ خَيْبَةٍ وحَسْرَةٍ إزَاءَ إلَهٍ آمَنُوا بِهِ فإذَاهْ أرْعَدَ الوَاكِفِينْ، فزَعٌ يَنْتَابُ إلَهَاً أمَامَ عَبِيدٍ يَسْتَغِيثُونَهْ، فإذَا بِهِ يَسْتَغيثُ رَبَّاً طَالَمَا صَرَفَهُمْ عَنْهْ، فَصَرَفُوا الأبْصَارَ قَانِطِينَ عَنْ إلَهٍ لَا حَوْلَ لَهُ ولَا هُوَ مُغْنٍ عَنْ نَفْسِهِ فيُغْنِيَ عنْهمْ، وهَذَا البَحْرُ رَاحَ يتَمَطَّى كَمَبعُوثٍ مِنَ المَوْت، بَدَا مَارِدَاً شَبَّكَ قَبْضَتَيْهِ مُتَثَائِبَاً، ويزْفَرُ فِي غَضَبٍ أنْفَاسَهُ المَالِحَةَ صَرْصَرَاً مُشْبَّعَةً باللُّزُوجَةْ، تَنْقَطِعُ الأنْفَاسُ لَاهِثَةً مِنْ رُطُوبَةٍ تَهْبِطُ بالضِّيقِ والظُّلْمةْ، مَاجُوا عَنْ بَكْرَتِهِمْ فِي هَلَعٍ كَعَجِينَةٍ وَاحِدةٍ مِنْ عَوِيلٍ وصُرَاخٍ ومِنْ لعَنَاتْ، كَفَرُوا بِرَبٍّ مَشْغُولٍ بِإيمَانِهِ لَمّا عَايَنَ المَوْتْ، والبَحْرُ لَا يُعْنَى لشَأنِهِمْ، يَهْبِطُ مِنْ عَلٍ وَاثِقَاً كَجِبَالٍ تَزَلْزَلُ بالرّجْومِ .. ثُمّ إلتَأَمْ ..

فَمٌ..أَهْتَمٌ..مَهُولٌ.. يَزْدَرِدُ بِلَا مَضْغٍ لُقْمَتَهْ .

---

[1] صحراء

هُدَى

فِي البَعِيدْ، كَانَتْ ثُلّةٌ تَتَّخِذُ البَحْرَ قِبْلَةً عَلَى خُطَى الجَيْشْ، يَتَقَدَّمُهُمْ " إِسْفِينِيسُ" كَرَئِيسٍ لِنفَرٍ مِنْ جَيْشِ فِرْعَوْن، فِرْقَةٌ صَغِيرَةٌ عَلَى عَادَةِ الجُيوشِ تتَخَلّفُ لِأَعْمَالِ المُؤَخِرَةْ، تَتَفقَّدُ الضّالَّ مِنْ جُنْدٍ رُبَّمَا شَرَدُوا لِعِلّةْ، أَوْ لِحَاجَةٍ أَوْ لالْتِقَاطِ مَا تخَلّفَ مِنْ مَتَاعْ، ويَنشَطُونَ عَلَى أَثْرِ الفِرعَوْنَ كَيْ يَلْتحِمَ وفِرقَتَهُ بجَسَدِ الجَيشْ، هَا هُمْ قَدْ عَايَنُوا أَحْقَافَ البَحْرِ عنْ قُرْبٍ، فَخَفّفُوا مِنْ عَدْوِهِم بِخُيولٍ أَدْرَكَتْ غَايَتَهَا أَوْ كَادَتْ، نَاظِرُونَ فِي الأُفُقِ المتَدَثّرِ بغُلَالَاتٍ مِنْ غُبارْ، كأنّها هَزِيعُ معْركةٍ حَامٍ وَطِيسُهَا مُحْتَدِمَةْ، رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً تتَّضِحُ الرُّؤْيَةْ، بَدَا لهُمْ منْ بعِيدٍ مَا أنكَرَتْهُ أَعْيُنُهُمْ مِنْ جَلَلْ، وأَوْقَعَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا هُوَ أَنْكَى أَلَمَاً مِنْ وَقْعِ الحِرَابْ، فَتَصَلّبُوا كأَصْنَامِ آلهَةٍ تعُجُّ بهَا رُبُوعُ مِصْر، وأَخَذَتْهُم دَّهْشَةٌ لِرِدْحٍ طَالَ أَوْ قَصُرَ فَمَا أَدْرَكَ مُدْرِكٌ كَمْ لبِثُوا، كَانَ المَشْهَدُ مُرَوِّعَاً مَا طَالَعَتْهُ عَيْنٌ ولَا عَقْلاً يُصَدّقُ لَوْ رَأَتْهُ العَيْن، بصَوْتٍ تَخَلّى عَنْ لهْجَةِ الآمِرِ هُوَ بينَ دّهشَةٍ وإِنْكَارٍ صَاحَ فِيهِم القَائدُ مشْدُوهَاً:

سِنِفْرُو .. أيّها الشّجَاعُ أَحَقَّاً مَا أرَى؟

_ سيّدِي إِسْفِنِيسْ، لوْ لمْ تسْألْ لشَكَّكْتُ فِي عَقْلِي قَبْلَ عَيْنَيْ

_ أَ هُوَ المَاءُ حَقّاً كَجَبَلَيْنِ يُخَاصِمُ كلُّ صَاحِبَهْ؟، هَلْ ابْتَنَتْ بَيْنَهُمَا الآلهَةُ حَاجِزَاً يَا سِنفْرُو، أَمْ خيَالَاتٍ نَرَى؟

_ بَلْ مَا تَرَاهُ هُوَ عَيْنُ مَا نُشَاهِدَهُ جَمِيعَاً أَيُّهَا السَّيِّدْ.

أَتَاهُ صَوْتُ السّائِسِ فِي ثِقَةْ، ومَا كَادَ حَتَّى قَاطَعَهُ "سِنِفرُو " فِي نَبْرَةٍ بَيْنَ البُشْرَى والتَّعَجُّبِ صَائِحَاً:

_ مَوْلَايَ أَنْظُرْ، هُم جُنْدُ مِصْرَ كَسِهَامٍ خَلْفَ رَبِّهِمُ الجَسُورُ نْاشَطِينَ خَلْفَ ثُلَّةِ الآبِقِينْ، أفَلَا نُسْرِعُ إلَيْهِمْ لنُشَارِكَ الفِرْعَونَ إنْتِصَارَهُ الّذِي بَاتَ قَيْدُ سَاعَةْ؟

_ لَا يَا سِنفْرُو، تعْلمُ أنّ لكُلّ فِرْقَةٍ مَهَامّاً مُحَدّدَةْ، لَا يُمكِنُ الخُرُوجَ عنْهَا، حَسْناً لَقَدْ نَسِيتُ أنّكَ مِنْ مُتَطَوّعِي الشّعْبِ يَا عَزِيزِي سِنِفرُو، عَلَيْنَا أنْ نُمَارِسَ مَهَامّنَا فِي خَلْفِيّةِ الجَيْشِ، وأنْ نَبْقَى فِي إنتِظَارِ أوْبَتِهِ المُظفّرةْ، هيّا إلَى أعْمَالِكُمْ يَا بَوَاسِلْ، لنَرْبَحْ بعْدَ فَرَاغٍ رَاحةً منْ وَعْثاءِ السّفَرِ فِي انْتِظَارِ فَرْحَةَ النّصْرِ هَيّا هَيّا .

إنْهَمَكَ الجَمِيعُ فِي أشْغَالِهِمْ فِي نشَاطٍ حَتّى تَلَاشَتْ هَرْجَلَةُ الجُنْدِ عَنْ أسْمَاعِهِمْ، يَتَنَاهَى الصّلِيلُ والصِّيَاحُ إلَى خُفُوتٍ كُلّمَا أوْغَلَ الجَيْشُ فِي اليَمّ، فنَشَطَ الجَمِيعُ نَادِمِينَ يحْدُوهُمْ شَغَفُ المَعْرَكَةْ، وتُدْهِشُهُمْ غرَابَةُ الأرْضِ العَجِيبَةِ الّتِي سَتَدُورُ رَحَاهَا فَوْقَهَا، مِثْلَ حِكَايَةٍ منْ غرَائِبِ الآلهَةِ المنْقوشَةِ فوْقَ جُدْرَانِ المَعَابِدْ، ومَنّوْا أنْفسَهُم بِمُشاهَدَةِ الصّرَاعِ الّذِي تَنَاقَلَتْهُ الكَهنَةُ بَيْنَ إيزِيسَ وإيزُورِيسْ[1]، وكَأنَّهَا الآلِهَةُ تُكَرّرُهَا فِي شَخْصِ رَاعِيَهُمْ فرْعَوْنُ مِصْرَ وجَيشِهْ، وبَينَ سِتْ ونِفْتِيسَ[2] فِي شَخْصِ مُوسَى ومَنْ مَعَهُ مِنْ تُبَّعٍ خَاسِرِينْ، حِكَايَةٌ شَيِّقَةٌ مِنْ بطُولَةْ، سَيَقُصُّونَهَا عَلَى أَسْمَاعِ الذّرَارِي، ويُغَانِجُونَ بِهَا النّسَاءَ حِينَ يَعُودُونَ بِالنَّصْر، سَيُشَارِكُونَ أسْطُورَةً مِنْ أسَاطِيرٍ وَرَثُوهَا قَدْ خَطّتْهَا آلهَةُ مِصْرَ المَعْبُودَةْ،

---

[1] ممثلا الخير في الأسطورة

[2] ممثلا الشر

بَلْ سَيُخَلّدُهُمْ كَهَنةُ مِصْرَ فِي مَرْوِيّاتِهِمْ كَتَاسُوعِ " أُونَ "[١] المُقدّسِ، قبْلَمَا يُقَرّرُ الإلَهُ " آتُومْ مِنْ رَعْ "[٢] أنْ يَخْلُقَ "شُو" و"تِفْنُوتْ "[٣] وبَاقِي الآلَهَةْ، هَا هُوَ الفِرْعَوْنُ يَخُوضُ حَرْبَهُ مَعَ إلَهِ مُوسَى، ليَكْتُبَ أُجْدُودَهُ الخَالِدْ، وبتَأْيِّيدٍ مِنْ " آتُومْ مِنْ رَعْ " المَعْبُودْ، بيْنَمَا خَلَا " سِنِفرُو" إلَى هَوَاجِسِهِ بيْنَ إيمَانٍ بَدَتْ وَسَاوِسُهُ تَنْقُضُ عُرَى عَقِيدَتَهُ فِي أرْبَابِ مصْر، وبَيْنَ تَشَبُّثٍ بمَوْرُوثِهِ المُقَدّسِ مُحَدِّثَاً نفْسَهْ:

مَا أعْظَمَ أنْ يَرَى المَرءُ بنَفسِهِ مَعَارِكَ الآلهَةْ، إنّهُ أدْعَى لتَرْسِيخِ إيمَانِهِ بمَروِيّاتِ كَهَنُوتٍ أقْرَبُ لخُرَافاتٍ مِنْهَا للحَقِيقَةْ، عَقْلُكَ يَا سِنِفرُو الّذِي سَكَنَهُ إرْتِيَابٌ مِنْ صَبْرِ الرَّبِّ عَلَى تَطَاوُلِ فَتًى كَمُوسَى، بَلْ الشّكُّ الّذِي نَهَشَ قلْبَكَ حِينَ أسْلَمَ السّحَرَةُ أرْوَاحَهُمْ بلَا تَرَدُّدْ، وعَازِفِينَ عَنْ تَهْدِيدَاتِ الفِرْعَوْن، وتِلْكَ السّعَادَةُ الّتِي طَغَتْ وفَاضَتْ علَيهِمْ وهُم يمُوتُونَ فِي رِضَىً أشلَاءً عَنْ يَقِينْ، الثّقَةُ يَا سِنِفرُو، وشُمُوخٌ رَأيْتَهُ مِنْ عَبْدَيْنِ أمْلَيَا عَلَى رَبِّكَ أنْ يَعْبُدَ رَبّهُمَا المَزْعُومْ، تِلْكَ الهَوَاجِسُ الّتِي كِدْتَّ تُلَوِّحُ بهَا لمَاعِتْ حبّةَ القلْبِ فِي ليْلَتِكُمَا المُخْتَلَسَةِ مِنْ الزّمَنْ ،وَ عَلَى طَيْفِ "مَاعِتْ" جَرَى كِرِيزُ شَفتَيْهَا فِي حُلقُومِهْ، مَاعِتُ مَنْ غَادَرْتَهَا امْرَأةً مِنْ ليْلَةٍ طَغَى فِيهَا الجُنُونْ، مَا عَسَاهَا الآنَ قَدْ تَفْعَلْ؟ أخْشَى أنْ تكُونَ قدْ حَمَلَتْ منْ لَيلَتِهَا، أخَافُ أنْ تَبْعُدَ بِنَا الشُّقَةُ هُنَا فتَفْتَضِحُ وهِي الّتِي مِنْكَ بمَنْزِلَةْ، عصِفَتْ بكُمَا شَهْوَةُ أجَّجَهَا شَبَحُ الفِرَاقْ، يَا آمُونُ العَظِيمُ إكْلَأهَا حَتّى أعُودُ سَالِمَاً) هَا ... هَاااهْ

---

١ أسطورة تتحدث بدء الخلق

٢ رع وخلق من تلفاء نفسهثم بدأ في خلق الأرض والرياح في علم المصريات

٣ شو رب الجفاف وتفنوت ربة الرذاذ.

مَاذَا .... يَالَ الهَوْل.. أنظُروا!، أصْوَاتٌ مُتَبَاينَةٌ تَرْتَفِعُ مِنْ حَوْلِهِ تُعيدُهُ مِنْ شُرُودِهِ وقَدْ أحَسَّ بِالرَذاذِ الثَّقِيلِ يتَنَاثَرُ فَوْقَ المَكَانِ حَتَّى لَكَأنّهَا تُمطِرْ، رَأَى الجُنْدَ سُكُوتَاً سُكَارَى ومَشْدُوهِين، تَعْلُوهُمْ حَيْرَةٌ لَا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ دَاعِيَهَا المَطَر، بُوغِتْ "سنِفرُو "وَأخَذَهُ مَا أخَذَهُمْ، يَا كُلّ الآلِهَهْ، إنَّهُ جَبَلٌ مَهُولٌ مِنْ المَاءِ يَتَأرْجَحُ فوْقَ أخدُودِ[1] اليَمّ كَأنّما يقْتَحِمُ السّماءَ، وَيْ! كَأنّهُمَا جَبَلَيْنِ يَتَنَاوَبَانِ الطّلُوعَ يُمْنَةً ويُسْرَةً لَا شَقَّ ولَا طَرِيقْ، لَا فِرْعَوْنَ ولَا أثَرَ لجَيشَ فِرْعَونْ، لَا شَيْءَ سِوَى المَاءْ، غَاضِبٌ كَغُولٍ نَهِمْ، ويَكَادُ يَتْرُكُ ضَفّتَيْهِ ليَجْرِيَ بنِقْمَتِهِ فِي فِنَاءِ سَبَاسِبٍ[2] لَا غَيْرَهَا تَسَعُ سَوْرَتَهْ، أُلْجِمُوا جَمِيعَاً بِلَا حِرَاكٍ يُرَاقِبُونَ المَشْهَدْ، والجَبَلُ يَقْصُرُ رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً حتّي إسْتَوَى مِنْ فَوْرِهِ بَحْرَاً هَادِئَاً إلّا مِنْ تَرَاقُصٍ وَدِيعْ، وكَأنَّهُ أُفْعُوَانٌ مهُولٌ يَهْضِمُ وَجْبَتَهْ، ويَا لَهَا مِنْ وَجْبَةٍ مُشْبِعَةْ، وبِلَا اتِّفَاقٍ يَسُوقُهُمُ الفَزَعُ هَرَبَاً مِنْهُ إليْه، أطْلَقُوا سِيقَانَهُمْ نَحْوَ السَّاحِلِ فِي تَدَافُعٍ مَحْمُومْ، وفِي الأُفُقِ خَيَالَاتُ بَشَرٍ بِحَجْمِ الذّرِّ تتَصَايَحُ فِي فَرَحٍ ظَاهِرْ، وبَرِيقٌ منْ التِمَاعِ ذَهَبِيٍّ يَسُوقُهُ المَوْجُ نَحْوَهُمْ فِي تُؤَدَةْ، كُلّمَا دَنَا إتَّضَحَتْ مَعَالِمَهْ، جُثّةٌ وَحِيدَةٌ تَتَهَادَى مَرْدُودَةً إلَى حَيْثُ أتَتْ، فَبُهِتَ القَوْمُ فِي فَزَعٍ مَكْتُومٍ وصَاحَ كُلٌّ فِي نَفْسِهِ .. يَا آمُوُونْ !

التَّاجُ للفِرْعَونْ، الزّينَةُ زِينَتُهْ، وهَالِكٌ فِيهِمَا لَا يُرْشِدُ عَلَيْهِ إلّا ذَهَبَاتٌ يَعْرِفُونَهَا، أقْعَوْا ذَاهِلِينْ، و"سنِفرُو" غَارِقَاً فِي صِرَاعِهِ مَا بَيْنَ صَدْمَةٍ ومَا بَيْنَ ارْتِيَاحٍ يَجْهَلُ بَاعِثَهْ، ورَاحَ يُحَادِثُ نَفْسَهُ مِنْ جَدِيدْ:

(أَ خَدَعَتْنَا الأبْصَارُ ومَا رَأَيْنَاهُ كَانَ مَحْضَ ظُنُونْ؟، يَالَ الحَقِيقَةِ حِينَ تَكُونُ أَغْرَبَ مِنَ الخَيَالْ، كُلّ فَلْسَفَاتِ الإنْسَانِ وفَرْضِيَّاتِهِ تَبْدُوا هُرَاءَآتٍ

---

[1] الصحراء.

[2] الشق الغائر في الأرض

أَمَامَ حَدَثٍ مَا، حَدَثٌ تُدْرِكُ عَبَثِيّةَ البَحْثِ عَنْ تَفسِيرِهْ، هُوَ الإيمَانُ وَحْدَهُ مَلَاذاً لمَنْ اسْتَنْزَفَتْهُ الحِيَلْ، العَاجِزُونَ بِكُلّ مَا بَحَوْزَتِهِمْ مِنْ سُبُلِ القُوَّةِ والبَأسِ أَمَامَ قُدْرَةٍ مَجْهُولَةْ، الإيمَانُ مَلَاذُهُمْ، قُدْرَةٌ تَعْصِفُ بإلَهٍ وبجَيْشَهُ فِي سِنَةٍ كَالبَرقْ!، يَاهْ أيُّ قُوّةٍ هَذِهِ هُوَ البَحْرُ فَمٌ لَهَا بِعَظَمَتِهِ؟ أَيُّ قُدْرَةٌ هَذِهِ تَقْضِمُ جَيْشَاً عَرَمْرَماً مِنْ مَائِدَةِ الأفُقِ هَكَذَا وبَبَسَاطةْ؟، أَنْتَ مُجْبَرٌ يَا سِنِفْرُو أَنْ تُؤْمِنْ، أنْ تُقِرّ لقُدْرةٍ عَصَفَتْ بِرَبٍّ مِصْرْ، بَلْ بِقَبِيلَةٍ مِنْ آلهَةٍ تُسَانِدُهُ، آهٍ يَا سِنِفْرُو التَّعِسْ، أَيَكُونُ إلَهُ مُوسَى الوَاحِدُ حَقّا؟

إنَّهَا لمُقَارَبةٌ عَجِيبَةٌ بَيْنَ مُوسَى ومَا تَوَاتَرَ عَنْ يُوزَرْسِيفْ[1]، هَلْ يُعْقَلُ أَنَّ رَبَّهُمَا الوَاحِدُ خَلْفَ مَا قَدْ رَأَيْتَ أيّهَا البَائِسْ؟

أيُعْنِيكَ إسْمُ إلَهٍ أبْهَرَتْكَ قُدْرَتُهْ؟

أيّاً كَانَ إسْمُهُ فَهُوَ لَيْسَ بِالإلَهِ رَعْ الهَشّ، وقَطْعَاً لَيْسَ بآتُونَ الّذِي أسْلَمَ إبْنَهُ إمِنْحُتِبْ فِي صَمْتِ الخَانِعِ لأعْدَائهْ، ومَا لَوَّحَ كَفَّهُ مِنْ أَجْلِهِ فِي وُجُوهِهِمْ، قَطْعَاً لَيْسَ مَنْ تَرَكَ دُورَاً شَيَّدَهَا معَبَدَاً مِنْ أجْلِهِ للخَرَابْ، ولَا هُوَ هَذَا الطّافِي بِلَا حِرَاكٍ جُثّةً هَامِدَةً يَلْهُو بَهَا المَاءْ، أَنْتَ مُجبَرٌ أنْ تُسْلِمَ جَنَانَكَ لرَبٍّ يَأبَى أنْ يُدْرِكَ عَدُوٌ عَبْدَهْ، ولَوْ فِي هَيْئَةِ جُثّةٍ فَانِيَةٍ لِيَرْكُلَهُ البَحْر، ومُرْجِعُهُ إلَى حَيْثُ أَتَى، وكَمَا تُعَايِنُهُ الآنَ يَا سِنِفرُو الحَائِرَ مَيِّتَاً، هَيّا .. اعْتَرِفْ رَاغِمَاً أنّهُ رَبُّ أولَئِكَ النّاجِينَ عَلَى مَرْأىً مِنْك، هَؤلَاءِ الصَادِحِونَ بِإسْمِهِ فِي فَرَحٍ هُنَاكْ) .

أَرْهَفَ قَلْبَهُ وسَمْعَهُ لتَهْلِيلِهِمْ .. وذَابَ هَامِسَاً بإسْمِهِ كَفَرْدٍ مِنْ إسْرَائيلٍ تَرَكُوهُ خَلْفَهمْ .... الله!

---

[1] تقُول الميثُولوجيا المصرية أنه الإله الأعظم وقد خلق نفسه ثم بدأ في خلق الآلهة تباعا

كَانَ لفْظُهُ غَرِيباً فِي فَمِهْ، بَيْدَ أنّهُ إسْتَشْعَرَ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهْ، وقَدَاسَةً طَفَرَتْ بِهَا فِي بَرَاءَةِ عَيْنَاهْ، صَامِتَاً فِي خُشُوعٍ لَهُ لَذّتُهْ، ومُغْرِقَاً فِي بُكَاءٍ كَأنّهُ الخَمْر.

الطّامَّة

أَنِينٌ خَافِتٌ كَعَزِيفِ الجِنّ، يَصْدُرُ مِنْ غُرْفَةٍ ضَيّقَةٍ بَعْضَ الشّيءْ، بَدَتْ مُنْزَوِيَةً فَانْتَحَتْ بتَوَاضُعِهَا عَنْ رُدُهَاتِ قَصْرٍ مَنِيفْ، وكَأَنَّهَا لَا تَلِيقُ بعَظَمَتِهْ، وعَلَى سَرِيرٍ أَبَنُوسٍ مِنْ مُخَلّفَاتِ سَادَةُ القُصْرِ كانَتْ "مَاعِتُ" مُسْتَلْقِيَةً فِي تَرَاخٍ لنَشِيجِهَا المَكْتُومْ، تَنْهَشُهَا وَسَاوِسٌ مَا زَالَتْ تُلَازِمُهَا مُنْذُ أَنْ غَادَرَهَا "سِنِفرُو" الحَبِيبْ، ومُوَزّعَةً بَيْنَ مَا تَرَكَهُ حَبِيبُهَا مِنْ لَذّةِ وِصَالٍ يَتَنَامَى لَظَاهْ، يَلْتَهِمُ جَسَداً قدْ تسَكّعَ لَيلَةً وحِيدَةً فَوْقَ نَاصِيةِ العِشْقْ، ومَا بَينَ حَنينٍ رُوحِيّ لِلفتَى الحَبِيبْ، وكَوَصِيفَةٍ فِي قَصْرِ رَئِيسِ الجُندْ، إعتَادَتْ المُكُوثَ فِيهِ إلّا منْ عطُلَةِ يَومَينِ تَشْطُرُ فَتَراتٍ طَويلَةٍ، قَدْ أَقَضَّ لَيْلَهَا سُهْدٌ تَنَازَعَها بيْنَ شَوقَينْ، وبَيْنَ فَرحَةِ عَودَتِها لعِيَادةِ أَبَوَيْهَا فِي صُبْحٍ قَرِيبْ، كَانَ اللّيلُ قَدْ آذَنَ بالرّحِيلْ، حِينَ بَدَتْ فَزِعَةً لمَرْأى شَبَحٍ يكَبُرُ طَيْفُهُ فِي فَرَاغِ الرُّدْهَةْ، ويُعَرّجُ رَاقِصَاً نَحْوهَا دُونَ صوْتٍ كَأَنَّهُ شَبَحٌ لَا ينْتَعلُ صَنْدَلَهْ، لَاحَ مُتَكَسّراً فَوْقَ أَرْضِ الغُرفَةِ وسَقفِهَا العَرِيقْ، ثُمّ هَمَس فِي حَذَرْ:

ماعِتْ، أفيقِي يَا ماعِتْ، هُناكَ حَرَكَةٌ مَا مُرِيبَةٌ تَحْدثُ فِي القَصْر، إطْمَأَنّتْ "مَاعِتُ" لِصَوْتٍ تَعْرِفُهُ فَزَايَلَهَا الخَوفُ وأَرْدَفَتْ غَاضِبَةْ:

_ ماذَا يَا هَامِيسْ، وأيُّ غَرَابَةٍ أَثَارَتْ رَيْبَتَكِ وآتَتْنِي بكِ علَى نَحْوٍ أفْزَعنِي؟!

_ توّاً عَادَتْ مجْمُوعةٌ منْ الجَيْشِ فِي صَمْتٍ يثِيرُ الرّيَبْ، وبِلَا نَفيرٍ كَعَادَةِ الآتِينَ بَالبِشَارَةِ أوْ حَتّى بالوَيْل

_ وَيحَكِ يَا هَامِيسْ، يا شُؤْمَ مَا نَبَّأْتِ بِهْ، ما حثّكِ علَى إعْتقَادِ غرَابةٍ فِي الأَمْر؟

_ عرَبةٌ مَلَكيّةٌ تحْملُ شيْئاً مجْهُولاً مُبَالَغٌ في سِتْرِهِ، وتَكْسُو مَلَامحَ الجُنْدِ الكَآبَةُ وحَيْطَةٌ مُرِيبَةٌ، وقَدْ دَلَفَ قَائِدُهمْ حَالاً إلى بَهْو القَصْرِ في انتِظَارِ مَوْلاتِي مِيرِيتْ نِيتْ المِسْكِينَةْ، ربّما للأَمْرِ علاقَةٌ بسَيّدي نَارْمَرْ، وإلّا كَانُوا قَصَدُوا قصْرَ فِرعَونَ أَوْ كَهَنَةِ المَعْبَد، هَلمّي بنَا نَخْتلِسُ مِنْ الحَدِيثِ مَا يُرِيحُ قَلقاً عَلَى الأَحْبَّةْ، هَيَّا فقَدْ أوْشَكَتْ موْلاتِي أنْ تَحْضُرَ هيَّا .

إنتَفَضَتْ "ماعِتُ " كمَنْ تنْشَطُ لقَادِمٍ آتَاهَا بعِطْرِ "سنْفرو"، لَا يُعْنِيهَا الأمْرُ في شَيْءٍ عَدَا ترَقُّبُها لعَوْدتِهْ، فقَامَتْ تَشْتَمُّ رِيحَهُ فِي وُجُوهِ العَائِدِينَ طَارِدَةً بَوَادِرَ النُعَاسِ وكَانَ قَدْ أَوْشَكْ .

في خُشُوعٍ إنْحَنَى إسْفِينِيسُ تَحِيّةً "لمِيرِيتْ نِيتْ"، والّتِي وإنْ بَدَتْ في وَقَارٍ ورَزَانَةِ إمْرَأةٍ أرِسْتُقْرَاطِيّةْ، وعَلَى دِرَايَةٍ بِالبُروتُوكُولِ المَلَكِيّ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ لَاحَ فِي محَيّاهَا هلَعٌ جَاهَدَتْ وُسْعَهَا أنْ تُخْفِيَهْ، وتَهَدّلتْ نَبْرتُها وهيَ تُرْدِفُ:

خيرَاً أيُّهَا القَائدْ، مَا دَفعَكَ وهَذِهِ السَاعَةَ مِنْ اللّيلْ؟، أمَا مِنْ صَبَاحٍ يَحْتَمِلُ الأَمْرُ طلُوعَهْ؟، تَحدّثْ فَفِي الأَمْرِ مَا رَابَنِي عَنْ حَقْ

_ موْلَاتِي الأمْرُ لَا أخْفِيكِ جَدُّ خَطِيرْ، قَدْ آثَرْتُ قُدُومِي عَليْكِ لِئَلّا أُثِيرُ أيَّةَ بَلْبَلَةَ، أنَا عَبْدُكِ إسْفِينِيسْ، قَائِدُ المُؤَخِرَةِ فِي جَيْشِ مَمْفِيسَ مَنْ يُحَدّثُ مَوْلَاتَهْ .

_ قُلْ يَا رَجُلْ، فَقَدْ تَجَرّعْتُ مَرَارَةَ صَوْتِكَ تَوّاً، أكِيدٌ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ، هَذَا المُسَجَّى هُنَاكَ خَارِجَاً لَيْسَ هُوَ الحَبِيبُ نَارْمَرْ؟، وإلّا مَا كَانَ فِي مَقْدِمِكَ غرَابةْ، لَا تَصْمُتْ هَكَذَا قُلْ أليْس صَحِيحَاً؟

_ حِكْمةُ مَوْلَاتِي وفِطْنَتُها عَلَى مَا نَمَا إليَّ، مَا أخْطَأْتُ حِينَ قصَدْتُكِ بِالذّآتِ، ومَعَ هَذَا أخْشَى أنْ أُخَيِّبَ رَجَاءً لزَوْجَةٍ محِبّةْ، لكِنَّها هِيَ

الحَقِيقَةُ المُفْجِعَةْ، لَا نَمْلِكُ حِيَالَ طَامَّةٍ غَيْرَ المُصَارَحَةْ، وإنْ كَانَتْ جَدُّ مُرَّةْ، فَلَيْسَتْ كَحَنْظَلَةِ المُدَارَاةِ والمُوَارَبَةْ، هِيَ المُصِيبَةُ يَا مَوْلَاتِي

_ وَيْحَكَ يَا رَجُلْ، إذَنْ فَهُوَ نَارْمَرُ زَوْجُ مِيريت الحَبِيبْ؟، ولَكِنْ أَوَ لَيْس غَرِيباً أَنْ تَعُودَ سَرِيَّةٌ كَامِلَةٌ بَرَجُلٍ وَاحِدٍ مَهْمَا عَلَا شَأْنُهُ وهِيَ الحَرْبُ دَائِرَةٌ رَحَاهَا؟

_ مَوْلاتِي، المَسْأَلَةُ أَفْدَحُ مِنْ الحُزْنْ، أَلَا مِنْ متَسَمِّعٍ لمَا سَألقِيهِ مِنْ جَلَلْ؟

أُسْقِطَ فِي أيَادِي شبَحَيْنِ تَعُسَّانِ الخَبَرْ، كَادَتْ "مَاعِتُ" تسْقطُ مِنْ فَزَعْ إلّا أنّ يَدَا "هَامِيسُ" أَدرَكتهَا وأَخْلَدَتْ بِهَا إلَى الأَرْضِ تَكْتُمُ فَمَهَا، تَشبّثتَا بشَجَاعَةٍ خَاوِيةٍ وتَسَمّرَتَا خَوْفَ إنْتِبَاهِ أَحَدٌ لهُمَا فِي إسْتِمَاتَهْ، بَينَمَا أشَاحَتْ الأَمِيرَةُ "مِيرِيتْ نِيتُ " فِي تَوَتُّرٍ بِنَاظِرَتَيْهَا لمَدَاخِلِ البَهْوِ، ثُمَّ إسْتقَرّتْ تُطَمْئِنُهْ، قُلْ مَا عنْدَكَ أيُّها القَائِدُ لَا تَخَفْ أوْ تخْشَى شَيْئَاً .

- مَاتَ جَيْشُ مِصْرَ كَأَنَّهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ حَصَدَهُ سيَّافٌ يَا مَولَاتِي، أَوْ أَنّهُ سَهْمٌ وَاحدٌ سَلَكَ أَرْوَاحَ الجَمِيعِ بغْتَةْ، إبْتَلَعَهُم البَحْرُ فِي مَشْهَدٍ دَمَوِيٍّ ومُعْجِزْ، أَيُّ سِحْرٍ خَارِقٍ يَكْمُنُ فِي عَصَاةٍ .. مُجَرَّدْ عَصَاةْ؟

- ويلَاهْ وقُرّةَ العَيْنِ نَارمَرْ؟، هَلْ جُنَّ الجَمِيعُ ليَخُوضُوا بَحْرَاً بِلَا سَفِينْ؟، كَيْفَ وَاتَتْهُمْ الجَرْأَةْ؟، وكَيفَ أخَطَأكُمُ السّهْمُ يَا هَذَا أَنْتَ ومَنْ مَعَكَ؟، أَهُوَ الجُبْنُ والفِرَارُ أمْ مَاذَا؟

- لَا يَا سَيّدَتِي بَلْ شَقَّ مُوسَى اليَمَّ إلَى شِقَّيْنِ ومَضَى بِقَوْمِهِ فِرَارَاً

- خَرِفٌ أَنْتَ أَيُّهَا القَائِدْ؟

- لَا وحَقِّ آمُونْ، مَا إنْ تَبِعَهُمْ فِرعَونُ ومَنْ مَعَهُ حَتّى أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ كَأنّهُ حُلْمٌ مُزْعِجْ، مَوْلاتِي لوْ كَانَ جُبْنَاً مَا تحَمّلنَا عنَاءَ العَوْدةِ بجُثمَانِ ربِّنَا المعْبُودْ، إنْ هِي إلّا طَبِيعَةُ أعمَالِنَا خَلْفَ الجَيْشِ، هِيَ مَا أنْقذَتْ هؤُلاءِ النّفَرَ مِنْ مَصِيرٍ مَحْتُومْ، مولَاتِي لَقَدْ لَبِثْنَا أسبُوعَاً كَامِلَاً نطْلُبُ جَثَامِينَهُم بِلَا طَائِلْ، ليْسَ غَيْرَ الرَّبِّ مَنْ لَفِظَهُ البَحْرُ منْ فَوْرِهْ بِلَا رُوحٍ وعَلَى حَالتِهْ، فَدَعِينَا نُدْخِلُهُ فِي سِتْرٍ قبْلَ إنتِشَارِ خَبَرِهْ، وقَدْ أرْسَلْتُ إلَى كَهنَةِ آمُونَ عَلَى لسَانِكِ دَعْوَةً لنتَدَبَّرَ الأمْرَ فِيمَا بيْنَنَا، مِنْ بعْدَ إذْنِ مَوْلَاتِي قبْلَ إنْبلَاجِ الصّبَاحْ .

وَ إذَا بِصَرْخَةٍ عَظِيمَةٍ شَقّتْ هَدْأةَ المكَانِ واللّيْلِ معَا، وكَانَ أجْدَرُ بِهَا سيّدَةُ القَصْر، إنطَلَقَا نَحْو مصْدَرِهَا فِي جُنُونْ، كَانَتْ "مَاعِتُ" بِلَا حِرَاكٍ تَفْتَرِشُ البَهْوَ الخَارجِيّ كَحَلِيبٍ مَسْكُوبٍ أهْرَاقَهْ القَدَرْ، أشَارَتْ "مِيرِيتْ نِيتُ " لِعَبْدَيْنِ أتَى بِهِمَا الصّوْتُ أنْ يحْمِلَاهَا إلَى مَسْكَنِهَا، وأوْصَتْهُمَا ألّا تُغَادِرَهُ حَتّى تَنظُرَ فِي أمْرِهَا، وعَادَتْ بقَلقَهَا مَعَ إسْفِينِيسَ فِي عُجَالَةْ، وعَلَى هَمْهَمَةِ الكَهَنَةِ وهُمْ يَتوَافَدُونَ زَرَافَاتٍ ووِحْدَانَاً، وتَسْبِقُهُم دَهْشَةُ الدّعْوَةِ فِي وَقْتٍ مُتَأخِّرْ، إمْتَلَأتْ بِهِمْ سَاحَةُ القَصْر، وعَلَى خُطَاهُمْ هَوْدَجٌ يحْمِلُهُ بَعْضُ الجُنْد، خَامِدَةً فوْقَهُ جُثّةٌ مَجْهُولَةْ، ومِنْ حَوْلِهَا تَصْحُواْ بِأعْدَادِهِمْ أسْئِلةْ، كَانَ "مِنْكَاوْ" أسْرَعَهُمْ ككَبِيرِ قَوْمٍ نَهَشَ الفُضُولُ دَوَاخِلَهْ، فَرَنَا لسَيّدَة القَصْرِ فِي حَيْرَةٍ وجَزَع مُرْدِفَاً:

- الجَلِيلَةُ مِيرِيتْ نِيتُ بِنْتُ رَعْ، أيُّ عَظِيمِ أمْرٍ طَارَ بِهِ رَسُولُكِ أيَّتُهَا المُبَجَّلَةْ؟، ومَنْ هَذَا النّائمُ تحْمِلُهُ سَوَاعِدُ مِصْرَ الوَفِيّةْ؟

كَانَتْ قَدْ غَلَبَهَا الحُزْنُ وطَارَ بِهَا اللُّبُّ إلَى زَوْجٍ كَانَ هُوَ الدّنيَا بِأسْرِهَا، لَاهِيَةً عَن الجَمِيعِ غَيْرَ أنَّهَا تَحَامَلَتْ فِي ثَبَاتٍ ظَاهِرِيّ وأرْدَفَتْ:

قَائِدٌ مِنْ قُوّادِ مِصْرَ لَاذَ بِسِرٍّ عَسْكَريّ إلَى أَعْتَابِنَا، ومَا أنَا بِبَاتَّةٍ فِي أمْرٍ دُونَ كُبَرَاءِ مِصْر، ثُمَّ أوْمَأَتْ "لإسْفِينِسَ"، تَارِكَةً لَا عَنْ إهْمالٍ لَهُ أَنْ يَتَحَمّلَ وِزْرَ خِنْجَرٍ سَيذْبَحُ الجَمِيعَ كَمَا فَعَلْ، فيمَا إنصَرَفَتْ تُعَالِجُ صُرَاخَ مَمْفِيسَ بِأثْرِهَا فِي جَوْفِ حَمَامَةٍ وَادِعَةٍ قَدْ أوْشَكَ أنْ ينْفَجِرْ، وأصَاخَ السّادَةُ إليْهِ دُونَ سُؤَالْ، كَأَنَ فضُولَهُمْ البَادِي مُغْنِهِمْ عَنْه، ينهَشُ صُدُورَهُمْ نَاظِرِينَ فِيمَا مَعنَاهُ إرحَمْ جَزَعَاً لَا تَتَمهَّلْ سُؤالَنَا . بَدَتْ تُجَاهِدُ ذِهْنَها المُتَأرجِحَ بَينَ الحُضورِ والغيَابْ، بَيْنَمَا قَاتِلٌ يَتَسَرّبُ صُوْتُ "إسْفِينِيسَ" الآتِي منْ بِئْرٍ سَحِيقْ:

- سَيّدِي كَاهِنُ آمُونَ العَظِيمْ، الأمْرُ أَنّ مُصَابَاً جَلَلاً قدْ حَلّ بِمِصْرَ أيُّهَا المُقَدّسُ "مِنْكَاوْ"، قَدَ فَنِيَ جَيْشٌ مِصْرَ يَا سَيّدِي كَمَا يَمُوتُ رَجُلْ وَاحِدْ، فَحِينَ أوْغَلَ الفِرْعَونُ بِجَيشِهِ خَلْفَ إسْرَائِيلَ فِي يَبَسِ البَحْر ... فَقَاطَعَهُ الجَمِيعُ فِي إسْتِنْكَارٍ، مَاذَا يَا رَجُل؟!، يَبَسُ مَاذَا؟

كَانَ صَوْتُهُ يَخْفُتُ بالحَدِيثِ عَنْ أذُنيّ "مِيرِيتْ نِيتُ "، أوْ خَفَتَتْ رُوحُهَا عَلَى الأَرْجَحِ عَنْ القَوْمِ كَأَنَّهُ لَا أَحَدْ، فَغَابَتْ عَنْ الحُضُورِ يَهْصِرُهَا مُرُّ الأَلَمْ، لَمْ يُفَارِقْهَا أَبَدَاً مُزَاحُهْ، ولَا هَذِهِ السُّخْرِيَةُ مِنْ حَرْبٍ هِي النُّزْهَةُ فِي إعْتِقَادِهْ، كَانَتْ تُجَاهِدُ وَعْيَهَا كَيْ تَسْتَمِعَ لحَادِي المُصِيبَةْ، وهُوَ يَسْرِدُ فَحْوَى جَنَازَةٍ جَمَاعِيَّةٍ فَتَأخُذُها النّياحَةْ، لَا يُعنِهَا كَيفَ مَاتْ، الحَادِثُ أنَّهُ مَاتْ، وبِلَا جُثَّةٍ تَعْنِي لَهَا حُضْنَاً أخِيرَاً تُودِعُهُ آياتِ حُزنِهَا ،

وبِلَا قَبْرٍ تَلجَأُ إليْهِ بِلَوعَتِهَا كُلّمَا أَنَّبَهَا الحَنِينْ، اللّعْنَةُ عَلَى كُلّ شَيْء، ماذَا لَوْ عَادَ عَلَى جَوَادِهِ فِرعَوْنُ مُنْتَصِراً دُونَ نَارْمَر؟، هَلْ كَانَ يَنْفَعُهَا مَجْدُ مِصْرَ ورَبُّهَا؟، يَا إلَهِي كَمْ عَادَتْ جُيُوشٌ بأَكَالِيلِ الغَارْ، أَوَ كَانَتْ فَرْحَتُنَا بالنَّصرِ أمْ بنَجَاةِ منْ نُحِبُّهمْ؟، بِمَاذَا إنْتَفَعَتْ الثَّكَالَى وأمّهَاتُ الجُنُودِ البسَطَاءِ حِينَ عَادَ الجَيشُ مَرَّاتٍ بِنَصْرٍ كَانُوا هُمْ وَقُودَهْ؟

الحقِيقَةُ الفَاضِحَةُ أنَّ الوَطَنَ مَجَامِيعٌ مِنْ الأَنَا الصَغِيرَةْ، أَنَانِيَّةٌ تَقِيسُ إنْتَصَارَاتِهَا وهَزَائِمَهَا بِمَغَانِمِهَا وخَسَائِرِهَا الخَاصَّةْ، هَا هِيَ مِصْرُ كَلّهَا مَهْزُومَةً إلّا بُيُوتَاتِ هَؤُلَاءِ الآتِينَ سَالِمِينَ بِالشُّؤْمْ، الهَزَائِمُ شَأنُ مَنْ تَطَالُهُمْ الخُسَارَاتُ وَحْدَهُمْ، لَمْ تَكُنْ تَغْبِطُ العَائِدِينَ بِقَدْرِ مَا كَانْتْ تَأْلَمُ مِنْ غَفْلَتَهَا عَنْ هَزِيمَةِ الثَّكَالَى، عَشَرَاتُ المَرَّاتِ وهِيَ تَنْهَلُ فَرحَتَهَا عَلى حِسَابِ جِرَاحِهِنّ، يَالَ الكَأسِ كَمْ كَانَتْ حَنْظَلَا، تُنَازِعُ أَتْرَاحَها، حَتَّى بَدَأَ يَتَسَربُ لِوَعْيِهَا صَوْتُ القَائِدِ بِنِثَارِ الحَدِيثِ المَقِيتْ:

" وهَكَذَا فجْأةً لَمْ نَدْرِ إلَّا والبَحْرُ قَدْ إلتَأمَ فِي مشْهَدٍ فَاقَ السِحْرَ أَيُّهَا المُقَدّسُ مِنْكَاوْ، ولَيْسَ إلَّا فِرعَوْنَ طَافٍ يَتَهَادَاهُ نَحْوَنَا المَوْج " .

كَانَ "إسْفِينِيسُ" يَفْرُغُ مِنْ رِوَايَتِهِ ومَا أَدْرَكَتْ منْهَا إلّا جُملَتَهُ الأَخِيرَةْ، وفِي ذُهُولٍ مِنَ المَلَأِ تَهَدَّلَتْ وهِيَ آخِذَةً بِقُلُنْسُوَتِهِ صَارِخَةً فِيهْ كَأَنّهُ القَدَرْ، وبِاعْتِرَاضٍ تُثَبِّطُهُ قِلَّةُ الحِيلَةِ تَمْتَمَتْ فِي تَثَاقُلِ الّذِينَ يَغْلِبُهُمْ النّوْمُ

أَلَمْ يَعُدْ منْ جَيْشٍ تَخْشَاهُ ممَالِكُ الدُّنِيَا غَيْرَ ثُلَّةٍ؟

أَيُّهَا النَّاجُونَ مَنْ شَرَفِ المَوْتِ فِيمَنْ مَاتُوا، حِفْنَةٌ مِنْ رِجَالٍ مُنْهَزِمِينَ لَا تُغْنِي عَنْ مِصْرَ شَيْئَاً أَيُّهَا العَائِدُونَ بِعَارِ النَّجَاةْ، يَا لَهَا مِنْ طَامَّةْ .

وَانْفَجَرَتْ بَاكِيةً ويَدَهُ تُرَافِقُهَا حَيْثُ تَصَدَّعَتْ فَوْقَ أَرِيكَتَهَا كَنعَامَةٍ مَذْبُوحَةْ، فيمَا انْصَرَفَ "مِنْكَاوُ" يَتَأَمَّلُ رَبَّهُ المُمَلَّحَ كَحُوتٍ نَفَاهُ البَحْرْ، غَيْرَ أنّهُ يَسْكُنُهُ فَزَعٌ نَمَّ عَنْ عَظِيمِ الهَوْلْ، مَا كَانَ يُصَدّقُ أنَّ رَبَّ الوَادِي العَظِيمِ يَمُوتُ هَكَذَا نَافِقَاً دُونَ مَعْرَكَةْ، وشَرَدَ فِي مُصَابٍ لَهُ أَنْ يَهْدِمَ إرْثَاً عَظِيماً مِنْ مَجْدِ الفَرَاعِينْ، وبِدَوْرِهِ سَيَنْسِفُ نُفُوذَاً للكَهَنُوتِ عَلَى الحَقِيقَةْ، هَذَا عَيْنُ مَا أَهَمَّ كَبِيرُ الكَهَنَةْ، وتَحْتَ عِبْءِ رَفَعَ رَأسَهُ فِي حُزْنٍ بَالِغٍ مُرْدِفَاً:

إلَيَّ بِكُلِ مَنْ عَادُوا معَكَ أَيُّها القَائِدْ، لا تُغَادِرْ منْهُمْ أَحَداً قَلَّ شَأْنُهْ، فلَا يَنْبَغِي أَنْ تتَحَدَثَ مَمْفِيسٌ قَبْلَ أنْ نتَدَبَّرَ أَمْرَنَا، هيَّا عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةْ، ثُمَّ نَكَّسَ رَأسَهُ فَوْقَ جُثمَانِ فِرْعَوْنَ بعَينَيْنِ لَا تَرَى أحَداً .

وَقَدْ غَلّفَ الجَمِيعَ صَمْتٌ هُوَ المَوْتْ، يُغَادِرُ إسْفِينِسُ صَادِعَاً بَالأمْر .

دَلَفَ نَفَرٌ مِنْ جُنْدِ "إسْفِينِسٍ" إلَى بَهْوِ القصْرْ، مَاضُونَ بجُثَةِ فرْعَون، وفِي سُخْرِيَةٍ مُقَنَّعَةٍ وَقَفَ "سِنِفْرُو" يُشَيِّعُهُمْ بِلَا إكْتِرَاثْ، ومَا إنْ غَيَّبَهُمْ الوَصِيدُ حَتّى إنْتَحَى بِنَفْسِهِ وقَدْ بَلَغَ بِهِ الضّيقُ شَارِداً فِي تِلْكَ المَهْزَلةْ،

وَ فِي جَدْوَى سِرِّيَةِ الخَبَرْ، هَا هِيَ مِصْرُ حَاضَرَةٌ قَشِيبَةٌ، ويَا لَهَا مِنْ سُخْرِيةْ!، خَاوِيَةٌ مِنْ عَصَبِهَا كَأُنْثَى دُونَ بَعْلٍ قَدْ بَاتَتْ بَغْتَةً مَشَاعَاً، وبِلَا خَاطِبٍ شَرْعِيٍّ بَادٍ فِي أُفُقِهَا المُظْلِمْ، عَلَى الرَّاجِحِ بَلْ الأَكِيدُ أَنَّهُ سَوْفَ يتَنَازَعُهَا هَؤلَاءِ النَّخَاسُونَ السُّوقَةْ، وهَؤْلاءِ الحَمْقَى مِنْ صَفْوَةِ بَالِيَةٍ أَيُدْرِكُونَ أَنَّ الخَوْفَ مِنْ هُنَا يَبْدَأْ؟، ومَا الرَّادِعُ لِعَبْدٍ لَئِيمٍ وقَدْ أَيْقَنَ بِمَوْتِ رَبِّ بَيْتٍ كَمْ نَهَشَ رَبَّتَهُ فِي أحْلَامِهِ الجَائِعَةْ؟، أُفٍّ لِهَؤُلَاءِ السُّذَّجِ .. كَيفَ يُخْفُونَ عَنْ لُعَاعَةٍ قَلِيلَةٍ هَلَاكَ جَيْشٍ عَرَمْرَمْ، وهَلَاكَ إلَهٍ أَغْوَى نِصْفَ شَعْبَهُ بالخُرُوجِ لمَأْتَمِهِ الجَمَاعِيِّ، مَا تَوَقَّعَتْهُ آلِهَةُ مِصْرَ الرَّاسِخَةْ؟، فمَا عَادَ مِنْ رَاعٍ ولَا عَادَتْ رَعِيَّةْ .

وَكَقَلْبٍ سَلَكَهُ خِنْجَرٌ فَانْبَجَسَ دَمُهُ بَغْتَةً فَقَطَعَ عَلَيهِ حَدِيثَهُ مَعَ نَفْسِهْ، دَوَّتْ صَرْخَةٌ صَكَّتْ سَمْعَهْ، نَبَّهَتْ لَيْلَاً كَادَ يَغْفُو لَوْلَا شَوْشَرَةُ القَادِمِينَ باللَّطِيمَةْ، صَرْخَةُ ثَكْلَى قَدْ هَتَفَتْ بِاسْمِهُ فِي جَزَعْ، صَوْتٌ لَمْ تُخْطِؤُهُ أُذُنَاهُ ومَا كَانَ لَهَا، يَا اللهْ إنّهَا مَاعِتْ، كَيْفَ تَلَهَّى قَلْبُهُ عَنْهَا وهُوَ مَاثِلٌ عِنْدَ بَابِهَا؟، فَيَا رَبَّ مُوسَى القَدِيرُ مَاذَا عَسَاهُ قَدْ وَقَعْ؟، إنْطَلَقَ كَسَهْمٍ لَا يُحَاذِرُ مِنَ الحَرَسْ، والّذِينَ بِطَبيعَةِ الحَالِ بَدَوْا مُنْشَغِلِينَ بِمَا يَدُورُ أَمَامَهُمْ، فَتَسَلّلَ مِثْلَ الأُفْعُوَانِ لَا حَفِيفَ لَهُ ولَا فَحِيحَ فَوْقَ الرُّخَامِ المُمَرَّدْ، فَبُوغِتَ بقَائِدِهِ وبِسَيِّدَةِ القَصْرِ يُهْرَعَانِ فِي هَلَعٍ إلَى مَصْدَرِ

الصّوْتْ، دَلَفَ عَلَى أثَرِهِمَا فِي خِفَّةٍ مُتَحَصّنَاً خَلْفَ أعمِدَةِ البِهْوِ، شَاهَدَ "مِيرِيتْ نِيتُ " وهِيَ تُصْدِرُ أَمْرَهَا إِلَى عَبْدَيْهَا، ثُمَّ وهِيَ تَمْضِي بِقَائِدِهِ "إِسْفِينِيسَ "إِلَى حَيْثُ كَانَا، فَأَثَارَ جُنُونَهُ أنْ يُمْضِي بِمَاعِتَ لِمَصِيرٍ لَا يَعْلَمُهُ، لَمَاذَا أَمْرَتْهُمَا بالتّحَفُّظِ عَلَى مَاعِتْ؟ مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ رَابَهَا أَمْرٌ أَوْ انْتَظَرتْ لِأَمْرٍ مَا فَعَلَتْ؟، أيْقَنَ أَنّ صَرْخَةَ مَاعِتُ إنّمَا كَانَتْ يَقِيناً فِي هَلَاكِهِ فِيمَنْ هَلَكُوا، فخَمَّنَ سِنِفرُو فَوْراً مَا قَدْ يَكُونْ، ولَرُبَّمَا يَطَالُهُ مَكْرٌ وهَؤُلَاءِ الغَافِلِينَ مِنْ رِفَاقِهِ إنْ هُم أَزْمَعُوا غَدْرَا، وبِلَا تَفْكُّرٍ فِي العَوَاقِبِ تَتَبَّعَ "مَاعِتَ" فِي صَمْتٍ حَذَرْ، ومَضَى بِهَوَاجِسِهِ نَحْوَ بُغْيَتِهْ .

فِيمَا يَتَوَافَدُ أفْرَادُ فِرْقَةٍ صَغِيرَةٍ لَا تَعُدُو الثّلَاثِينَ مُقَاتِلَاً، هُمْ فُلُولُ جَيْشٍ هَالِكٍ لَا غَيْرْ، بخُشُوعٍ دَلَفُوا إِلَى بَهْوِ القَصْرِ، ويَتْبَعُهُمْ "إِسْفِينِيسُ" بَادٍ عَلَيْهِ التَّوَتُّرْ، إِصْطَفُّوا آسِفِينَ صَامْتِينَ خَلْفَ قَائِدِهِمْ فِي صَبْرٍ نَافِدْ، يَرَاقِبُونَ سُجُودَ ثُلَّةِ الكُهَّانِ الخَاشِعِينَ حَوْلَ رَبِّهِمُ، ويَرْفَعُ "مِنْكَاو" رَأْسهُ فِي كَسَلٍ بِنَظْرَةٍ ذَاهِلَةٍ يُثْقِلُها رِجَالُ الكَهَنُوتْ، فَتُضْفِي غُمُوضَاً يُشِيعُ قَدَاسَةً ورَهْبَةً فِي الحُضُورْ، وبِصَوْتٍ نُحَاسِيّ رَنَّانٍ بَدَا وكَأَنّ حُلقُومَهُ مَغَارَةٌ تُرَجِّعُهُ مِثْلَ فَضَاءْ

- أَيّهَا الأَوْفِيَاءُ البَاقُونَ عَلَى سَاحَةِ الوَطَنّ العَظِيمْ، إنّهَا طَامَّةٌ كُبْرَى لَسْنَا مَعْشَرَ سَدَنَةِ آمُونَ بِأَعْلَمَ بِهَا مِنْكُمْ، إِنَّهُ أَوَانُ الحِكْمَةِ لَا أَوَانَ السَّطْوَةْ، فَعَمَّا قَلِيلٍ تَصْحُو مِصْرَ عَلَى فَجِيعَةٍ غَيرَ كُلِّ مُصَابْ، العَسِيرُ فِي الأمْرِ لَيْسَ مُصَابَاً هُوَ الأَشْأَمُ وقَدْ وَقَعَ وَاقِعٌ لَا فِرَارَ مِنْه، إِنَّمَا الأَمْرُ العَسِيرُ هُوَ كَيفَ نَسُوقُ نَهْرَ بَلْبَلَةٍ هَادِرٍ مُحْتَمَلْ، قَدْ يَجْرِفُ فِي سَوْرَتِهِ مَا تَبَقّى مِنْ مَجْدِ مِصْر، مَاذَا يَرَى قَائِدُنَا إِسْفِينِيس أَوّلَاً بِصِفَتِهِ مُحَنَّكَاً أَوْحَدَ، عَادَتْ بِهِ أَقْدَارُ مِصْرَ وقَدْ دَرِبَ الحُرُوبَ وعَرِكَتْهُ المَعارِكْ

- سَيّدي سِرُّ أَسْرَارِ آمُونْ، إنّمَا أَنَا سَلِيلُ سَيْفٍ لَا غَيْر، وبِلَا سَابِقَةٍ لِي مِنْ سَياسَةْ، فَلنَرَى رَأْيَ عِليَّةِ القَوْم، ولَوْ سَمَحْتُمْ لِي أَنْ أَنتَظِرَ مَا تُمْلِيهِ حِكْمَتِكُمْ

- إذَنْ فَعُوا أيُّها السَّادَةْ، مَاذَا لَوْ تَكَتَّمْنَا الخَبَرَ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وقُمْنَا بِوَاجِبِنَا إزَاءَ رَبِّ مِصْرَ مِنْ تَحْنِيطٍ ودَفْنٍ بِلَا مَرَاسِمَ كَعَهْدِنَا بالمُلُوكِ، وتَعَاهَدْنَا وجَمِيعُ مَنْ عَادُوا ومَنْ عَلِمَ مِنَّا أَنْ نَكْتُمَ سِرَّنَا عَنْ غَوْغَاءِ مِصْرَ، وحَتّى تَبِينَ لَنَا مِنْ بَعْدُ حِيلَةً نَحْتَالُهَا للبِلَادِ إتِّقَاءَ فِتنَة؟

ثُمَّ أَخَذَ بِمِعْصَمِ القَائِدِ مُنْتَحِياً بِهِ عَنْ آذَانِ القَوْمْ، وأَردَفَ هَامسَا:

أَ مُطْمَئِنٌ أَيّهَا القَائِدُ إلَى وَلَاءِ هَؤُلَاءِ الجُنْد، تَفْهَمُ مَا أَقْصُدُهْ طَبْعَاً؟

- أَكِيدٌ أَتَفَهَّمُ مَخَاوِفَكَ أيُّهَا المُوَقَّرُ سَيِّدِي سَادِنُ آمُونْ، ومَعْذِرَةً مِنْكَ مَرَّةً أُخْرَى، لتُدْلِيَ مَوْلَاتِي مِيرِيتْ نِيتُ بِرَأيِهَا، ورَنَا إلَيْهَا بِنَظرَةِ اسْتِدْعَاءٍ للْحَدِيثْ، أَجَابَتْهُ السَّيّدَةُ فِي إعْيَاءٍ ظَاهِرْ، إسْتَرْسَلَتْ وهِيَ تَتَهَاوَى فَوْقَ عَرْشِهَا الوَثِيرِ:

- أَمّا عَنْ غَرَقِ جَيشٍ بِكَاملِ عُدَّتِهْ، فَأَمْرٌ لَا يمْكِنُ إخْفَاءَهُ أَيّهَا الكَاهِنُ، خَاصَّةً لَا هُوَ مُنْتَصِرٌ فَعَائِدٌ لَابُدّ، ولَا هُوَ بالمَهْزُومِ المُحْتَالِ لنَجَاةٍ قَدْ تُرْتَجَى فُلُولُهْ، أرَى أَنَّ الأَمْرَ خَارِجٌ عَنْ أَنْ يهُمَّ الصَّفْوةَ مِنْ مَمفِيسْ، الأَمْرُ حَقَاً بَاتَ يَعْنِي الدَّهْمَاءُ فِي المقَامِ الأَوّلْ، إنَّ الغَيْبَةَ يا سَيّدِي بِلَا عَوْدَةْ، ولَسَوفَ يَتهَامَسُ النَّاسُ عَاجِلَاً كَانَ أمْ آجِلَاً عَنْ حَامٍ قَدْ انقَطَعَ خَبَرُهُ وأَثَرُهْ، ثُمَّ دَعْنَا أَيّهَا المُقَدّسُ لَا نُهْمِلُ أمْرَاً هُو عَصَبُ المُصِيبَة، الدّهْمَاءُ أيّهَا المُقَدّسُ شِئنَا أَمْ أَبَيْنَا، أَضْحَوْا بيْنَ لَيْلَةٍ وضُحَاهَا هُمْ كُلُّ مَنَ تَبَقَى مِنْ مِصْرَ ولِمِصْر، جَسَدٌ غَشِيمٌ بِلَا رَأْسٍ يا سَيّدي، إنْ لَمْ يُشْرَكْ فِي الأَمْرْ، بَلْ إنَّ الأَصْوَبَ إنْ لَمْ نَسُسْ أنَفُسَنَا مَع هَوَاهُ أيّهَا السَادَةُ هَلَكْنَا أَكِيدْ، ثُمَّ إنَّ حَالَ مِصْرَ هُوَ مَا تَرَى، قَدْ أَنْهَكَتْهَا السُّنُونُ وأَكَلَتْهَا الجَرَادَةْ، مِصْرُ وقَدْ عَلِمْنَا جَمِيعَاً قَدْ أَفسَدَ النِّيلُ المُقَدَّسُ بِطُوفَانِهِ أرْضَاً وأَتْلَفَ

مَعْرُوشَاتٍ وجِنَانْ، قَد بَاتْ لِزَامَاً عَلَى ذُبَالَةٍ مِنْ أهْلِهَا أَنْ تُجَاهِدَ لِأَمْنِهَا، وهُمْ حُشَاشَةُ الرُوحِ المُتَبَقّيَةِ، وأنْ تُعَالِجَ بَعْثَهَا مِنْ جَدِيدٍ برَوِيَّةٍ وحِكْمَةْ.

- فَضْلَاً عَلَى مَا اقْتَنَصَهُ شَعْبُ إسْرائِيلُ مِنْ ثَرَاوَاتٍ أَقْوَتْ بُيُوتَاتٍ وأَفرَغَتْ كَثِيراً منْ خَزَائِنِ النَّاسْ قَالَ "إسفِينِسُ" معَقّبَاً، واسْتَدْرَكَ وهُو يَنَظُرُ فِي عَينَيِّ الكَاهِنِ نَظْرَةً ذَاتَ مغْزَى قَائِلَاً:

هؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنْ مُتَطَوّعِي الشَّعبْ مَا حِيلَتَهُمْ؟، لَا يَمْلِكُونَ حِفْظَ نِظَامٍ ولَا دَفْعَ عَدُوّ، سَيّدِي الكَاهِنُ الآنَ تَوَجّبَ عَلَيكُمْ أنْ تَخْطُبَ فِي النَّاسِ بالحَقِيقَة، وأَنْ تَسْتَنْهِضَ ضَمَائِرَهُمْ لِإحْلَالِ الأَمْنِ دَاخِلِيَّاً أَوّلَاً، ومِنْ ثَمَّ نُرَتّبُ لشَأنِنَا الخَارِجِيِّ أَمْرَهْ، فَلَمْ يَرَ الحَدَثَ الأَلِيمَ إلَّا نحْنُ، ولَسْتُ أَرَى الطّيرَ تُحَدّثُ عَدُوَّنَا بالخَبَرْ !

- إذَنْ فَقَد توافقَتْ حِكْمَتُكَ وحِكْمَةُ الأَمِيرَةْ، والْتَفَتَ "مِنْكَاو" لِيَرَى وَقْعَ الحَدِيثِ عَلَى وُجُوهِ حَوَارِيِّ المَعْبَدْ، فَأَلْفَاهُمْ بَاسِمِينَ فِي ارْتِيَاحْ، فَهَمَّ بالكَلَامِ غَيْرَ أَنّهُ سَكَتَ عَلَى قَرْعِ نِعَالٍ مُسرِعَةْ، وعَلَى جَلَبَةٍ تَحْذِفُ صَمْتَ اللّيلْ، حَتّى وَلَجَ البَهْوَ حَارِسَا السَّيِّدةِ يَقْتَادَانِ "سِنِفرُو " تَسُوقُهُ حَرْبَتَانْ، لَمَعَتْ فِي العُيُونِ تَسَاؤُلَاتٌ ودَهْشَةٌ بَاءَتْ فِي عَيْنَى القَائِدِ "إسْفِينِيسَ "وَ هُوَ يُتَمْتِمُ:

سِنِفرُو العَزِيزُ أيْنَ كُنتَ ومَاذَا إقْتَرَفْتَ يَا رَجُلْ؟

إفْتَقَدْتُّكَ خَارِجَاً فَخِلْتُكَ تَقضِي مِن شَأنِكَ فَمَا بَالُكَ تَعُودُ فِي الأصْفَادْ؟

- لَمْ أقْتَرِفْ ذَنْبَاً يَا سَيِّدي، سُوَى أَنْ رُحْتُ أُغِيثُ خَطِيبَتِي مِنْ قَيْدٍ بِلَا خَطِينَةٍ ولَا ذَنْبْ

- أَهُوَ أَنْتَ إذَنْ، مَاعِتُ العَزِيزَةُ مِنْ وصِيفَاتِي المُقَرَّبَاتْ، فَلِمَاذَا قَدْ أُلحِقُ بِهَا السُّوءْ؟، وهِيَ تُشِيرُ إلَى الحَارِسَيْنِ بِالانْصِرَافْ، مَا حَمَلَكَ عَلَى ظَنِّكْ هَذَا؟

- أعْتَذِرُ مِنْ مَوْلَاتِي، وأَرْجُوهَا أَنْ تُقَدِّرَ إيَابَنَا فِي ظَرْفٍ هُوَ العَاصِفُ باللَّبِيبْ، قَدْ طَارَ لُبِّي حِينَ صَرَخَتْ مَاعِتُ بِاسْمِي، وعِنْدمَا رَأيتُهَا بَيْنَ أَيَادِي الحَارِسَيْن، قُلْتُ فِي نَفْسِي لَرُبَّمَا لأمْرٍ مَا يخُصُّ سرِّيةَ مَا نَحْنُ فِيهْ، قَدْ يَكُونُ عَنَّ لمَولَاتِي فِي الأمْرِ أَمْراً، ومنْ جِهَةٍ أخْرَى أرَدْتُّ طَمْأنَتهَا أَنَّ سِنِفْرُو عَلَى قَيْدِ الحَياةِ لَمْ أَزَلْ، هَذَا حَقِّي أَعْتَقِدْ، وأسْرَعَ "سِنِفرُو" ينْتَظِمُ صُفُوفَ رِفَاقِهِ بَعْدَمَا دَاخَلَهُ ارْتِياحٌ مِنْ حَديثِ الأمِيرَةْ، فِيمَا تَبَادَلَتْ "مِيرِيتْ نِيتُ" مَعَ الكَاهِنِ ومَعَ "إسفِينِيسَ" نَظْرَةَ المُنْدَهِشْ، كَأَنَّمَا أكَّدَ "سنِفرُو " لهُمْ صِحَّةَ مَا اتّفقُوا علَيْهِ ومَا سَوْفَ يَجُولُ بِرُؤسِ العَامَّةْ، رَفَعَتْ مِنْ حَاجِبَيْهَا كَرِسَالَةٍ لِلْكَاهِنِ أَنَّهُ شَهِدَ مِنْ أهْلِهَا شَاهِدٌ وعَلَى مَا قَدْ فاتَهُ مِنْ نِقَاشٍ ومنْ تَدَاوُلْ .

وَعَادَ الكَاهِنُ يُواصِلُ حَدِيثَهُ فِي إرْتِيَابٍ جَدَّ فِي إخْفَائِهْ عَنْ الحُضُورْ

- إذَنْ فَليُحْمَلْ الفِرعَونَ حَالاً إلَى المَعْبَدْ، لتُرَافِقُهُ ثُلَّةٌ هِيَ آخِرُ جُنْدَهُ المُخْلِصِينْ، إنْ قَرَّرَ قَائِدُنَا المُوَقَّرُ بَعْدَهَا تَسْرِيحَهُمْ للرَّاحَةِ لِيَفْعَلَ، وَبَعْدَ أَدَاءِ وَاجِبَنَا المُقَدَّسَ نَحْوَ إلَهِ مِصْر، عَسَانَا نَلْتَئِمُ لَيَوْمٍ لَا شَكَّ عَصِيبْ، وَإتَّجَهَ خَارِجَاً فِي وقَارٍ مُحْتَضِناً عَصَا " عَنْخٍ "، وكَأَنَّمَا يَبُثُّ نِيلَ مِصْرَ تَعْوِيذَةَ بَعْثِهَا الجَدِيدْ!

فِرَارْ

سَاقَ الحَرَسُ مَاعِتَ نَحْو غُرْفَتِهَا بَيْنَ اليَقَظَةِ والإغْمَاءْ، فَكُبَّتْ عَلَى وَجْهِهَا فِي قِلَّةِ حِيلَةٍ فَوْقَ أَرْضِ الغُرفَةْ، تَسِيلُ مُقْلَتَاهَا بِلَا وَعْيٍ كَأَنَّهُ حُلْمٌ حَزِينٌ يَسْكُبُ عِيَاطَهُ خَارِجَ سِيَاجِ النّومْ، ويَتَرَاءَى لَهَا "سنِفرُو "يُصَارِعُ البَحْرَ الذِي لَا تَعْرفُ مِنْهُ غَيرَ إسْمِهْ، ومَا مِنْ شِيمَةٍ تَعْرفُهَا لَهُ غَيْرَ خِصْلَةِ النَّهَمْ، كَائِنٌ جَائِعٌ يَأكُلُ الأَحِبَّةَ بِلَا رَادِعْ، مَاذَا فَعَلَ النَّاسُ بِهِ هَذَا البَحْر؟، بَلْ مَاذَا فَعَلَ بِهِ سنِفرُو كَيْ يَلتَهِمَهُ؟، كُلُّ الذّاهِبُونَ مِنْ خَلْفِ مُوسَى وشَعْبِهِ لا يَعْرفُونَ هَذَا الغُولْ، ولَا كَانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ هَذَا المَجْهُولِ شُبْهَةُ عَدَاوَةْ، مَا خَرَجُوا فِي نِيَّةِ سُوءٍ لاصْطِيَادِهْ، فَمَا بَالُهُ يَكْمُنُ لَهُمْ أُفْعُوانٌ عَلَى مَا يَبْدُو مَهُولٌ جِدَّاً، أَمَا أَشْبَعَ بَنُو إسْرَائِيلُ لَهُ بَطْنَاً فَثَنَّى بِشَعْبٍ فِي زُمْرَتِهِ حَبَّةُ القَلْبِ سِنِفْرُو؟، يَا لَهُ مِنْ وَغْدٍ تَمَنَّتْ لَو قَتَلَتْهُ أَوْ وَضَعَتْ لَهُ سُمَّا، فِكْرَةٌ عَبْقَرِيَّةٌ أَنْ تَخْدَعَ بَحْرَاً خَدَعَ الإلَهَ نَفْسَهْ، وبَدَا لَهَا هَذَا البَحْرُ ثُعبَاناً عَظِيمَاً، لِكَيْ يَقِيءَ رَجُلَهَا الحَبِيبَ بَسَطَتْ يَدَيْهَا إلَيهِ بالسُّمِ الزُّعَافَ عَلَى أَمَلْ، يَا إلَهِي كَيفَ خَدَعَهُم هَذَا الثُعبَانُ الأَبْلَهْ؟، هَا هُوَ بَحْرٌ سَّاذَجٌ يَلْحَسُ السُّمَّ جَاهِلَاً بِهِ و فِي تَلَذُّذٍ عَجِيبْ، ومِنْ كَفَّيّ أُنْثَى شَهِيَّةْ، مَا لَبِثَ أَنْ إعتَرَتْهُ وَعْكَةٌ رَاحَ يتَلَوَّى عَلَى إثْرِهَا، وهِيَ تَرْمُقُهُ بِتَشَفٍّ مَشُوبٍ بالفَرْحْ، أَنْشَبَتْ يَدَيْهَا كَعُقْلَةِ أُصْبَعٍ وإنْ ضَاعَتْ فِي رَقَبَةٍ عِمْلَاقَةْ، تَهُزُّهُ فِي مُحَاوَلَةٍ يَائِسَةٍ كَمَنْ تَسْتَفْرِغُ دَلْوَهَا، والبَحْرُ يصِيحُ فِي أَلَمٍ .. مَاعِتْ .. مَاعِتْ، كَانَ مُتَأَثّرَاً قَدْ نَالتْ مِنْهُ بِسَاعِدَيْهَا الضَّعِيفَيْنْ، فَرَاحَ يَهُزُّهَا فِي عُنْفِ مَنْ يَسْتَنْقِذُ رُوحَهُ مِنَ شَّنْقٍ مُحَقَّقٍ صَائِحَاً بِصَوتٍ مُجْهَدّ:

مَاذَا عَسَاكِ تَفْعَلينَ يَا مَجْنُونَةْ، مَاعِتْ ماعِتْ، كَانَ صَوْتُ البَحْرِ يُشْبِهُ صَوْتَاً تَألَفُهْ، بَلْ هُوَ أَكِيْدٌ تَعْرِفُهْ:

هَامِيسْ كَانَتْ تُرَدِّدُ أَنْتِ مَرَّةً أُخْرَى يَا هَامِيس! قَالتْهَا وبِبَالِغِ المَشَقَّةِ

فَتَحَتْ جَفْنَيْهَا عَلَي وَجْهِ "هَامِيسَ " الذَّاهِلْ، وهِيَ تُجَاهِدُ يَدَيْهَا المُطْبِقَتَينِ فِي عُنُقِهَا، وقَبْلَ أَنْ تَنْبَس بكَلِمَةٍ عَاجَلتْهَا "هامِيسُ "قَائِلةْ:

- يَبدُو أَنَّنَا تَسَمّعنَا إِلَى أَمْرٍ خَطِيرْ، قَاتَلَ الرَّبُّ الفُضُولْ، لَيْتَنَا مَا انْسَقْنَا خَلْفَهْ، قَدْ تَتَّهمُنا السَّيّدَةُ بالتَّجَسُّسِ يَا مَاعِتْ، هَلُمّي يَا عَزِيزَتِي بسُرْعَةٍ قَبْلَ إنتِبَاهِ الحُرَّاسِ إليْنَا، لَمْ تَكُنْ مَاعِتُ بحَالَةٍ تَسْمَحُ لَهَا بِنِقَاشٍ وَلَا بجِدَالْ، فأَسْلَمَتْ نَفْسَهَا كَسَائِمَةٍ جُرَّتْ مِنْ خِطَامْ. تَسَلَّلتْ بِهَا هَامِيسُ نَحْوَ ظُلْمَةٍ تَقُودُهُمَا إِلَى خَارِجِ القَصْر، وهِيَ تَلْحَظُ أَشْبَاحَاً ثَلَاثَةً فِي آخِرِ المَمَرِّ يَتَصَارَعُونْ، لَا يُسْفِرُ ضَوْءٌ خَافِتٌ لَهُمْ عَنْ مَلَامِحْ، أَسْرَعَتْ بِهَا تَتَخَبَّطَانِ فِي خُطَىً تَحْدُوهَا الغَرِيزَةُ وتَحْفَظُهَا الأَقْدَامْ، تَدُوسَانِ فِي تَوَجُّسٍ بُسَاطَ لَيْلِ "مَمْفِيسَ" المُشَبَعِ حَدَّ المَوْتِ بالرُّطُوبَةْ، وتَلْهَثَانْ نَحْوَ المَصِيرْ .

بَيْنَمَا دَاخِلَ سِيَاجٍ مِنَ اللّبْنِ فِي بَيْتِهِ الرّيفِيّ الأنِيقْ، وتَحْتَ جُمَّيْزَةٍ عَتِيقَةٍ حُبْلَى، وَقَفَتْ تَزْمِي بِمَا طَابَ مِنْ تِينِهَا تَحْتَهَا، فَتَكْسُو أَرْضَ الحَدِيقَةِ الصّغِيرَةِ بِكُرَاتِ الأُرْجُوَانْ، وإِلَى عَزْفِ ضُفْدَعَاتٍ لَا

تَكُفُّ عَنْ ثَرْثَرَةٍ مُعْجَمَةْ، وتَمْلَأُ صَمْتَ اللّيلِ كَدَنْدَنَاتِ كُهَّانٍ لَا يَبِينُ لَهَا كَلَامْ، إسْتَلْقَى "سِمِنْدِسُ" فَوْقَ مِقْعَدٍ مِنْ سَعَفٍ جَافّ، يَسْتَنِيرُ بِشُعْلَتَيْنِ جَلَسَتَا لَهُ فَوْقَ حَامِلَيْنِ مِنْ النُّحَاسْ، وفِي يُمْنَاهُ قَلَمٌ مِنْ الجَرِيدِ

بَلَّشَ يَغْمِسُهُ فِي بَوْتَقَةِ ملْآنةٍ بِمَزِيجٍ مِنَ الدُهْنِ والسُّخَامِ[1] المُذَابِ فِي الصَّمْغِ يَخُطُّ بِهِ كَلِمَةً ويَمْحُو مِنْ حِينٍ لِآخَر فِي قِرْطَاسٍ مِنَ بَرْدِيّ .

بدا مُنْهَكاً قَدْ اسْتَغْرَقَهُ الشِّعْرُ الّذِي يَأكُلُ أعَصَابَ مَنْ يَجْتَبِيهِمْ لجُنُونِهْ، ويَدُّقُ مَسَامِرَ السُّهْدِ بِأطْرافِ جُفونِهِمْ،
كَخِيَامٍ يَقْطُنُهَا الأَرَقْ، كَتَبَ جمْلَتَهُ الأَخِيرَةَ وكَأَنَّمَا وقَعَ عَلَى كَنْزٍ ثَمِينْ، فانْتَفَضَ وَاقِفَاً رَافِعَاً عَقِيرَتَهُ بِمَا إنتَهَى مِنْ كِتَابَتِهْ، كَأَنَّهُ يَسْتَنْطِقُ اللّيلَ رَأْيَهْ، شَاعِرٌ مَغْمُورٌ قَدْ عَكَفَ منْ مُدَّةٍ فِي زَعْمِهِ عَلَى كِتَابَةِ مَلْحَمَةٍ تُمَجِّدُ النَّصْرَ المُرْتَقَبْ، فَلَعَلَّهُ يَنَالُ حُظْوَةً فِي بَلَاطِ فِرْعَوْن، رَاحَ يُسْمِعُ أُمَمَ الفَرَاشِ وهَامُوشِ اللّيلِ مَا كَتَبْ، وهِيَ تَتَجَمْهَرُ مِنْ حَوْلِهْ:
" رَعْ .. بِسَيْفِكَ المَمْنُوحِ يَا رَبّ
أيُّهَا القُدُّوسُ الَّذِي سَاعِدُهُ بَاطِشٌ فِي الأَعَالِي
وَ يَا مَنْ قَدَمَاهُ فِي الأَقَاصِي تَدُوسْ
إنَّهْ البَارُّ إبْنُكَ حَامِلُ الرّمَاحْ
عَلَى حُدُودِ مَا اسْتَرْعَيْتَهُ وَلَدُكَ يَصُولْ !
أَنْتَ رَعْ .. خَالِقُ الحُظُوظ
هَبْ إبْنَكَ جُعْرَانَ السّعَادَةْ[2]
ألزِمْهُ بِسَّاً المِهْزَارَ بسِنِّهِ الضَّاحِكْ[3]

---

[1] صبغة سوداء
[2] تميمة ترمز للخلق والديمومة
[3] إله الضحك وهو قصير جاحظ العينين

وَ مَجْدِكَ المُتَطَاوِلْ
يَا خَالِقَ كُلَّ الآلِهَةِ الصَّغِيرَةْ
وَ يَا مُوزِّعَ أشْغَالَهَا
دَعْهُمْ لَا يَنْشغِلُونَ بِأمْلَاكِهِمْ التّافِهَةْ
بَلْ يتَسَلّطُونَ فَوْقَ رِقَابِ بَنِي إسْرَائِيلْ
لِيَعُودَ ابْنُكَ القَائِمُ بالغِلَالِ فَوْقَ شعْبِهْ
يَا رَعْ العَظِيمَ
دَعْ إبْنَكَ يَعُودُ
وَ اتْركْ مِصْرَ تَسْجُدْ لَهُ طَوِيلاً
وَ لْيَعْبَقْ بَخُورُ الجَنَائِزِ فِي مِنْخَارِكْ
هَذَا حِينَ يَقْتُلُهُمْ مِنْ أَجْلِكَ المَارِقِينْ آمِين "
مَا إنْ أَنْهَى مَقْطُوعَتَهُ المُقَدَّسَةَ الّتِي أشَاعَتْ فِي نَفْسِهِ حُبُوراً حَتَّى انْتَبَهَ لهَسِيسٍ خَافِتْ، كَأَنّ زَائِرَاً مِنْ طَوَارِقِ اللّيْلِ عَامِدَاً نَحْوَهْ، لَمْ تَكُنْ بِوَقْعِ أَقْدَامٍ فَوْقَ الطَّرِيقْ، إنَّمَا حَفِيفٌ قَاصِدَاً إلَيهِ عَبْر مُجْتَمَعَاتٍ مِنَ عِيدَانِ الدِّنِيبَةِ والبَلْكَمُ[1]، الّتِي تتَوَحّشُ عَلى ضِفَافِ تِلْكَ التِّلَاعِ والمَسَاقِي الفَرعِيَّةِ مِنْ دَوَاخِلِ الحُقُولْ، فَتَوَخَى حَذِرَاً خلْفَ الجُمّيزَةِ، وأشَاحَ نَاظِرَاً باتِّجَاهِ صَوْتٍ مُتَسَلِّلٍ هُو الآخَرُ فِي حَذَرْ، وشَيْئَاً فَشَيْئَاً تَبَيَّنَ شَبَحَيْنِ إطْمَأَنَّ لمَرْآهُمَا فَتَنَفَّسَ فِي ارْتِيَاحْ، وتَجَشَّأَ كَأَنَّمَا إنِسِيٌّ يُطَمْئِنُ جِنِّيَّتَيْنِ، ثُمَّ أَرْدَفَ متَعَجِّبَاً
- فِي سَاعَةٍ كَهَذِهْ !، أَيُّ جَلَلٍ يَا حَبِيبَتِي أَتَى بِكِ دُونَ عَادَةْ، ومَنْ الفَتَاةْ؟!

[1] من الحشائش التي تستوطن النيل

- سِمِنْدِسْ أَدْرِكْنَا، بَلْوَى تَكَادُ تُحِيقُ بفَتَاتَيْنْ، قَدْ زَجَّتْ بهِمَا إلَيْهَا حُظُوظٌ تَعِسَةْ

- يَا آمُونُ أَدْرِكْنَا جَمِيعَاً، فَلْنَدْخُلْ الدَّارَ إذَنْ قَبْلَ آتُونٍ كَادَتْ تَبْزُغْ، مَرَقَ ثَلَاثَتُهُمْ إلَى دَاخِلِ الدّارِ وارْتَمَتْ مَاعِتُ عَلَى حَاشِيَةٍ قَدْ أَدْرَكَتْ إعْيَاءَهَا، فِيمَا لَمْ تَصْبِرْ هَامِيسُ عَنْ الكَلَامْ، فَنَادَتْهُ.. سِمِنْدِسُ أَيُّهَا العَاشِقُ الثَّمِلْ، إنَّها هَامِيسُ رَبَّةُ قَلْبِكَ وهَذِهِ المِسْكِينَةْ، قَدْ وَقَعَتَا عَلَى خَبَرٍ أُرِيدَ بَهِ كِتْمَانَاً، وقَدْ كَادُوا يفْعَلُونَ بِنَا سُوءً لَوْلَا أَنْ تَدَخَلَ رَعْ بِمَشِيئَتِهْ، سِمِنْدِسْ.. إنَّهُ فِرْعَوْنُ قَدْ هَلَكَ وشَعْبَهُ فِي بَحْرٍ عَظِيمٍ كَمَا قَالَ نَاجٍ منْهُم لسَيِّدَتِي مِيرِيتْ نِيتُ، هَلَكُوا جَمِيعَاً يَا عَزِيزِي فَهَلْ تُصَدّقُ مَا سَمِعْت؟، صَدِّقْ يَا رَجُلْ أُنْظُرْ لِهَذِهِ المِسْكِينَةُ المُنْهَارَةْ، مَاتَ خَطِيبُهَا سِنِفرُو بنْ شَاوَرَ غِرِيقَاً فِي زُمْرَةِ مَنْ هَلَكُوا فَهَلَّا تُصَدّقْ، أعْرِفُ أَنّ الخَبَرَ كَأُسْطُورَةٍ مَا خَطَرَتْ عَلَى بَالِ شَاعِرٍ عَظِيمٍ كَأَنْتْ، آهٍ لَوْ رَأَيتَ عَيْنَيْ عَائِدٍ مِنْ هَوْلْ! رَأَيْتُ أُمَّةً بِحَالِهَا وبمَحَالِهَا تُصَارِعُ المَوْتْ، أَتُصَدِّقُ لَوْ قُلْتُ أَنّهُ إنتَابَنِي البَلَلُ مِنْ رَذَاذِ المَوْجِ فِي أَحدَاقِ الرّجلْ .

بُهِتَ "سِمِنْدِسْ" مِنْ هَوْلِ مَا سَمِعْ، فَأَخْلَدَ إلَى أَرْضِ الصَّالَةِ زَائِغَاً، أَوْ أَنَّهُ تَهَاوَتْ بِهِ رُكَبَتَاهُ المُرْتعِشَتَانِ عَلَى الأَرْجَحْ، ثُمَّ نَظَرَ فِي عَيْنَيْ "هَامِيسَ" لعَلّهَا مَازِحَةْ، فَكَانَ لَهُ مِنْ جَزَعِهَا رَادِعٌ أَثْنَاهُ عَنْ ظَنِّهِ، فَتَمْتَمَ شَارِدَ الفُؤَادِ:

مَا العَمَلُ الآنَ يَا هَامِيسْ؟

إنْ عَدِمَتْ مِصْرُ دِرْعَهَا وسَيفَهَا فَلَنْ تَعْدَمَ الحِيلَةْ، غَيْرَ أَنّ حَدَثَاً كَهَذَا أَخَذَ النَّاسَ جُمْلَةً لآخِذٌ مَعَهُ دُولَابَ دَوْلَةٍ مَكِينَةْ، فَمَتَى تُحْيِّي الآلِهَةُ دَوْلَةً بَعْدَ مَوْتِهَا، وعَلَى حَدِّ مَا سَمِعْتُ فلنَحْنُ الآنَ أُمَّةً مِنَ الرّضَّعِ مَنْ

يُنْشِؤُهَا؟ أُنْظُرِي تلْكَ اليمَامَةَ هُنَاكْ، مَنْ يُعَلِّمُ أفْرَاخَهَا التّحْليقَ لَوْ صَارَتْ عَشَاؤُكِ اللّيْلَةْ؟

سَيَكُونُ فَرَاغٌ وهَرَجٌ وانْفِلَاتْ، فَلْيَسَعْ آمُونُ مِصْرَ برِعَايَتِهْ، إيهْ الآنَ دَعِينَا لمُصَابِنَا فَمَا لطَرِيدَةِ الأمِيرَةِ مِنْ مَلْجَأ، وليْسَ بِوُسْعِيَ إنْتِظَارُ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ ضُرٍّ بِكُمَا، يَشْغَلُنِي الآنَ كَيفَ وأيْنَ أَنْتَبِذُ بِكُمَا مَكَانَاً آمِنَاً حَتّى تَضَعَ الفِتْنَةُ البَادِيَةُ أوْزَارَهَا، آهِ يَا مَمْفِيس أيَّتُهَا القَلْبُ مِنْ أرْضِ مِصْرَ مَاذَا يُخْفِي غَدُكِ؟

لَمْ يَنْدَهِشْ لِحَلٍّ طَرَأَ فِي رَأْسِهِ، فَكُلُّ الأَمَاكِنِ الآنَ تَتشَابَهُ وتَقَعُ تَحْتَ أَوَارِ غَدٍ لَا تُنْبِي نَواجِزُهُ عَنْ ابْتِسَامٍ أَوْ غَضَبْ، تَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ كَي يُدْخِلَ الطُّمَأنِينَةَ عَلَى الفَتَاتَينْ.

- فَلنَهْدَأْ يَا هَامِيسَ الجَمِيلَةْ، أوْشَكَ الصُّبْحُ أَنْ يَتَبَسَّمَ كَثَغْرِكِ هَذَا البَاسِمِ الجَمِيلْ، فلْتَنَالَا يَا حَبِيبَتِي شَيْئَاً مِنْ الرَاحَةْ، غَدَاً نَسْتَعِدُّ للرَّحِيلِ عَنْ هُنَا مَعَ بَاكُورَةِ لَيْلٍ جَدِيدْ، ليْسَ المَكَانُ هُنَا بِالآمِنْ، ورُبَّمَا تَكْتَشِفُ السّيّدَةُ فِرَارَكُمَا، فَخُذِي بِيَدِ صَاحِبَتِكِ إلَى الغُرفَةِ فِي أَمَانٍ واسْتَرِيحَا هَيَّا، ولتَتْرُكِي سِمِنْدِسَ يدَبِّرُ لِسَفَرٍ مُقْتَضَيَاتِ الطَّرِيقْ .

- لتَكُنْ مَشِيئَتُكَ يَا سِمِنْدِسْ، وهَوَتْ فِي أحْضَانِهِ كَيَمَامَةٍ تَنْهَلُ مِنْ دِفْءِ صَدْرِهِ المُتَّقِدْ، وطَبَعَتْ قُبْلَةً بعُمْقِ خَوفِهَا فَوْقَ خَدِّهْ، ثُمَّ أَخَذَتْ بِيَدِ مَاعِتَ فِي إعْيَاءٍ صَوْبَ المخْدَعِ، فَأَسْلَمَتَا نَفْسَيْهِمَا إلَى طِيبَةِ الفِرَاشِ تَفِيضُ إحْدَاهُمَا خُوفَاً، وتَسِيلُ الأُخْرَى حُزْنَاً ولَا مُبَالَاةْ، بَيْنَمَا مَارَسَ النُّعَاسُ رَحْمَتَهُ فَجْأةْ .

لَيْلُ مَمْفِيسْ

وَضَعَ الجُنْدُ الجُثْمَانَ دَاخِلَ الغُرْفَةِ المُطَهّرَةِ الرّحِيبَةِ، وبَيْنَ يَدَيْ تَمْثَالٍ لِلْإِلَهِ أَنُوبِيسَ إِنْتَهَتْ إِلَى حِينٍ مُهِمّتُهُمْ المُقَدَّسَةْ، وبِإِشَارَةٍ مِنْ الكَاهِنِ الأَعْظَمِ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيهِمْ إِنْسَحَبُوا رَاكِعِينْ، وخَلَتْ القَاعَةُ المَهِيبَةُ إِلَّا مِنْ أَهْلِهَا ومِنْ بَيْنَهُمْ "إِسفِينِيسْ "، إِطْمَأنَ لمُضِيِّهِمُ " مِنْكَاوْ " وعَلَى حَالِهِ مُولّياً الجَمِيعَ ظَهْرَهْ، قَالَ بِنَبْرَةٍ آتِيَةٍ مِنْ بِئْرٍ سَحِيقٍ تَرَدّدَتْ بِفَضَاءِ القَاعَةْ:

- لِيَقُمْ القَائِدُ بِتَسْرِيحِ هَؤُلَاءِ لِمِيقَاتٍ نَنْتَهِي فِيهِ منْ تحْنِيطِ فِرْعَوْنْ، واعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ قَبْلَ سَبْعِينَ يَوماً مِنَ الآنْ، فَخُذْ مَا يَكْفِيكَ مِنْ رَاحَةْ، وبَعْدَهَا نَلْتَقِي لنَنْظُرَ فِي أمْرِنَا .

إِنحَنَى "إِسفِينِيسُ" بِخُشُوعٍ دُونَ أَنْ يَنْبَسَ بِبِنْتِ شَفَةْ، ثُمَّ انْطَلقَ يَجِدُّ خَارِجَاً لشَأنِهِ فِي عُجَالَةْ، إِلْتَفَتَ الكَاهِنُ مُحَدِّثَاً جُوقَةً مِنْ صّفْوَةِ الكبَارِ مِنْ رِجالِ الكَهَنُوتْ:

- يَبْدُو أَنَ نُفُوذَنَا قَدْ بَاتَ بَيْنَ أمْرَيْنِ، إمّا خَطَرٌ يُذْهِبُ الرِّيحَ، وإِمَّا نُفُوذٌ مُطْلَقٌ يَا "سُوفْخَاتِبْ"

- الجَلِيلُ مِنْكَاوْ، لَمْ تَفُتْنِي وَسَاوِسُكَ وأَنْتَ تَسْتَنْطِقُ وَلَاءَ العَائِدِينَ فَنَحْنُ فِي حَاجَةٍ لوَلَائِهِمْ، وأَتَفَهَّمُ ارْتِيَابَكَ حَوْلَ مَا قَدْ يُسَاوِرُهُمْ نَحْوَ فِرْعَونَ مِنْ شُكُوكْ، لَكِنْ هَبْهُ حَدَثْ، فَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى تَكَبُّدِ كُلِّ مَشَقّةٍ والرّجُوعِ بِجُثْمَانِ المَلِكْ؟، هَذَا ومَا نَمَّتْ وُجُوهُهُمْ عَنْ مُنْكَرْ، ثُمَّ يَا مُولَايَ مَاذَا أَبْقَتْ مِصْر؟ لَا غَيْرَ شَيْخٍ فَانٍ وطِفْلٍ غَرِيرٍ، أَوْ أُمَّةٍ مِنَ الأَرَامِلْ، عَجَّتْ بِهَا دُورٌ خَرِبَتْ بَعْدَ تَالِدِ عِزّ، أَتُرَانَا نُتْلِفُ تِلْعَةَ مِنَ المَاءِ هِيَ فَضْلُ أَنْهَارٍ وعُيُونٍ وأَمَلَاً لأَرْضٍ كَادَتْ أَنْ تَمُوتْ!

- إذَنْ فَهُوَ دِينُ السَّفَلَةِ ومُدَاهَنَةُ الرِّيحِ إنْ عَنَّتْ عَنْهَا زَمْجَرَةْ، ولَمْ يَتَبَقَّ لمِنْكَاوٍ إلَّا أَنْ يَرْضَخَ للْجَمِيعِ عَلَى مَضَضْ، ليَكُنْ حَتّى حِينْ

- هُوَ وَاقِعُ الحَالِ سَيِّدِي، الحِكْمَةُ ألَّا نُجَابِهَ نَهْرَاً فِي سَوْرَةِ عُنْفُوَانِهْ، أَوَ لَا تَرَانَا نُفْسِحُ للنِّيلِ حَتَّي يَقُولَ كَلَامَهُ كُلَّهْ.. ثُمَّ إذَا مَا قَدْ مَاتَ عَنْهُ غَضَبُهُ أَمْكَنَنَا بِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهْ؟

- مَنْطِقٌ وَجِيهٌ أَيُّها المُوَقّرْ، ليَكُنْ، ولهَذَا أَعْهَدُ إلَيْكَ مِنْ بَاكِرٍ أَنْ تَنْشُرَ رُسُلَكَ فِي الرُّبُوعِ بالخَبَرِ المَشْؤُمْ، شَيِّعْهُ إلَى الْأَقَاصِي "كَطِيبَةٍ" و"سُوينِيتْ"[١]، إلَى "جِبْتُو"[٢]، ثُمّ إيَّاكَ.. لَا يَجِبْ أَنْ تَفُوتُكَ "لُوكَسْ لِيمِنْ"[٣]، أمّا القَرِيبُونَ مِنْ "مَمْفِيسَ" "كَهِلْيُوبُولِيسَ"[٤] و"أثْرِيبِسّ"[٥] و"سَاخُوتَ"[٦]، ومِنْ ثَمَّ "تِيمِنْحُورَ"[٧] و"بِبِرْنِيسَ"[٨] ، فليَكُنْ حُضُورُهمْ وَاجِبٌ فِرْعَوْنِيٌّ مُقَدّسْ ولِيُعْلَمَ رِجَالُ الكَهَنُوتِ بمَا انتَهَيْنَا إليهِ، وأَخَذَ بيُمْنَاهُ يُكْمِلَا حَديثَاً إلَى جَانِبٍ مِنَ القَاعَةْ، وتَبِعَهُمَا البَقيَّةُ كَيْ يُفْسِحُوا لِكَهَنَةِ الجَنَائِزْ .

تَوَافَدَ كَهَنَةٌ مُخْتَصُّونَ بأَعْمَالِ التِّحْنِيطِ، يتَقدَّمُهُمْ كَبِيرُهُمْ فِي قِنَاعِ "أَنُوبِيسَ" إلَهُ الجَبَّانَاتِ الحَارِسْ، فَانْهَمَكُوا كَشَغَّالَةِ نَحْلٍ مِنْ فَوْرِهِمْ

---

١ أسوان
٢ الأقصر
٣ القصير
٤ عين شمس
٥ بنها
٦ سخا
٧ دمنهور
٨ برنيس

يَعْمَلُونَ فِي صَمْتْ، دَقَائِقٌ مَعْدُودَةٌ بَعْدَهَا تَعَرَّتْ جُثَّةٌ يَكْسُوهَا مَسْحُوقٌ كَالكِلْسِ، مِمَّا أثَارَ فُضُولَ كَبِيرِ المُحَنِّطِينْ، كَانَتْ الجُثَّةُ جَافَّةً تَمَامَا، وهَذَا يَخْتَصِرُ وقْتَاً طَوِيلاً مِنْ عَمَلٍ شَاقٍ ومُجْهِدْ، كَانَ عمَلَهُمْ اليَومَ سَيقْتَصِرُ عَلَى تَغْطِيَةِ الجُثَّةِ بخَلِيطِ النُّطْرُونْ، والعَوْدَةُ بَعْدَ مُدَّةٍ يكُونُ الجُثمَانُ فِيهَا قَدْ تَخَلّصَ مِنْ سَّوائِلهْ، لكِنَّهُ رَغْمَ تعَجُّبِهِ قَدْ أوْمَأَ لرَجُلَيْنِ مِنْ مُسَاعِدِيهِ بمُوَاصَلَةِ العَمَلْ، فَأخْرَجَ أحَدُهُمَا أنْبُوبَاً دَقِيقَاً ،ثُمَّ رَاحَ فِي خِبْرَةٍ يَسْلُكُهُ فِي مَنْخَارِ الفرْعَوْن، بَيْنَمَا الآخَرُ يَثقُبُ فِي جَنْبِهِ واسْتَعَدَّ حَامِلُوا طُسُوتِ الأَحْشَاءِ المُقَدَّسَةِ مِنْ خَلْفِهِمَا، لَشَدَّ مَا كَانَتْ حَيْرَةُ الجَمِيعْ، حِينَ صَاحَ المُقَنَّعُ " أَنُوبِيسُ" يَسْتَدْعِي الكَاهِنَ الأَعْظَمْ، والّذِي فَزِعَ إليْهِ مَتْبُوعَاً برَهْطٍ مِنَ الكَهَنَةِ يُهْرَعُونَ فِي إنْزِعَاج

كَا - أُنْظُرْ يَا سَيِّدِي، يَبْدُو أَنّ يَدَاً سَبَقَتْ بالتَّحْنِيطِ إِلَى جُثَّةِ الفرْعَونْ

" نَفِرْ إبْ رَعْ ": - يَا آمُونُ، مَا هَذَا .. أَيُّ هَوْلٍ أَصَابَ القَومْ !

سُوفْخَاتِبْ: - إنَّهُ لَمَحْشُوٌّ بِالكَامِلِ بِحَالٍ يَابِسٍ مِنْ حال البحر[1]، وهَذَا يُصَدِّقُ رِوَايَةَ العَائِدِينِ بَلَا أَدْنَى شك يَا سَيِّدِي الكَاهِن المُوَقَّرْ!

حور إم إخت - طَافِحَاً بِالمِلْحِ الأُجَاجِ يَاسَيِّدي، قَالَهَا "حُورْ إمْ أَخِتْ" فِي ذُهُولٍ بَالِغٍ وهُويُؤَكِّدُ كَلَامَ الكَاهِنِ " عَنْخ "

كا - إنَّهَا كَأَمْثَلِ مَا يَكُونْ، فَلَمْ تَدَعْ هَذِهِ اليَدُ الأَمْهَرُ شَيْئَاً نَفْعَلُهُ يَا " نِفِرْ إبْ رَعْ "، هِيَ اليَدُ الأَمْهَرُ أَيُّهَا السَّادَةُ الخُبَرَاءُ أَعْتَقِدُ جَازِمَا "نِيتَاقْرِيتْ"

حور إم إخت - إنّ هِيَ إلَّا لَفَائِفَ الكِتَّانْ، ويَكُونُ فِرعَونُ مُجَهَّزَاً للدَّفْن.

[1] طين البحر

قَلَّبَ "مِنْكَاوُ" فِي فَزَعٍ نَظَرَهُ فِي الجَمْعِ كَلَدِيغٍ سَرَى سُمٌّ فِي عُرُوقِهْ، وتَهَادَى نَحْوَ الجُثَّةِ ذَاهِلاً ومُرْدِفاً فِي حِدَّةْ:

- لَا يَخْرُجَنَّ هَذَا السِّرُ مِنْ دَاخِلِ القَاعَةْ، نَحْنُ أَمَامَ رِجْلٍ مَثَّلَ بِهِ رَبُّ "مُوسَى"، بَلْ إِنَّهُ لَعَمْرِيَ قَتَلَهُ كَأَشَرَّ مَا يقْتُلُ عَدُوٌّ عَدُوَّهْ، وإِنَّهَا لَعَيْنُ الحَقِيقَةِ المُبِينَةْ، لعَمْرِي لَوْ خَرَجَ هَذَا الأَمْرُ مِنْ هُنَا .. لَفَقَدَتْ آلِهَةٌ أَزَلِيَّةٌ لِمِصْرَ سُمْعَتَهَا فِي قلُوبِ رَعَايَاهَا أَبَدَا، ولَدَالتْ دَوْلَةُ كَهَنَةِ "آمُونْ رَعْ"، أَيُّهَا المُخْلِصُونَ لآلِهَةِ الوَادِي تِلْكَ المَعْبُودَةْ، الآنَ آتُونِي مَوْثِقاً بِوَلَائِكُمْ "لآمُونْ رَعْ "، وإِلّا ذَهَبَتْ رِيحُنَا، ومَا رَكَعَ رَاكِعٌ عَلَى دِينِنَا فَوْقَ هَذِهِ الأَرضْ .

وَقَعَ حَدِيثُهُ مِنْ نفُوسِ السَّدَنِةِ عَلَى تَفَاوُتِ إيمَانِهِمْ، مَا بيْنَ مُؤْمِنٍ حَقّاً، ومَا بَيْنَ وَارِثِ إيمَانٍ أجْوَفْ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَلَّفَ بَيْنَ الجَمِيعِ دَاعٍ هُوَ المَنْفَعَةْ، وحَضَّهُمْ سُلْطَانُ النُّفُوذْ، ولَرُبَّمَا حَقَّقُوا لأَحَدِهِمْ نَسَباً لأَيٍّ مِنْ آلِهَةِ مِصَرَ فَدَانَتْ لَهُ رَاغِبَةْ، فَمَا فَكَّرَ أنْ يَتَقَهْقَرْ مِنْهُمْ أَحَدْ، وسَارَعُوا زُمَرَاً يُعَاهِدُونَهْ، حَتّى إِذَا مَا انْتَهَوْا، أمَرَهُمْ بالمُضِيِّ فِي مَرَاسِمِ التَحْنِيطِ، وعَلَى مُدّتِهَا كَمَا جَرَتْ العَادَةْ، ومَضُوا تِبَاعَاً إلى الخَارِجِ يُشَيِّعُهُمْ نَفْثُ البُخُورُ كَسَادِنٍ أَصِيلٍ للْآلِهَه .

وَ كَانَ "إِسْفِينِسُ" قَدْ فَرَّقَ رِجَالَهُ المُتَطَوّعِينْ، فَمَضُوا كُلٌّ إِلَى غَايَتِه، ثُمَّ انتَهَى إِلَى دَارِهِ كَالِحَ السِّحْنَةِ خَائِرَ القُوَى كَسَائِرِ الجُنْدْ، رَغْمَ مَا قَدْ اعْتَرَاهُمْ مِنْ نَشَاطٍ كَزَوَاجِلٍ تَعُودُ أَدْرَاجَهَا مِنْ سَفَرْ، إِسْتَقْبَلَتْهُ " تِي تِي" بِشَوْقٍ ودَهْشَةٍ مِنَ المُفَاجَأَةْ، فَارْتَمَى فِي حُضْنِهَا بِذِهْنٍ شَارِدْ ! .

وَ نَشَطَ "سِنِفْرُو "مُغَادِرَاً مِنْ سَاعَتِهِ قَاصِدَاً قَصْرَ "مِيرِيت نِيت" فِي لَهْفَةٍ يَشُوبُهَا القَلَقْ، لَا شَيءَ يَدْعُو لقَلَقِهِ بَعْدَمَا أكّدَتْ لَهُ مَوْلَاتُهُ أَنّهَا أَبَدَاً لَنْ تُؤذِيَ "مَاعِتْ "، إلّا أَنّ هَاجِسَهُ أَقْوَى مِنْ دَفْعِهْ، بَدَا القَصْرُ يَشْمَلُهُ الهُدُوءْ، يَبْدُو أَنّ الجَمِيعَ مَا ذَاقُوا النَّوْمَ بعَدَ لَيْلةٍ عَصِيبَةْ، والسَّيّدَةُ بالذَّاتِ قَدْ غَلبَهُ حَدْسُهُ أَنَّهَا فِي ثُبَاتٍ كَالغَيبُوبَةِ الّتِي تَأخُذُ بغْتَةً الحَزَانَى بفِعْلِ الإرْهَاقْ، ولَرُبَّمَا يَطُولُ إنتِظَارُهْ لسَاعَاتٍ أَوْ رُبَّمَا العَكْسْ، فقَرَّرَ المُقَامَ وليَكُنْ مَا شَاءَهُ اللهْ، إسْتَرْعَتْهُ تُرْعَةٌ تُسِيرُ الهُوَيْنَى تَحْتَ سُورِ القَصْرِ المَنِيفْ، يَغْمِسُ فِيهَا الجُمَّيزُ أَقْدَامَهْ، وتَغْتَسِلُ أَشْجَارُ أُمُّ الشّعُورِ كَأَنَّهَا الجُنُونُ[1] قَدْ أَغْرَتْهَا دُغْشَةُ مَا قَبْلَ الضِّيَاءِ، خَايَلَهُ طَيْفٌ مِنْ قَرِيبٍ كَأَنّهُ يَرَي بأُمِّ عَينَيهِ "مَاعِتَ "مُنْفَرِدَةً بشُجُونِهَا، خَفَّ مِثْلَ ذَكَرٍ عَاشِقٍ يَطِيرُ نحْوَ قُبَّرَتِه الحَزِينَةْ، كَم يَشْتَاقُ أَنْ يُحَدِّثَهَا عَنْ إيمَانِهْ، وعَنْ كَيفَ اجْتَبَاهْ رَبُّهُ فَأَنْجَاهُ مِنْ مَصِيرٍ لَهُ مَا بَعْدَهْ، وكَمْ هُوَ رَاجٍ فِي إيمَانِهَا، فيَكُونَا نَوَاةً لِدِينٍ لَفِظَهُ جِيلٌ كَامِلٌ مَا اسْتَحَقَّ هَذِهِ الأَرْضَ الطّيّبَةْ، آهٍ مَاعِتُ يَا حَبَّةَ القَلْبِ لَو تَرَيَّثَ بِكِ الفُضُولُ حَتَّى جَاءَكِ الخَبَرْ؟ إحْتَضَنَهَا فِي جُوْعٍ فَصَارَا جَسَدَاً وَاحِدَا، تَوَقّفَ الوَقْتُ كَمُشَاهِدٍ لَزِجٍ وفُضُولِيٍّ، تَحَاشَيَاهُ تَمَامَاً.. وارتَكَنَا الصّفْصَافَةَ بَعِيدَاً عَنْ عَيْنَيْهِ المُتَطَفّلَتَيْن، تَثَاقَلَ جَسَدُهُ فِي خِدْرٍ مُحْتَضِناً لَدَائِنَهَا الغَائِبَةَ فِي كُلّهْ، ... يُغْمِضُ يَمِيلُ.. يمِي ي لُ .. يَسقُطُ رَأسُهُ يَ سْ قُ طُ .. فَوْقَ حَشِيشٍ بَارِضْ[2]، تُفسِحُ الخَمِيلَةُ لهُمَا مَلْعَبَاً وغَدَقَاً مِنْ أَنَاشِيدِ الدُّورِي، يَعْلُو كُورَالٌ جَمَاعِيّ يُرَجِّعُ خَلْفَ حُورِيَّةٍ تُرَتِّلُ فِي خِفَّةٍ تِرْنِيمَةَ " آمُونِيتْ " فِي مَسْقَى الآلِهَةْ ...
هِاااياْ هِاايْ هِاايْ

---

[1] جمع جِنّيّ
[2] أخضر ندِيّ

تَعالَى يَا خَمْرَ أُونَ المُعَتّقْ
هُنَا مَا فَارَقْتُ مسْنَدَ الصّفْصَافْ
فَنَمْ يَا لَذِيذَ الرّيقِ فوْقَ فَخِذِي
و دَعْنِي كُلّمَا جَفَّ فَمِي
أنقُرُ مِنْ نِيلِ فَمِكَ قطْرَةْ
نَمْ كمَا أنْتَ هُنا
وَ دَعْ أنْثَاكَ تَنْظُرُ أيُّ إلَهٍ تُشبِهْ؟!
هَاااياٌّ هَاااياٌّ هَاااياٌّ ..
نَمْ يَا حَبِيبِي نَمْ ..
هَاااياٌّ هَاااياٌّ هَاااياٌّ ..
نَم .. نَمْ .

يَسْرِي صُوتُهَا شَجِيّاً نَاعِمَاً، حَزِيناً ورَائِقَاً كَحُزْنِ اليَمَامْ، فَتُصْخِي لَهُ فَرَسٌ فَوْقَ طَرِيقٍ فَرْعِيٍّ مُتَرَّبْ، تُحَمْحِمُ نَشِيجَاً بِلِسَانِ الخَيلْ، يَسْرِي صَوْتُهَا فَتَسْكُتُ حَوْلَهَا حُقُولْ، تُنْصِتُ وتُهَدْهِدُ عَلَى عُذُوبَتِهِ الطُيُورُ أفْرَاخَهَا، تُشْفِقُ لهُ فِي الْتِيَاعٍ "هَامِيسْ "، مُلْقِيَةً برَأسِهَا بِدِعَةٍ فُوقَ كَتِفِ "سِمِنْدِسِ"، وهُوَ مَاضٍ بأَمَانَتِهِ صَوْبَ "بِتْخِيكَا" [١]، شَارِدَاً فِي لَا شَيءْ، كَنَافِرَاتِ قَطِيعٍ منْ ظِبَاءٍ لَا يُزَايِلُهَا التَّوَجُّسْ، وتَكِدُّ بِهِمْ العَرَبَةُ نَحُوَ غَايَتِهِمْ، تَكْتَنِفُهمْ ظُلْمَةٌ كَأنّهُمْ سِرٌّ خَطِيرٌ تُوارِيهْ حَتّى تَبْلُغَ بِهِ مَأْمَنَهْ، ويمْضَى اللّيلُ بِخُطَاهُ الرَّتِيبَةِ إلَى أَنْ بَارَكَ الصَّبَاحُ تَمَطِّيَاتِ الطّيرِ، وهِي تُلْقِي فِي حُبُورٍ آذَانَهَا للشَّقْشَقَةْ .

---

[١] طنطا

يَفْرُكُ "سِنفْرُو " عَينَيْهِ ويَنْتَفِضُ كَمَنْ غَادَرَتْهُ قَافِلَةٌ فِي سَبْسَبٍ قَاحِلَةْ، وسُرْعَانَ مَا دَاخَلَهُ ارتِيَاحٌ عِنْدَمَا لَاحَظَ بَاكُورَةَ نَشَاطٍ بالقَصْر، فنَظَرَ إلى صُورَتِهِ فِي المَاءِ فَأَنْكَرَ هَيْئَتَهُ الرَّثّةَ مِنْ وَعْثَاءِ، قَفَزَ بِكَامِلِ ثِيَابِهِ فِي النُّزْعَةِ ثُمَّ رَاحَ يَنْضُوهَا قِطْعَةً قِطْعةْ، والمَاءُ جَارٍ فِي نَشَاطٍ يَذْهَبُ بوَسَخِهَا، فَيَنْشُرُهَا فَوقَ عُشْبٍ شّطٍ كَثِيفٍ مُعْشَوشِبْ، ورَاحَ يَبُثُّ هُمُومَهُ صَدْرَ المَاءِ ويُسَبِّحُ بحَمْدِ رَبِّ مَاءَيْن، كَادَ مَاءٌ مِنْهُمَا يَعْصِفُ بِهِ لوْلَا رَحْمَةَ رَبِّهْ، يُزَايَلُهُ الهَمُّ كُلّمَا ذَهَبَ بفِكْرِهِ خَلْفَ نَبِيِّهِ الكَرِيمْ، تُرَاهْ يَعْلَمُ بإيمَانِهْ؟، هَلْ تَرَاهُ يُدْرِكُ كَمْ أَحَبَّ رَبَّهُ الّذي قَدْ رَأَى صَنِيعَهُ وقَدْ كَادَ يَمُوتُ أعْمَى عَنْ صَنْعَتِهْ؟، كَمْ جِدّاً يَفْتَقِدُكَ سِنفْرُو يَا نَبِيَّ الله، سنِفرُو العَبْدُ المِسكِينُ، مُؤمنٌ وحِيدٌ تَرَكْتَهُ خَلفَكَ لا يَدْرِي كَيفَ ولَا بمَاذَا يعْبُدُ الله، أتُرَاهُ يَكْفِيَهُ إيمَانُهُ القُحَّ بِلَا عَمَلْ؟، خَرَجَ مِنَ المَاءِ ومِنْ شُرُودِهِ ورَاحَ عَلَى مَهَلٍ يَرْتَدِي ثِيَابَهُ واتّجَهَ فِي عَزْمٍ إلَى القَصْر، لَمْ يُنْكِرْ الحَاجِبُ علَيهِ قُدُومهُ فِي سَاعةٍ مبكّرَةٍ فذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ نَشِطَاً يَسْتَأْذِنُ لَهْ، إنْ هِيَ إلّا دَقَائقَ وكَانَتْ سّيّدَةُ القَصْرِ أَمَامَهْ، بَدَتْ إمْرَأَةً مُعَطّلَةً مِنْ زِينَتِهَا كَمِصْرَ فِي عُمُومِهَا الآنْ، .. بَيْدَ أنّهَا أطَلّتْ عَلَيْهِ تَرْفُلُ بَيْنَ حِكْمَةِ إمْرَأةٍ وبَيْنَ مَفَاتِنِ الأُنْثَى الصَّارِخَة، ... بَادَرَتْهُ كَمَنْ تعْرِفُ مغْزَي مجِيئِهْ:

أَنْتَ فَتَى مَاعِتَ إذَنْ .

_ نَعَمْ يَا مَوْلَاتِي فَاعْذُرِي قَلقِي وإشْفَاقِيَ القَاتِلَيْن

_ أَتَبْدُو مَنْ أَمَامَكَ بالمَرْأةِ الّتِي تَكْذِبُ أوْ تخُونُ عَهْدَا؟

_ حَاشَا مَولَاتِي، مَا سَمِعتُهُ منْكِ بالأَمْسِ يُنْبِي عَنْ طَبَائِعِ النُّبَلَاءْ

_ أَتُصَدِقُ إنْ قُلْتُ هَرَبتْ مَاعِتُ وهَامِيسُ أيضَاً لظَنٍّ كَاذِبٍ كَالَّذِي ظَنَنْتَهُ أَنْتَ بالأَمْس؟

أُقْسِمُ لَكَ بِحَقِ آمُونْ رَعْ مَا طَالَتْهَا يَدِيَ بسُوءْ، وأَنَا الآنَ أَرْجُوهَا بِلَا حِيلَةْ، أَتَعْلَمُ أيُّهَا الشُّجَاعُ فَدَاحَةُ مَا أصْبَحْنَا عَلَيْه، لَا مَجَالَ لمُهَاتَرَاتٍ ولَا لخِلَافَاتْ، كُلُنَا مِنْ سَادَةٍ ومِنْ عَبِيدْ، مِنْ كَهَنَةٍ وحَتّى مِنْ آلِهَةٍ .

حَالُنَا أَتَعْرِفْ مثْلَ مَاذَا؟

نَحْنُ ثُلَّةٌ مِنْ أفرَاخٍ انْصَرَفَتْ عَنْهَا الحِدَأةُ شَبَعَاً، لِكَيْ لتَعُودَ إليهَا وقْتَ حَاجَةْ، مَاذَا تَفعَلُ غَيرَ أَنْ تَحْتَمِي مِنْ ضَعفِهَا فِي ضَعْفِهَا فِي شَجَاعَةٍ ولَوْ كَاذِبَةْ؟، لَسْنَا فِي حَاجَةٍ للنَّيلِ مِنْ أنْفُسِنَا فَوقَ مَا نَالتْ مِنَّا الطّيْر،

هَلْ تَفْهَمُنِي أيّهَا الشُّجَاعْ؟

- أُصَدّقُ مَوْلَاتِي، لَا مِنْ أجْلِ آمُونَ ولَا مِنْ أجْلِ آلِهَةٍ كَاذِبَةْ، بَلْ مِنْ أجْلِ سَيّدَةٍ أُوقِنُ أَنَّهَا لَا تَعْرِفُ الكَذِبْ، سَأعْثُرُ عَلَيهَا يَقِيناً يَا مَوْلَاتِي، لَمْ يَخطُرْ لَهُ خَاطِرٌ أَنَّ مَاعِتَ تَخْرُجُ عَنْ حُدُودِ "مَمْفِيس"، لَهَذَا قَابَلَ سنفْرُو حَدِيثَهَا ليْسَ عَنْ عَدَمِ مُبَالَاةْ، بَل كَانَ أقصَى مَا جَالَ بِخَاطِرِهِ أَنَّهَا قَد فَرّتْ إلَى أَطْرَافِ المَدِينَةْ، إنْ لَمْ

يُنَازِعُهَا الحَنِينُ إلَى مَرْتَعِ لَيْلَتِهِمَا الأَخِيرَةْ، أَكِيدٌ سَوْفَ يَعْثُرُ عَلَيْهَا بأمْرِ رَبِّهِ الّذِي أنْجَاهُ، فصَارَ إيمَانُهُ بِهِ أَرسَخُ مِنْ جِبَالْ، نعَمْ أكِيدْ، ثُمَّ فِي لُطْفٍ بَادَرَ السّيّدَةَ بِانْحِنَاءَةٍ يَسْتَمِيحُهَا إذْنَاً بالإنْصِرَافْ، بَيْدَ أَنَّ الأَمِيرَةُ اسْتَمْهَلَتْهُ، يَطِنُّ فِي رَأسِهَا جُمْلَتَهُ الّتِي لَمْ تَبْدُو لَهَا جُمْلَةً عَارِضَةْ، ولَا بالغَيرِ مَقْصُودَةْ، فِي نَبْرَةٍ هَادِئَةٍ كَأنّمَا هِي إينَاسٌ لَا اسْتِفْهَامْ:

_ أَكَافِرٌ سِنِفْرُو الشُّجَاعُ بآلِهَةِ مصْرَ المَزْعُومَةِ إذَن، فَفِيمَ خُرُوجُهِ فِي سَبِيلِهَا؟

_ مَوْلَاتِي إنّهَا الحَقِيقَةْ، خَرَجْتُ فِي خِدْمَتِهَا نَعَمْ، لَكِنْ عُدْتُ شَاهِدَاً عَلَى هَلَاكِ أَحَدِهَا بِلَا حِيلَةْ، وصَاهِلَاً صَهِيلَ جَوَادِهِ، إلَهٌ ومَطِيَّتُهُ يَمُوتَانِ

أَمَامَ عَيْنَيكِ، فيَصْرُخُ الجَوَادُ مَرَّةً ويَصْرُخُ الإلَهُ أَلْفَ مَرَّةْ !، إلَهٌ يَتَّقِي بِيَدٍ بَطْشَاً وبِالأُخْرَى آخِذٌ بثَوْبِ عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِهِ يَسْتَصْرِخُهْ!، مَاذَا تَفْعَلُ مَولَاتِي لَوْ عَايَنَتْ هَذَا بِنَفْسِهَا؟

وَ دُونَ انْتِظَارِ لرَدِّهَا انْحَنَي ثَانِيَةً لتَأذَنَ لَهْ، فَأوْمَأتْ مِيرِي برَأسِهَا إيجَابَاً ووَدّعَتْهُ بِإكْبَارٍ لنُبْلِهْ وقد أخذت عَلَيْهِ عَهْدَاً أنْ يَعُودْ، فَقَطَعَ لَهَا عَهْدَهْ، ومَضَى مُسْرِعَاً خَلْفَ مُرَادِهِ ثَابِتَاً يَطْلُبُ أَثَرَ مَاعِتَ، وكَلِمَاتُهُ تَتَرَدَّدُ فِي رَأسِهَا بَيْنَ إنْكَارٍ وتَدَبُّرْ .

هُنَاكَ، هُنَاكَ فِي البَعِيدْ، حَيثُ لَا يَدْرِي، هُنَاكَ فِي "بِيتْخِيكَا" الّتِي لَا يَعْرِفُ عَنْهَا، وقَفَ "هِنْفَرُ "ضَاحِكَاً وفَاتِحَاً ذِرَاعَيْهِ مُرَحِّبَاً بصَدِيقِهِ العَزِيزَ "سِمِنْدِسْ" .

سُلْوَانْ

مَضَتْ الأَيَّامُ بِمِصْرَ رَتِيبَة وكَئِيبَةْ، كَأَنَّمَا يَلَمْلِمُ كُلُّ مَنْ فِيهَا شَتَاتَ نَفْسِهِ وَحْدَهْ، وانْصَرفَ إِسْفِينِيسُ بَعْدَ تَسْرِيحِ ثُلَّةِ الجُنْدِ لِمِيعَادِ التَأْبِينْ، يُضْمِرُ أَمْرَاً لَمْ يَقِفْ عَلَى كُنْهِهِ بَعْدْ، فَلَبِثَ فِي أَهْلِهِ يَتَدَارَسُ أَمْرَهُ بَيْنَ حَيْرَةٍ وإِشْفَاقْ، فِي الوَقتِ الّذِي هَامَ فِيهِ سِنِفْرُو فِي البِلَادِ بَاحِثَاً عَنْ بُغْيَتِهْ، يَقْطَعُ المَسَافاتِ فَتَقْطَعُهُ المَسَافاتُ وتَبُتُّ فِي عَضُدِهْ، لَوْلَا رَجَاءً تَمْهِلُهُ بِهِ عَيْنَا مَاعِتِ التِي لَا تُفَارقَانِهْ، كَأَنَّهُمَا قَدْ بُثَّتَا فِي نَوَاحِي الأُفُق الوَاسِعْ، فَصَارَ دَيْدَنٌ لَهُ السِّيَاحَةُ مَا بَيْنَ رُبُوعِ مصْرَ المُتَرَامِيَةِ ومَا بَيْنَ مَمْفِيسْ بِلَا طَائِل .

وَ إِنْكَفَأَ الكَهَنَةُ عَلَى تَدَابِيرِهِمْ فِي غُمُوضْ، فِيمَا يتَلَكَّؤُنَ بِجُثَّةِ الفِرعَوْن إِلَى مُدَّتِهَا المَعْلُومَةِ بَيْنَ عُمُومِ الرّيخِيتْ حَتَّى حَانَ أَجَلُ التَّشْيِيعِ فَانْطَلَقُوا بِجُثْمَانِهِ إِلَى يَمَّةِ أُيزُوريسَ الأَمَدِيَّة، وتَبَقَّى عَلَى عَوَاتِقِهِمْ تَدَابِيرَاً يُلَازِمُهَا تَرقُّبٌ حَذِرٌ وخَوْف، يَتَبَاحَثُونَ ويُفَاضِلُونَ وُصُولَاً لِخَلَفٍ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّت الآرَاءُ عَلَى دَلُّوكَا بَعْدَ زَمَنٍ تَدَارَءَ الجَمِيعُ فِيهِ المُلك، وفي صباح باهِت وقفَ مِنكاو وسط رهطهِ مُسترسِلا

منكاو: _ الكَهَنَةُ لَا يَنْبَغِي لهُمْ أَنْ يجَلِسُوا فَوْقَ العَرُوشْ، صَحِيحٌ أَنَّهُمْ الآنَ أَشْرَافُ مِصْرَ وَحْدَهُمْ، غَيرَ أَنَّ للرَّاحِلِينَ نِسَاءٌ وذَرَارِيَ لَا يَجُوزُ أَنْ نتخَطَّاهَا، ولَا يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ أَيّهَا المُوقّرُ أَهْنَاسْيَا بقِيمَةٍ كالعَدْلِ مَثَلَاً ، فَالحَقِيقَةُ أَنّنَا نَحْنُ الدَّوْلَةُ، قَدْ يَظْهَرُ للعَيَانِ أَنَّنَا مَنْ نُمَثِّلُ ظِلَّ حُورَسَ عَلَى الأَرْض، بَينَمَا الحَقِيقَةُ أَنَّ حُورَسَ انْعِكَاسٌ لظِلِّنَا فُوقَ عَرشْ مِصْرَ،

نَحْنُ الدّينُ الّذِي يَعْتَنِقُهُ "بِرْ عَا"[1] ، فيَمْلِكُ بِهِ ويَتَمَلَّكُ ومِنْ ثَمَّ يُمْضِي سُلطَانَهْ، ونحْنُ الدِّينُ الَّذِي يعتَنِقُهُ " الرِّخِيتُّ "[2] ظِلاّ مِنْ آتُونِ العَنَاءِ وأمَلاً فِي الخَلَاصْ، لهَذَا أيّهَا المُبَجَّلُ سَمَالُوطُ تَرَكْنَا الأَمْرَ لمَنْ قَدْ يَبْدُو بِيَدِهِ الأَمْر، وهَا أنْتُمَا تَرَيَانِ هَذَا الزَّخَمَ مِنْ حُشُودِ النِسَاءِ يَتَخَلّلُهُ القَلِيلُ مِنْ رِجَالٍ لَا حَيْثِيَةَ لَهُمْ ولَا نَسَبْ، بالأَخِيرِ نَحْنُ دِينُهُمْ، وأَمْرُ مَلِيكَتِهِمْ سَتُدِيرُهُ آلِهَةُ أَزَلِيَّةٌ لمِصْر، فابْتَسَمَا رِضَىً وأوْسَعَا "لمِنْكَاو" وهُوَ يَهَمُّ وَاقِفَاً إيذَانَاً بالتَّحَرُّكْ .

بَدَتْ سَاحَةُ "مَمْفِيسَ" كآخِرِ مَرَةٍ خَرَجَتْ فِيهَا الجُمُوعُ لتَوْدِيعِ الجَيشْ، وعَلَى كَثْرَةِ الحُشُودِ لَاحَتْ ثَوْبَاً فِضْفَاضَاً يَعْتَمِرُهُ شَعْبٌ هَزِيلْ، قَدْ تَكَالَبُوا مِنْ عُمُومِ مَمْفِيسَ ومَا حَوْلَهَا ليَشْهَدُوا تَتْوِيجَ إمْرَأةٍ " كَبِرْعَا " خَلَفَاً لفِرْعَوْن، لَمْ تَكُنْ بسَابِقَةٍ أثَارَتْ لَدَى الجُمُوعِ شَغَفَاً، فَقَدْ جَلَسَتْ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ قَبْلَهَا الكَثِيرَاتْ، لَكِنْ هَذِهِ المَرّةُ الأُولَى الّتِي سَوْف يُعَاصِرُونَ الحَدَثْ، ولَاحَتْ المَسَلّاتُ زُبَرَاً[3] تَرْفَعُ أسِنَّتَهَا فِي اتّجَاهِ السّمَاءْ، وكَأَنَّهَا تُعَاتِبُ الرَّبَّ فِي سُؤُالٍ صَامِتٍ عَنْ أَيِّ مَجْدٍ سَيَحْفُرُهُ هَؤلَاءِ فَوْقَ أَدِيمِنَا المُزْدَحِمِ بالجُلَّى[4]، إنْشَغَلَ الجَمِيعُ فِي أحَادِيثٍ شَكْلَاً مُتَبَايِنَةٍ حَوْلَ " بِرْعَا " مِصْرِيّةٍ جَدِيدَةْ، المَلِكَةُ "دَلُوكَا بِنْتُ زِبَا"، بَيْنَمَا سِنْفْرُو حَاضِرَاً غَائِبَاً يُفَتِّشُ فِي الوُجُوهْ، قَدْ أَمْضَى أيَّامَاً بِطُولِهَا يَجِدُّ فِي البَحَثِ عَنْ "مَاعِت" دُونَ أَثَرْ، جَابَ "مَمْفِيسَ" وضَوَاحِيهَا دُونَ

---

١ لقب يطلق على فرعون

٢ العامة من الشعب

٣ كتب

٤ العظيم من الأمور

جَدْوَى، حَتَّى أَنَّ بَحْثَهُ طَالَ مَا خَارِجَ هَذِهِ الضّوَاحِي البَعِيدَةْ، وإِلَى القُرَى المَنْسِيَّةِ ولَا فَائِدَةْ .

وَ حَمّ تَأْبِينُ فرْعَونَ فأوْفَى وَعْدَهُ "لإسْفِينِسَ"، كَانَ "إسفِينِيسُ" قَدْ قَرّ قَرَارُهُ أنّ يُسَرِّحَ جُنْدَهُ أبَدَاً، عَلَى أنْ يُلَبُّوا نِدَاءَهُ وقْتَ الحَاجَةْ، فَها هِيَ البلَادُ بَلْقَعَاً، ومَا تَبَقّى مِنْ دُورٍ وضِيَاعٍ ومِنْ حُقُولٍ صَارَ إرْثَاً لَا يُغْرِي طَامِعَاً مِنْ أهْلِهَا، الحَقِيقَةُ أَنَّهُ إرْثٌ زَائِدٌ عَنْ حَاجَةِ كُلُّ طَامِعٍ نَهِمْ، لَيْسَ أَمَامَ النّاسِ إلّا التّعَايُشَ فِي سلَامْ، سَيحمِي الشّعْبُ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهْ، ومَا كَانَ لحَامِيَةٍ كَهَذِهِ أنْ تَحْمِي الجَمِيعَ مِنْ عَدُو، وعَلَيهِ فَإصْلَاحُ المَعِيشَةِ

أوْلَى الآنْ، عَلَى" آمُونُ" أَنْ يُعَمِّيَ عَنْ مِصْرَ عَدُوَّهَا حَتَّى يَشْتَدَّ عُودُ هَؤُلَاءِ الصّغَارْ، قَدْ بَدَتْ لَهُ وللجَمِيعِ أَنَّهَا فِكْرَةٌ صِبْيَانِيَةٌ لِأَنَّهُ هَذَا وَاقِعُ الحَالْ، حَقِيقَةٌ مَاثِلَهٌ حَاقَتْ بِمِصْرَ، فَبَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا أَضْحَتْ كَرَجُلٍ وَحِيدٍ وَاسِعٍ مُلْكُهُ وقَدْ أَصَابَتْ ضِيَاعَهُ الصَّاعِقَةْ، وحَلَّ بَوَارٌ بِعَينَيْهْ، عَلَيْهِ أنْ يَطَأَ إمرَأَةً تَلِدُ لَهُ سَاعِدَاً ، بَلْ وعَلَيْهِ انْتِظَارِهِ إلَى أنْ تَنْحَتَهُ معَاوِلُ الصِّبَا، فَأَجَّلَ إعَادَةَ تَكْوِينِ الجَيْشِ إلَى حِينٍ قَرِيبْ .

عَادَ "سِنفْرُو" لتَأبِينِ فرْعَونَ عَلَى مَضَضْ، وعَلَى أَمَلٍ هَزِيلٍ لَرُبّمَا صَادَفَ "مَاعِتَ" وَسَطَ الحُشُودِ، مَنْ يَدْرِي .

كَانَ أَمَلُهُ يسْتَحِيلُ سَرَابَاً مَعَ الأَيَّامْ، يُواصَل بَحْثَهُ دُونَ كَلَلْ رَغْمَ ذَلِكْ ،إنَّهَا مَوْعِدَةٌ وعَدَهَا "إسْفِينِيسُ" ليَوْمِ التَّتْوِيجِ مَا أَتَتْ بِهِ إيفَاءً لَهْ، هَا هُو عَائِدٌ مِنْ " أَثْرَيْبِسْ "[1] أَيضَاً بِخَيْبَةِ سَعْيٍ جَدِيدَهْ، لَكِنْهُ أَبَدَاً مَا فَارَقَهُ شَغَفُ البَحثْ، يُفَتِّشُ السَّاحَةَ بَينَ الحِينِ والحِينْ، ويعُودُ إلَى مُشَارَكَةِ رِفَقَائِهِ التّشْرِيفَةَ الهَزِيلَةْ، بَيْنَ حِينِ وحِينْ وَسَطَ إشفَاقٍ مِنْهُمْ وحُزْنٍ

[1] اسم بلدة فرعونية

لأَجْلِهْ، يُفَتِّشُ فِي الوُجُوهِ فَتَسْتَنْكِرُ فَعْلَتَهُ النِّسْوَةْ، عَادَ خَاوِيَ الوِفَاضِ كُلِّ مَرَّةٍ لِيَجِدَ رِسَالَةً شَفَهِيَّةْ، كَانَتْ مِنْ مَوْلَاتِهِ "مِيرِيتْ نِيت "تَطْلُبُهُ لعَاجِلِ أَمْر، تَذَكَّرَ وَعْدَهُ لَهَا فَاصْطَفَّ عَلَى جَمْرِ الإِنْتِظَارِ فِي صُفُوفِ الجُنْدْ، ولِحَتَّى تَنْتَهِي طُقُوسُ التَّتْوِيجْ، عَسَاهَا تَكُونُ الأَمِيرَةُ قَدْ وَقَعَتْ مِنْ "مَاعِتَ" عَلَى خَبَرْ .

وَقَفَتْ "نَانِيسُ" فِي سَذَاجَةِ القُرَوِيَّاتِ تُرَاقِبُ حَدِيثَ "هِنْهِنْتَ" مَعَ "نِفْتِيسَ"

نفتِيس: _ عَجُوزٌ طَاعِنَةٌ كَيْفَ تَقُومُ بأَمْرِ مِصْرَ يَا هِنْهِنْت؟

هنْهِنْت: _ سَمِعْتُ عَنْ رَجَاحَةِ عَقلِهَا وحِكْمَتِهَا الكَثِيرَ يَا نِفْتِيسْ

نفتِيس: _ لكِنْ كَمَا تَعْلَمِينْ، تَحْتَاجُ البِلَادُ إِلَى شَكِيمَةِ[1] رَجُلٍ مِنْ نَسْلِ الآلِهةْ، أَوَلَسْتِ مَعِي؟

نَفْتِيسْ: _ رَجُلْ !، وهَلْ أَبْقَى الفِرْعَوْنُ لِمِصَرَ رَجُلَاً ذَا شَأنٍ إِلَّا وقَدْ حَشَرَهُ فِي عِدَادِ جَيْشِهِ المَغْدُورْ، دَعِينَا لِشَأنِ دَلُوكَا يَا إِمْرَأَةْ، أُشِيعَ أَنّ لَهَا أُصُولٌ تَنْتَهِي إِلَى الإِلَهِ تُحُوتْ، ورُوحُهُ سِرُّ حُنْكَتِهَا وحِكْمَتِهَا، فَقَدْ أَخْبَرَتْنِي تَاوْسِرْتُ ابْنَةُ عَمّي العَامِلَةُ فِي قَصْرِ أَرْمِلَةِ قَائِدِ الجَيشِ، أَنَّ جَمْعَاً مِنْ سَيّدَاتِ مِصْرَ جَمَعَتْهُمْ إِجْتِمَاعَاتٌ عِدَّةٌ دَاخِلَ قَصْرِهَا بِكَهَنَةِ آمُونْ رَعْ، كُلُّهَا كَانَتْ حَوْلَ اخْتِيَارِ حَاكِمٍ يخْلُفُ رَبَّنَا الذَّاهِبَ فِي شَعْبِهْ

هِنْهِنْت: _ ولِمَاذَا إِمْرَأَةْ، وقَدْ كَانَ بِإِمْكَانِ رَئِيسِ الكَهَنَةِ أَنْ يتَوَلَّى أَمْرَ مِصْر؟

---

[1] عزيمة

تَدَخَّلَ شَاوَرُ وكَانَ يَسْمَعُ حِوَارَهُمَا قَائِلاً:

العُذْرُ مِنْ سِيّدَتَيَّ الأنِيقَتَيْن، نَمَا إلَيَّ يَقِيناً أَنّ شَرِيفَاتِ مِصْرَ وبَقِيّةٍ مِنْ أَشيَاخِهَا الفَانِينَ قَدْ رَشَّحُوا الكَاهِنَ الأَعْظَمَ، لكِنَّه رَفَضَ بِشِدَّةْ، حَتّى أَنَّ نَائِبَهُ سُوفْخَاتِبْ أَبَى هُوَ الآخَرْ .

هنهنت: - ومَا السَّبَبُ فِي رَفضِهِمَا يَا سَيّدِي اللّطِيفْ، وكُلُّ مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ خَاوِيَةْ، قُلْ كَلاَّتْكَ الآلِهَةْ

شَاوَرْ: - تَعْرِفِينَ سَيّدَتِي، وَظِيفَةُ الكَاهِنِ الأعْظَمِ هِيَ التّفَرُّغُ لتَعَالِيمِ الآلِهَةِ التِي تُلْقِيهَا فِي رَوْعِهْ، فتَكُونُ نِبْرَاسَاً يُعِينُ بِرْعَا عَلَى مَهَامِهْ، آمُونُ لَا يتَجَلَّى لابْنِهِ الجَالِسِ فَوْقَ عَرْشِهِ توْقِيراً مِنْهُ لدُسْتُورِ رَعْ، إنَّ الآلِهَةَ يَا سيّدَتِي تَحْتَرِمُ سُلَّمَهَا الوَظِيفِيَّ حَتّى لَا يَنْتَهِكَهُ عَبْدٌ أَيّاً كَانْ

نَفْتِيسْ: - يَبْدُو أَنَّ السّيدْ شَاوَرْ لَدَيْهِ خِبْرَةٌ واسِعَةٌ بشُؤُونِ الآلِهَةْ كَأَنّهُ كَاهِنٌ مُعْتَزِلْ، فمَاذَا لَدَيْهِ عَنْ رَبَّةِ مِصْرَ الجَدِيدَة؟

شَاوَرْ: - قَدْ تَحَيَّرَ الكَهَنَةُ بَيْنَ زَوجَاتِ فِرْعَوْنَ مِنْ جِهَةْ، وبَيْنَ الشّرِيفَتَيْنِ دَلّوكَا ومِيرِيتْ نِيتْ مِنْ جِهَةْ، لَكِنَّ مِيرِيتْ قَدْ اسْتَعْفَتْ نَفسَهَا بإصْرَارْ، وبَقِيَ الخَيَارُ بَينَ أَمْرَيْنْ

هِنْهِنْت - إذَنْ فَزَوْجَاتُ فرْعَوْنَ كَانَ مِنْ بَيْنِهِنَّ مَنْ هِيَ أَوْلَى

شَاوَرْ: - قَدْ حَسَمَ الأَمْرَ قَائِدُ الحَامِيَةِ النّاجِيَةِ بوَجَاهَةِ مَنْطِقِهْ، حِينَ أَلْمَحَ أَنّ كُلَّ نِسَاءِ فِرعَونَ إمَّا سَبَايَا نِلْنَ بِجَمَالِهِنَّ حُظْوَةْ، وإمَّا أَنّهُنّ أُهْدِينَ لَهُ لخَطْبِ وُدَّهْ، ولَا تجْرِي فِي عُرُوقِهِنَّ دِمَاءُ مِصْرَ، أَمَّا عَنْ

المَلِكَةِ تُويَا فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ أَيْنَ اخْتَفَتْ بأَبْنَاءٍ للمَلِكِ لَا يصْلُحُونَ للمُلْك، رُبَّمَا اصْطَحَبَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي نُزْهَتِهِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ مَأْتَماً، أَمَّا عَنْ السّيّدَةِ دَلُوكَا فعَلَاوَةً فَوْقَ حُنْكَتِهَا ومَا أُشِيعَ عَنْ نِسْبَتِهَا إِلَى جُحُوتِي إِلَهُ الحِكْمَةْ، فَهِي مِصْرِيَّةٌ خَالِصَةْ، وقَدْ زَكّى الجَمِيعُ رَأْيَهُ وبَارَكُوهْ .

صَمَتَتْ السَّاحَةُ فَجْأَةً كَأَنَّمَا نُودِيَ لصَلَاةْ، وصَدَحَتْ فِي أَجْوَاءِ سَاحَةِ مَمْفِيسَ الأَبْوَاقُ تُعْلِنُ وُصُولَ مَوْكِبِ المَلِكَةْ .

تَحَفّزَ الجَمِيعُ فِي تَرَقُّبٍ وفُضُولْ، وتَهَادَى المَوْكِبُ بَيْنَ خَطْوِ دَلِيفٍ وبَيْنَ خَطَرَانْ[1] (١)، حَتّى وَصَلَ إِلَى دَرَجٍ دَائِرِيٍّ مِنَ البَازِلتْ، قَدْ تَوَسَّطَهُ نُصُبٌ عِمْلَاقٌ "لآمُونْ رَعْ "، وقَدْ نُحِتَ مَا بَيْنَ قَدَمَيْهِ قَبْوَاً ظَلِيلَاً لعَرْشٍ مِنَ الأَبَنُوسْ، يَعْتَلِيهِ "بِرْعَا" فِي مَرَاسِمِ التَّتْوِيجِ وأَيَّامِ الأَعْيَادْ، كَانَ المَوْكِبُ فَقِيرَاً بَكُلِّ مَظَاهِرِهْ، وخَالٍ مِنْ بَذَخٍ يُؤَصّلُ لجَدَارِ الرّهْبَةِ مَا بَيْنَ حَاكِمٍ مِنْ نَسْلِ الآلِهَةِ ومَا بَيْنَ عَابِدِيهْ، وظَهَرَ رَهْطُ كَهَنَةِ آمُونُ وقَدْ تَقَدّمُوا المَوكِبَ خُشَّعَاَ واصْطَفُّوا يَمِينَ التَمْثَالْ، فِي حِينِ اصْطَفّتْ طَوَابِيرٌ مَنْ ثَكَالَى ألأَشْرَافِ عَنْ شِمَالِهْ، وتَقَدّمَ المَوْكِبُ حَتّى إِذَا مَا وصَلَ مُسْتَقَرَّهُ حَطّتْ المَحَفَّةُ بَينَ قَدَمَيِ" آمُونَ "الهَائِلَتَيْنْ، ونَزَلَتْ مِنْهَا إِمْرَاةٌ فَانِيَةْ، كَأَنّمَا نَسِيَهَا" آمُونْ رَعْ" أَوْ أَنَّهُ قَدْ ادّخَرَهَا عَامِداً لِيَوْمِ مصْرَ هَذَا الأَلِيمْ، وبَدَتْ تُغَازِلُهَا العَافِيَةُ مُضْطَرّةٌ لَمَّا رَأتْ إِحْبَاطَ الأَيَامِ مِنْ أَنْ تَنَالَ مِنْ جَسَدِهَا النّحَاسِيِّ الرَّشِيقْ، وغَزَتْ عَلَى تَخَوُّفٍ واسْتِحْيَاءٍ القَلِيلُ مَنْ التَجَاعِيدِ الأَوَّلِيّةِ مَا حَولَ عَيْنَيْهَا العَمِيقَتَيْن .

أَعْطَتْ "دَلُّوكَا "العَرْشَ ظَهْرَهَا كَأَنّمَا تَمَرَّسَتْ عَلَى المُلْكْ، وبَلَّشَتْ تُلَوِّحُ بِيُمْنَاهَا للحُشُودِ فَاسْتَقَامَتْ مِنْ رُكُوعْ، وجَلَسَتْ بوَقَارٍ يَلِيقُ بعَظَمَةِ "بِرْعَا"، فوَقَعَتْ بالنفُوسِ رَهْبَةٌ وحُبٌّ فِي آنْ .

---

[1] نوع من المشي

وَ تَقَدَّمَ "مِنْكَاو" فِي تُؤَدَةٍ مُخَاطِبَاً الشَعْبَ:

- (بِسْمِ الحُزْنِ فِي رِحَابِ تَالِدَةِ المَجْد، بِسْمِ مُصَابٍ مَا شَهِدَتْ رُبُوعُ النِّيلِ قَبْلَهُ مِنْ مُصَابْ، وبِسْمِ خَوْفٍ لَا مَرَدَّ لَهُ غَيْرُ وَلَاءٍ لِهَذِهِ الأَرْض، هَكَذَا شَاءَ آمُونْ رَعْ أَنْ يَطْرَدَ مُوسَى وشَعْبَهْ وقَدْ كَادَ يُبَدِّلُ دِينَكُمْ، إقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ الإلَهِيّةُ أَنْ يُضَحِّيَ بابْنِهِ كَيْ لَا تَعُودَ لإسْرَائِيلَ هُنَا بَعْرَةٌ بأَرْضِهِ، وهَا هِي ابْنَةُ جُحُوتِي[1] اخْتَارَهَا لَكُمْ خَلَفَا، يُحِلُّ بِهَا عَلَى الوَادِي بَرَكَتَهْ، ويُقِيمُ لَكُمْ بَهَا مَجْدَاً طَالَمَا رَأَى مِنْكُمُ إيمَانَاً بِهْ، وفِرَارَاً إلَى ذَاتِهِ المَعْبُودَةْ، فَلَا يُدَاخِلَنّكُمْ فِي حِكْمَتِهِ شَكٌ وامْضُوا عَلَى يقِينٍ قَدْ مَاتَ عَلَيهِ رَجُلٌ مِنْ كُلِ دَارٍ فِيكُمْ، ولْيَعْلُو آمُونْ رَعْ رَبُّ مِصْرَ العُلْيَا والسُّفْلَى).

فهَدَرَ الشّعْبْ تَأَثُّرَاً هَاتِفَاً بحَمَاسْ: المَجْدُ لآمُونْ رَعْ .. المَجْدُ لآمُونْ رَعْ

وَسَطَ هَدِيرٍ لَاقَى مِنْهُ اسْتِحْسَانَاً، وأَوْقَعَ فِي نفْسِهِ عُجْبَاً مِنْ بَرَاعَتِهْ، واتَّجَهَ الكَاهِنُ الدَّاهِيَةُ صَوْبَ "دَلُوكَا" يتْبَعُهُ ظِلُّهُ "سُوفْخَاتِب" وهُوَ يَحْمِلُ نُمْرُقَةً فَوْقَهَا تَاجَيْ مِصْرَ الأَبْيضَ والأَحْمَرْ، فَجَمَعَهُمَا فَوْقَ رَأْسِ دَلُّوكَا بشَعْرِهَا المُسْتَعَارْ، وإيذَانَاً بِابْتِدَاءِ عَهْدٍ جَدِيدٍ مِنْ مُلْكِ مِصْرَ الخَالِدَةْ، مَدَّ يُمْنَاهُ إلَيْهَا وهُوَ يَطَا مِنْ رَأْسِهِ إجْلَالَاً، فَوَضَعَتْ فِي وَقَارٍ بَاطِنَ يُسْرَاهَا عَلَى ظَاهِرِ يُمْنَاهُ ورَاحَ يَطُوفُ بِهَا فِي دَائِرَةٍ حَوْلَ تَمْثَالِ آمُونْ رَعْ النَّاظِرِ فِي سَمْتِ الآلِهَةِ لِلَّاشَيءْ، يَغْمُرُهُمَا هُتَافُ الجَمَاهِيرْ، ثُمَّ عَادَ بالمَلِكَةِ قَانِعَاً بِمَا أَلْقَاهُ فِي رَوْعِ الشَّعْبْ، مُسَتَعِيدَاً إيمَانَهُمْ الّذِي تَزَعْزَعْ، وسَارَ بالمَلِكَةِ فأَرْكَبَهَا المَحَفَّةَ المَلَكِيَّةْ، فَحَمَلَتْهَا إلَى القَصْر الفِرعَونِيّ تَشُقُّ عُبَابَ الغَوْغَاءِ فِي عَظَمَةِ المُلْك، ومِنْ ورَائِهَا طَابُورٌ مِنْ هَوَادِجِ الأَشْرَافِ بَينَ هُتَافَاتٍ لمْ تَفْتُرْ بحَيَاةِ "البِرعَا" الجَدِيدَةْ، ورَاحَ المَوْكِبُ يَغِيبُ شَيْئَاً فَشَيْئَا، حَتّى اخْتَفَى عَنْ جُمُوعِ المُؤمِنِينَ الهَادِرَةْ! .

[1] إلهة الحكمة عند المصريين

رَجَعَتْ "مِيرِتْ نِيتُ" إِلَى قَصْرِهَا فَوْرَ انْفِضَاضِ المَرَاسِمِ عَلَى عَجَلْ، إِنَّ هَذَا الوَقْتُ مِنْ شَهْرِ مِسْرَى[1] مُرْهِقٌ جِدَّاً لسَيّدَةٍ لَمْ تَعْتَدْ مِنْ دُنْيَاهَا إِلَّا نَضْرَةِ النَعِيمْ، قَدْ نَالَتْ مِنْهَا الشَمْسُ وأَعْيَاهَا الهَجِيرْ، كَانَ حَمَّامُهَا قَدْ أُعِدَّ سَلَفَاً غَيْرَ أَنَّهَا قَصَدَتْ مِنْ فَوْرِهَا بَابَاً خَلْفِيَّاً للقَصْرْ، فَاسْتَبَقَتْ "تَاوْسِرْتُ" البَابَ تَفْتَحُهُ لسَيّدَتِهَا فِي أَدَبٍ جَمّ، وقَدْ انْفَتَحَ البَابُ عَلَى حَدِيقَةٍ وَاسِعَةْ، يَحُوطُهَا سُورٌ مِنْ حِجَارَةٍ مُعَشّقَةٍ بِلَا تَنْمِيقٍ عَنْ قَصْدٍ مِنْ بَنَّاءٍ عَبْقَرِيّ، فبَدَا السُّورُ كَوَجْنَةٍ مِنْ الطّبِيعَةِ قَرَصَتْهُ بِنَفْسِهَا، وقَدْ تَسَلَّقَتْهُ مُتَشَعْلِقَاتٌ ذَاتُ زَهْرَاتٍ مُخْتَلِفَةٌ أَلْوَانُهَا، تَدَخَّلَ بَيْنَهَا اليَاسَمِينُ بِرِفْقٍ فِي نِقَاشٍ دَائِرٍ مَا بَيْنَ القُرمُزِيِّ وبَيْنَ الفِيرُوزِيِّ، فَتَسْمَعُ الأَعْيُنُ هَذَا الحِوَارَ فَوْقَ سُورٍ سَعِيدْ، كَمَا يزْحَفُ مِنْ حَولِ السُّورِ بِكَامِلِهِ مُجْتَمَعُ مِنْ نَبَاتِ الشِّيحِ والسَّنْطِ كَحَارِسَيْنِ طَبِيعِيَّيْنِ إِتِّقَاءً ودَفْعَاً لحَيَّاتِ الكُوبْرَا المِصْرِيَّةِ المُقَدَّسَةْ، ووَقَفَتْ تتَشَامَخُ عَجُوزٌ مِنَ جِمِّيزَاتِ النِّيلِ بِمُنْتَصَفِ الحَدِيقَةْ، فَكَانَ مِنْهَا أَنْ أَوْحَتْ إِلَى المِعْمَارِيِّ اخْتِيَارَ مَوْضَعَ البِرْكَةْ، فَالتَفّهَا بالمَاءِ فِي دَائِرَةٍ مِنْ فِضَّةٍ كَأَنَّهَا كَعْبَتُهْ، وأَخَذَتْ البِرْكَةُ مَاءَهَا عَبْرَ أُنْبُوبٍ مِنَ فَمِ النِّيلْ، ثُمَّ تُسْلِمُ مَا زَادَ عَنْهَا إِلَى تِلْعَةٍ تُعِيدُهُ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى حَيْثُ أَتَى، يَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا سَمَكُ الكَرْكُورُ والبَيَاضُ وأَنْواعٌ شَتَّى مِنَ البُلْطِي، فَتُلْقِي الجِمِيزَةُ إِلى أَسْرَابِهَا مَا طَابَ مِنْ ثِمَارٍ فِي لفْتَةِ عَطْفٍ ورِضَى، فَبَاتَتْ البِرْكَةُ بُوغَازَاً رَشِيقَاً للعَومِ وللصَّيدِ مَعَاً .

دَلَفَتْ "مِيرِي" فَي إِعْيَاءِ المَحْرُورِ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى شَفَا المَاءْ، فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا "تَاوْسِرتُ" تَفُكُّ عَنْهَا أَزْرَارَ ثَوْبِهَا الحَرِيرِي الشّفّافْ، فَسَقَطَ عِنْدَ قَدَمَيْهَا عَنْ كَالْصُونٍ حَرِيرٍ يَحْتضُنُهَا مِنْ نَهْدَيْهَا وإِلَى الكَعْبَيْنِ، طَفِقَتْ تَنْزَعُهُ عَنْهَا عَلَى غَيْرِ رِضَىً مِنْهُ فِي مَشَقَّةٍ حَتَّى نَضَتْه، فَوضَعَتْ إِنَاثٌ

[1] شهر من الشهور القبطية

جَمَّةٌ مِنَ العَصَافِيرِ أجْنِحَتَهَا فَوْرَاً فَوْقَ أعْيُنِ الذُّكْرَانِ مِنْهَا، بَيْنَمَا بَلَّشَتْ تَفْرُكُ أكُفَّهَا الأَسْمَاكُ كُلّمَا أطْعَمَتْ "مِيرِيتْ نِيتُ" البِرْكَةَ صِنْفَاً شَهِيَّاً مِنْ لَدَائِنِهَا، أَخِيرَاً فَازَ المَاءُ بوَلِيمَتِهُ غَيْرِ مَنْقُوصَةْ، فَأَخْرِجَتْ رَأسَهَا ثُمَّ رَاحَتْ تَسبَحُ فَرَاشَةً فِي دَوْرَةٍ كَامِلَةْ، ثُمَّ انْتَهَتْ إلَى مِقْعَدٍ حجَرِيّ مَحْظُوظْ، فَجَلَسَتْ يَشْتَمِلُهَا المَاءُ حَتّى العُنُقْ، بَيْنَمَا تَلْحَسُ الأسْمَاكُ مِنْ حَولِهَا النّعْمَةْ .

شَارِدَةً فِي آخِرِ مَا دَارَ بَيْنَهَا وبَينَ "سِنِفرُو" مِنْ حَدِيثْ، وكَيْفَ لَمْ تَنَمْ لَيْلَتَهَا بَعْدَ أَنْ مَضَى تَارِكَاً ألْفَ خِنْجَرٍ يَطْعَنُ فِي ضَمِيرِهَا، وكَيفَ كَانَ سَبَبَاً فِي إصْرَارِهَا عَلَى العُزُوفِ عَنْ عَرْشِ مِصْر، أتُرَاهَا خَسِرَتْ عَرْشَاً لِمُجَرَّدِ شَكٍّ أثَارَهُ ومَضَى، ومِنْ دُونَ أنْ تَفْهَمَ كَيفَ تُعَالِجُ قَلْبَهَا نَحْوَ اليَقِينْ، أكُانَتْ زَوجُ فِرْعَونَ عَلَى حَقٍّ!، كَمْ وَدَّتْ الآنَ لَوْ سَأَلَتْهَا عَنْ عُيُوبِ الآلِهَةِ حَتَّى عَافَتْ عِشْرَتَهْ، ولكَمْ وَدّتْ لَوْ سْألَتْ جَوَارِيهْ، عَمَّا يَمْتَازُ بِهِ الإلَهُ فِي الفِرَاشِ عَنْ رَجُلٍ عَادِيٍّ، هَلْ يُزَلزِلُهُ السّعَالُ وهَل تُثِيرُ اشْمَئْزَازَهُنَّ نُخَامَتُهُ؟

لأَوّلِ مَرَّةٍ تَتَطَرَّقُ إلَى ذِهْنِهَا فِكْرَةُ إلَهٍ يَفْسُو! أوْ يّرْغِمَهُ المِرْحَاضُ أَنْ يَخْلَعَ كِبْرِيَاءَهُ عَلَى بَابِهْ، أَوَ يُغْرِهِ قَدٌّ لارْتِكَابِ الجِنْس! .. يَعّ يَعْ .. فَتَطِنْ كَأجْرَاسِ اللّطِيمَةِ كَلِمَاتُهْ ..

(إلَهٌ ومَطِيَّتُهُ يَمُوتَانِ أمَامَ عَيْنَيكِ فيَصْرُخُ الجَوَادُ مَرَّةً، ويَصْرُخُ الإلَهُ ألْفَ مَرَّةْ، إلَهٌ يَتَّقِي بِيَدٍ بَطْشَاً، وبِالأُخْرَى يَأْخُذُ بثَوْبِ عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِهِ يَسْتَصْرِخُهْ، مَاذَا تَفْعَلُ مَوْلَاتِي لَوْ عَايَنَتْ هَذَا بِنَفْسِهَا؟)

يَا لَهَا مِنْ مَقُولَةٍ أنْبَتَتْ فِي قَلْبِهَا غَابَةً مَنْ أشْجَارِ الشَّوْك، قَدْ ألْقَاهَا ومَضَى وَاثِقَاً مِنْ إيمَانِهْ، إنَّهَا لَتَقِفُ اليَوْمَ فِي زُمْرَةِ الوَاقِفِينَ لَتَتْوِيجِ رَبَّةٍ للشَّعْبْ، سَاخِرَةً مِمَّا يقُولُهُ "مِنْكَاو" (وهَا هِيَ ابْنَةُ جُحُوتِي اخْتَارَهَا لَكُمْ خَلَفَاً يُحِلُّ بِهَا عَلَى الوادِي بَرَكَتَهْ، ويُقِيمُ لَكُمْ بَهَا مَجْدَاً طَالَمَا رَأَى مِنْكُمُ

إيمَانَاً بِهْ، وفِرَارَاً إِلَى ذَاتِهِ المَعْبُودَةْ)، نَاظِرَةً فِي ارْتِيَابٍ إِلَى "دَلُّوكَا"وَ مُتَسَائِلَةً مَتَى أَنْجَبَهَا تُحُوتْ؟

ومَاذَا لَوْ أَنَّكِ يَا مِيرِيتْ قَدْ قَبِلْتِ العَرْشَ !

أكَانَ تُحُوتُ مْانِحُكِ أبُوَّتَهْ؟، إيهٍ يَا سِنِفرُو لَكَمْ أَثَرْتَ بِي مِنْ شُكُوكْ، وتَذَكّرْتْ حِينَ لَمَحَتْهُ مِنْ بَعِيدٍ يُفَتِّشُ فِي وجُوهِ النِّسْوَةِ عَنْ "مَاعِتِهْ"، وكَيْفَ احْتَالَتْ أنْ تَكْتُمَ غَضَبَهَا الّذِي أنْكَرَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، مَا خَطْبُكِ يا مِيرِتْ ومَا سِرُّ غَضَبُكْ، لَا يَقتَصِرُ الأَمْرُ إذَنْ عَلَى مَا أثَارَهُ فِي عَقْلِكِ مِنْ شُكُوكْ، فَعَوَّلْتِ عَلَيهِ فِي أَنْ تَحْسِمِي أَمْرَكِ إمَّا إيمَانَاً وإمَّا كُفْرَا .

الغَضَبُ شَأْنُ القَلْبِ يَا مِيرِيتْ، أَلَمْ تَنْسَيْ حُزْنَكِ لِوَهْلَةٍ لَحْظَةَ رَأَيْتِهِ بَيْنَ يَدَيْ حَارِسَيْكِ؟، ومَا شَأْنُكِ حِينَ ألحَحْتِ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودْ؟، مَا السِرُّ وَرَاءَ حُبُورٍ يعْتَرِيكِ لاخْتِفَاءِ مَاعِتْ، وزَادَ مِنْ حُبُورُكِ مِا رَأَيْتِ مِنْ حَيْرَتِهِ اليَوْمَ فِي الوُجُوهِ رَغْمَ شَفَقَةٍ قَدْ وَخَزَتْ قَلْبَكِ لأَجْلِهْ، تَمَطّتْ فِي نَشْوَةٍ كَأنّمَا أنْفَاسُ حَبِيبٍ دَاعَبَتْ جِيدَهَا فَجْأَةْ، فَانزَلَقَتْ الهُوَيْنَى حَتّى غَابَتْ فِي تَنْهِيدَةٍ تحْتَ المَاءِ خَجْلَى مِنْ خَاطِرٍ مُشْتَهَى .

كَانَتْ "تَاوْسِرْت" قَدْ عَادَتْ لتَوِّهَا بِمَنَاشِفٍ للسَّيِّدَةِ الّتِي بَدَأتْ تَرْتَقِي سُلَّمَ البِرْكَةِ بتَرَوٍ وبكَسَلِ المُنْفَضّةِ مِنْ لَيْلَةِ حُبٌّ، فَشَتَمَتْهَا مُجَدَّداً إنَاثُ الطّيْرِ بِحُنْقٍ هَذِهِ المَرَّةَ، وهِيَ مَاضِيَةٌ صَوْبَ مَخْدَعِهَا كَيْ تُتَمِّمَ زِينَتَهَا لحَادِثٍ سعِيدٍ مُرْتَقَبْ .

جَلَسَ "سِنِفرُو" يُغَالِبُ شَوْقَهْ، أيُعْطِي "مِيرِيتْ نِيتَ "وَقْتَهَا للرّاحَةِ مِنْ نَارِ الهَاجِرَةِ المُسْتَعِرِ أَمْ يُطِيعُ فُضُولَهُ، إنَّهَا النَّارُ الَّتِي تَأْكُلُ كَبِدَهُ وتُشَظّيهِ نِثَارَاتْ، كَمْ مِنْ أَمْرٍ لَهُ نَارُهُ فِي قَلْبٍ وَاهِنٍ وَحِيدْ، هَمُّ" مَاعِتَ" الّتِي مَضَتْ ظَانَّةً فِي هَلَاكِكَ آيِسَةً مِنْ كُلِّ أَمَلْ !، هَمُّ "أُوسِرْ وتُويَا" المِسْكِينَانِ بِلَا حِيلَةٍ هَمَّاً مُضَافَاً فَوْقَ رَأسِكْ،

وَهَمُّ "مُوسَاكَ "الّذِي تَرَكَكَ دُونَ عِلْمٍ مِنْهُ بِإيمَانِكَ ومَضَى، يَا هَذَا القَلْبُ المَنْكُوبْ، أَمَا لمُعْضِلَةٍ مِنْ تِلْكَ تُبَشَّرُ بانْفَرَاجَةٍ تُعِينُكَ عَلَى بَقِيَتِهَا؟

لَمْ يَقْوَ عَلَى تَحَمُّلِ هَذِهِ الوَسَاوِسِ الّتِي تَنْقُبُ رَأسَهُ كُلَّمَا اخْتَلَى بِنَفْسِهْ، فَأخَذَ طَرِيقَهُ فِي اتّجَاهِ القَصْرِ جَادّاً يَحْدُوهُ الأَمَلْ، فَأَرْخَى لجَوَادِهِ عَنَانَهُ يرْتَعِي مِنْ عُشْبٍ يتَزَاحَمُ فَوْقَ تُرْعَةٍ تَمُرُّ بالمَكَانْ، وقَصَدَ نَحْوَ الدَّاخِلْ، البَهْوُ عَلَى عَهْدِهِ بِهِ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ تَنْمِيقِهِ سُوَى غِيَابُ "مِيرِيتْ نِيتْ"، يَا إلَهِيَ الحَقَّ عَلّهُ مَا يُطَمْئِنُ عَنْ مَاعِتْ !، لَمْ يَطُلْ انْتِظَارُهُ حَتَّى لَمَحَهَا قَادِمَةً مِنْ بَعِيدٍ غَزَالَةً يَسْبِقُهَا شَذَا الصَّنْدَلُ الأَخَّاذْ، خَفِيفَةً كَأَنَّمَا تَنْحَدِرُ مِنْ عَلٍ عَلَى خِلَافِ مِشْيَتِهَا الوَقُورَةْ، وفِي ثَوْبٍ أسْوَدٍ شّفّافْ، تَخْطُرُ كَيَاسَمِينَةٍ نَاصِعَةٍ تُطِلُّ مِنْ فَمِ مِزْهَرِيَّةٍ جِرَانِيتٍ حَالِكْ، إنْحَنَى تَحِيَّةً كالعَادَةِ لَكِنّهَا نَهَتْهُ بِإشَارَةٍ مِنْ يَدِهَا، ونَدَّ عَنْهَا " لَا " عَفَوِيَّةً مَكْتُومَةْ، وفِي تَلَعْثُمِ الخَجْلَى لَاحَ مِنْهَا اهتِمَامَاً لَا يَخْفَى عَلَى مِثْلِهْ وقَالَتْ

- أَمَا مِنْ جَدِيدٍ عَنْ مَاعِتْ العَزِيزَةْ؟

فحَلَّ فِي مُحَيّاهُ مَحِلَ الدَّهْشَةِ جَزَعَاً وأرْدَفَ:

- لَا يَا سَيِّدَتِي، كُلُّ هَذَا الضَّنَى بِلَا طَائِلْ، قَدْ إسْتَبْشَرْتُ برِسَالَتِكِ

وشَاغَلَنِي الأَمَلْ، " إذَنْ لَيْتَهُ مَا غَزَا كَامُوسُ "، كُلَّمَا مَرَّتْ الأَيَّامُ أَمْعَنَتْ مَاعِتُ فِي ضَلَالِهَا والخَوْفْ، ورَجَعْتُ خَاوِيَ اليَدِ مَقْتُولَاً كُلَّ مَرَّة

- مَا وَقَعْتُ لهَا عَلَى خَبَرٍ أيضَاً لِلْأَسَفِ يَا عَزِيزِي .

وَلَكِنْ مَا لهَذَا وَحْدَهُ دَعَوْتُكْ، الظّرْفُ لَا يَحْتَمِلُ ومَا أَنْتَ فِيهْ، لَكِنّكَ تَرَكْتَنِي فِي حَيْرَةْ، شُغِلْتُ بمَقُولَتِكَ مِنْ يَوْمَهَا يَا سِنِفرُو وإلَى هَذِهِ السّاعَةْ، أَتَعْرِفُ أَمْرَاً:

هُنَاكَ بَيْنَ قَدَمَيْ آمُونْ، ومِنْكَاوُ يَخْطُبُ إيمَانَ النَّاسِ بِرَبِّهِ هَذَا السّاكِتُ أبَدَاً، تَكَلَّمَ رَبُّ مُوسَى فِي قَلْبِي، عَرِفْتُهُ يَا سِنِفْرُو، وتَذَكّرْتُ كَمْ هُوَ رَحِيمْ،

وكَمْ رَفَعَ مِنْ بَلْوى بِدَعْوَةٍ مِنْ مُوسَى، رَبٌّ مَا تَرَكَ شَعْبَهُ يَا عَزِيزِي لَكِنّنَا نَحْنُ العِمْيَانْ، أَنَا مِثْلُكَ كَفَرْتُ بإلهٍ تَرَكَ شَعْبَهُ للمَوْتِ جُمْلَةْ، عَرِفْتُهُ يَا سِنِفرُو فَدُلّنِي كَيْفَ أعْبُدُهْ

- يَا رَبَّ مُوسَى الحَقّ، يَا لَهَا مِنْ بِشَارَةٍ يَا مَوْلَاتِي، ومَا أعْظَمَهُ مِنْ إلَهٍ حَقٍ يَنْتَقِي أَصْفِيَاءَهْ، هَؤلَاءِ النَّاجِينَ يَا مَوْلَاتِي مَنْ مِنْهُمْ حَدّثَتْهُ نَفسُهُ مِثْلَكِ عَنْ عَظِمَةِ مَا رَأَى؟، عُدْتُّ أتحَسّسُ الوُجُوهَ عَسَايَ أظْفَرُ بِسِحْنَةٍ أرّقَهَا الشَكُّ بِلَا طَائِلْ، ولَسْتُ أدْرِي أمِنْ خَوْفٍ قَدْ أمْعَنُوا فِي الحَيطَةِ أمْ هِيَ قَسْوَةٌ القُلُوبْ، وَحْدِي مَنْ عُادَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ وجَهْلَهْ، تَيَّاهَاً بِمَعْرِفَتِي بِمَنْ أعْبُدْ، وشَقِيّاً بجَهْلِي كَيفَ أعْبُدُ، الآنَ يَا سَيِّدَتِي بإيمَانِكِ اشْتَدَّ سَاعِدِي، وازْدَدْتُّ عَزَمَاً عَلَى مَا انْتَوَيْتُهْ

- ومَا هِيَ نِيَّةُ سِنِفْرُو يَا تُرَى، عسَاهَا تُوَافِقُ مُرَادَ مِيرِيتْ نِيتْ؟

- خَرَجَ سِنِفْرُو مِنْ جَسَدِهِ يَا مَوْلَاتِي !، يَرَغِبُ بِنَفْسِهِ عَنْ هَذِهِ الأَرْضِ التِّي أخْرَجَتْ مُؤْمِنِيهَا غَثَّهُمْ بِسَمِينِهِمْ، انْتَوَى خُرُوجَاً خَلْفَ نَبِيِّهِ حَيْثُ كَانْ، وكَمَا رَأَتْ مَوْلَاتِي كَيْفَ اسْتَخَفَّ مِنْكَاوُ النّاسْ، هَذَا شّعْبُ لَا يَزِيدُ عَنْ كَوْنِهِ أُذُنَاً يَا مَوْلَاتِي، تَسُوقُهُ خُرَافَةٌ ولَا تُغْرِيهِ بَيِّنَةْ

- ومَنْ يَبْقَى لمُؤْمَنَةٍ كَمِيرِيتْ يَا سِنِفْرُو؟

أَتَدْرِي؟، مُوقِنٌ وَاحِدٌ وَحِيدٌ قَدْ يَكُونُ سَفِيرَاً عَنْ نَبِيِّهِ ،الآنَ يَعْلَمُ النَّاسُ أنَّ جَيْشَاً هَلَكْ، مُجَرَّدْ هَزِيمَةٍ عَادِيَّةٍ تَقَرُّ فِي الأذْهَانْ، أمّا أنْ يَرْوِيهَا شَاهِدٌ عَادَ مُسْلِمَاً ومُسْتَسْلِمَاً، فَسَيَرَى كُلُّ رَشِيدٍ الآيَةْ فِي عَينَيكَ يَا سِنِفْرُو مَنْ يَدْرِي؟ لعَلّكَ رَسُولُ الرّسُولُ يَا فَتَى، أَلَّا تَهْجُرَ دَعْوَتَهُ أرْضَ كِيمِيتَ المُقَدّسَةْ

- أَنَدْعُوَ النّاسَ لِمَا لَمْ نُحِطْ بِهِ عِلْمَاً يَا مَوْلَاتِي؟!

- يَكْفِي أَنْ يَعْرِفُوا إلَهَهُمْ الحَقُّ كَمَا عَرِفْنَاهُ، أهُنَاكَ أعْظَمُ مِنْ أنْ تَنْصَرِفَ القُلُوبُ عَنْ بَاطِلٍ إلَى حَقٍّ مُطْلَقٍ لَا يُضَيِّعُ مَن وَالَاهُ؟، إلَهٌ هَذَا فِعْلُهُ أتُرَاهُ يَجْهَلُ مَنْ آمَنَ بِهْ، وبِأَيِّ أَرضٍ كَانْ؟

هُو يعْلَمُ عَنَّا يَا سِنِفْرُو، ومُدَبِّرٌ لَنَا كَمَا كَادَ لإسْرَائِيلْ، لنَعْبُدْهُ في السِّر حَتّى، ولنُنَافِقَ القَوْمَ حَتّى يَبِينَ لَنَا أمْرَ رُشْد، سِنِفْرُو أتَعْلَمْ؟

بَقِيَ أمْرٌ ثَالِثٌ يَا فَتَايَ المُبَارَكْ مِنْ أَسْبَابِ دَعْوَتِي لَكْ برَغْمَ يَقِينِهَا مِيرِيتْ نِيتُ بفَنَائِكَ فِي مَاعِتِ العَزِيزَةْ، وانْتِفَاؤُكَ خَلْفَهَا بَحْثَاً وكَدَّاً، إلّا أنّ مِيرِيتَ أحَبَّتْكْ، مَا بِمَلْكِهَا اخْتَارَ قَلْبُهَا أنْ يَعْشَقَ .. لَكِنَّهَا أَحَبَّتْك، هَا أنَا يَا عَزِيزِي أعْتَرِفْ، لَا يُنْقِصُ مِنِّيَ اعْتِرَافِي، بَلْ وأهَبُكَ نَفْسِي أَمَامَ رَبِّنَا الوَاحِدْ

- سَيّدَتِي مِيرِيتْ نِيتْ، دُرَّةُ أعْيَانِ مَمْفِيسَ بَلْ كِيمِيتَ أجْمَعْ، أيُّ شَرَفٍ تَهَبِينَهُ يَا سَيّدَتِي مَولىً مِنْ مَوَالِيكِ، ورَغْمَ مَا تَعْلَمِينْ مِنْ شَتَاتِ قَلْبِهْ، مثْلُ سَيّدَتِي تَهْوِي إلَيْهَا النُّفُوسْ.

_ مَولَاتِي يَخَافُ سِنفْرُو أَنْ يَحِيفْ، ولَيْسَ مِنْ مُرُوءَةِ الشَّرِيفِ أَنْ يَرْفُضَ قَلْبَاً كَقَلْبِ ميرِيتْ النَّبِيلْ، لمَوْلَاتِي أنْ تَتَحَمَّلَ حُوْبَاً[1] حَتَّى يُعَالجَ الزَّمَنُ شرْخاً بِدَاخِلي

- لِيَكُنْ يَا سِنِفْرُو، لنتَلَمَّسَ الطّرِيقَ مَعَاً ولْتَكُنْ مَشِيئَةُ الرَّبّْ، فَتَحَتْ زِرَاعَيْهَا فِي حَنَانٍ فَدَخَلَ حُضْنِهَا مُتَمَهِّلَاً، كَحَبَّةِ سِدْرٍ تَسْتَكْشِفُ تُرْبَةً غَرِيبَةْ !، بِحُنْكَةٍ مَنَحَتْهُ حُضْنَهَا وَاسِعَاً فِضْفَاضَاً مُسْتَوْعِبَاً أشْوَاكَهُ النّاتِئَةْ، فَآوَى إلَى رُكْنٍ مِنْ دَمْقُسِهَا المَخْزُونْ، طَبَعَتْ فَوقَ رَأسِهِ قُبْلَةً مِنْ سَرْسُوبِهَا البِكْرْ!، ورَاحَتْ تُطْعِمَهُ رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً نَادِرَ اللّبَاءْ .

---

[1] ظلما كبيرا

بَتْخِيكَا

يَصْدُرُ مِنْ أَقَاصِي القَصْرِ الرَّشِيقِ بُكَاءُ الرَّضِيعْ، "نِخْتِنْبُو" البَرِيءُ، يُعْلِنُ عَنْ حَقِيقَةٍ كَالوَهْمِ، هِيَ أَنَّ "سِنِفْرُو" حَقٌّ وَهَذِهِ ثَمَرَتُهْ، بِصُرَاخِهِ النَّاعِمِ مِثْلَ كُلِّ جِرَاءِ الطَبِيعَةِ حِينَ تَنْدَهُ الأُمَّهَاتْ، فَزِعَتْ إِلَيْهِ "مَاعِتُ" الَّتِي لَمْ تَقْوَ أَنْ تُفَارِقَهُ إِلَّا نَائِمَا، فَتُسْعِفُ مِنْ أَشْغَالِهَا كَالرِّيحِ المُبَشِّرَاتِ فتَأْتِيَ بِالخَيْرِ فِي سُرْعَةْ، حَمَلَتْهُ بلَهْفَةِ مَنْ تَحْمِلُ كَنْزَاً نَادِرَ الوُجُودْ، إِنَّهُ تَمِيمَةُ فَتَاهَا وذِكْرَاهُ الوَحِيدَةْ، كَانَتْ كُلَّمَا سَأَلَتْ نَفْسَهَا عَنْ حَقِيقَتِهِ مِنْ حَيَاتِهَا تُسْعِفُهَا قَرْيَةٌ نَائِيَةٌ، فَتَفِيقُ عَلَى نَفْسِهَا فِي دَارٍ غَيْرَ الدَّارْ، وعَلَى وَهَنٍ صَاحَبَ أُنُوثَتَهَا النَّاضِجَةَ، فَأَصَابَ مِنْهَا انْتِفَاخُهَا بِالحمْلِ، وهَا هُوَ "نِخْتِنْبُو" يَصْرُخُ فِي غَيْرِ دَارِ أَبِيهْ، لَكِنَّهُ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَحْضَاً مِنْ خَيَالْ، حَمَلَتْهُ وهِيَ تُلْقِمُهُ ثَدْيَاً فَاضَ رِزْقُهُ مَعَ صُرَاخِ الطِّفْل، وتُجَاوِبُ "هَامِيسَ" المُنْكَبَّةَ عَلَى غَزْلِ كَوْمَةٍ مِنَ الصُّوفِ فِي بُسْتَانِ القَصْرِ قَادِمَةً بِكَنْزِهَا تُلَاعِبُهْ

هَامِيس: - مَا لَهُ الزَّغِيدُ[1] لَا يَكُفُّ عَنْ البَكَاءِ ولَا يَصْرُخُ إِلَّا مَعَ عَمَلْ؟

مَاعِتْ: - شَأْنُهُ مَعَ أُمِّهِ يَا غَيُورَةْ، قُلْ لِخَالَتِكَ أَهُوَ ثَدْيُكَ يَا كُحّةْ[2]؟

هَامِيس: - إِذَنْ فَلْيَتَعَلَّمْ الأَدَبْ، ومَالَتْ عَلَيْهِ ضَاحِكَةً وقَرَصَتْ خَدَّهُ فَانْفَجَرَ بَاكِيَاً مِنْ جَدِيدْ، وتَعْلُواْ مَعَ بُكَائِهِ كَرْكَرَةُ "هَامِيسْ" فِي سَعَادَةْ،

---

[1] رجّ الإناء لإستخراج السمن واستعيرت هنا عن كثرة الرضاعة

[2] لفظ عربي يعني الشيء القذر

رَفَسَتْهَا "مَاعِتُ" وهِي تَضُمُّهُ بِشِدَّةٍ إِلَى صَدْرِهَا ضَاحِكَةً ثُمَّ تَمْتَمَتْ: شَلَّ آمُونُ يَدَيْكِ يَا مُدَهْوَلَةْ[1] قَدْ أَفْزَعْتِ سَيِّدَكْ ! .

وَ عَلَى ذِكْرِ" آمُونَ" انْقَبَضَ صَدْرُهَا فَجْأَةً وتَبَدَّلَ وَجْهُهَا بالحُزْن، فَتَرَكَ الوَلِيدُ ثَدْيَاً قَدْ تَغَيَّرَ طَعْمُهْ، وكَأَنَّهُ مُشَارِكَاً أُمَّهُ الذِّكْرَى ومَا وَقَرَ فِي فُؤَادِهَا اللَّحْظَة، ورَأَتْ هَامِيسُ مِنْهَا عَبُوسَاً فَخَالَتْهَا غَضْبَى مِنْ هَزْرِ لَيْسَ إِلَّا ومُزَاحٍ بَرِيءٍ فَأَرْدَفَتْ:

هُوَ ابْنِي يَا مَاعِت هَلْ أَغْضَبَكِ المُزَاحْ؟

مَاعِتْ: _ أَجُنِنْتِ يَا إِمْرَأَةْ، إِنَّهُ ذِكْرُ آمُونَ مَا يُشِيعُ الأَلَمَ فِي فُؤَادِي، لَمْ أَسُغْ حِكْمَتَهُ للْآنَ يَا هَامِيسْ، أَلَمْ يَكُنْ فِي عِلْمِهِ أَنَّ رُضَّعَاً كَهَذَا يَنْتَظِرُونَ آبَاءً خَرَجُوا فِي سَبِيلِهْ؟، يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ لَا يَرَى ولَا يسْمَعُ وأَنَّهُ يُنَاصِبُ مَاعِتَ الضَّعِيفَةَ العَدَاءْ ،

هَامِيسْ: _ عَلَى حَدِّ قَوْلِكِ يَكُونُ قَدْ نَاصَبَ مِصْرَ بِرُمَّتِهَا العَدَاوَةْ .. ألمْ يُقَدِّرْ لَنَا النَجَاةَ إِلَى هُنَا وَقَدْ كِدْنَا نُتَخَطَّفْ، فَشَمِلَنَا هِنْفَرُ الطَّيِّبُ جَمِيعَاً وسَتَرَ بِهِ خَوْفَنَا .. أَوَ لَيْسَ حُبَّ هِنِفَرْ لَكِ رَغْمَ إِعْرَاضِكِ بِتَقْدِيرٍ مِنْ عَدُوُّكِ آمُونْ؟

مَاعِتْ: _ لَكِنَّهُ إِلَهٌ قَاسٍ يَا هَامِيسْ، مَارَسَ غَضَبَهُ مِنْ دُونَ مُرَاعَاةٍ لمَاعِتِ المِسْكِينَةْ، فَأَخَذَ مِنْهَا الحَبِيبَ وشَرَّدَهَا خَارِجَ مَرْتَعِ صِبَاهَا خَوْفَ الفَضِيحَةِ عَنْ أَهْلِهَا، أَ رَأَيْتِهِ يُشْفِقُ عَلَى أُوسِرْ أَوْ رَحِمَ تُوَيَا وهُمَا المُسِنَّيْنِ وفِي عَوَزٍ لابْنَتِهِمَا ولِرَحْمَتِهِ المُعْرِضَةْ، ثُمَّ يَا أَلَمْ يَحْجُرْنَا هُنَا كَخَلِيعَتَيْنِ أَجْرَبَتَيْنِ بَلَا ذَنْبٍ يَا إِمْرَأَةْ؟ .

[1] المرأة غير المرتبة

يَهْتَزُّ بَابُ الحَدِيقَةِ ويَنْفَتِحُ عَلَى" هِنْفَر" و"سِمِنْدِسْ" عَائِدَيْنِ تَوَّاً بَعَرَبَةٍ مُحَمَّلَةٍ بالحِجَارَةْ، والَّتِي يَصْنَعُ مِنْهَا "هِنْفَرْ" تَمَاثِيلَهُ النَّاطِقَةِ وَقَدْ نَالَ مِنْهُمْ الصَّيْفُ بقَسْوَتِهْ ..

هِنْفَرْ: _ كَيْفَ حَالُ عَزِيزِي نِخْتِنْبُو، أَوْحَشَ هِنْفَرْ كَثِيراً؟

مَاعِتْ: _ بِخَيْرٍ يَا سَيِّدِي ويَشْكُرُ لَكَ وأُمُّهُ حَنَانَكَ وفَضْلَكْ مَا دَامَا

سِمِنْدسْ: _ أَمَا آنَ الأوَانُ فَتَلِينُ مَاعِتُ لرَغْبَةِ هِنْفَر؟، قَرَّرْنَا الزَّوَاجَ أَنَا وهَامِيسُ، ولَمْ يَعُدْ بُدٌّ مِنْ زَوَاجُكِ حَتَّى لَوْ حُجَّةً أَمَامَ النَّاسْ يَا مَاعِتَ العَزِيزَة، إنَّهَا رَغْبَةُ الرَّجُلِ حِمَايَةً لَكِ مِمَّا فَرَرْتِ مِنْهْ، وتَعْلَمِينَ حُبَّ هِنْفَر لَكُمَا، دَعِي جِرَاحَكِ للأَيَّامِ يَا مَاعِتَ ولِصَبْرِ رَجُلٍ مَفْتُونْ، هُوَ العَدْلُ لَا غَيْرَهُ يَا أُخْتِي المَكْلُومَةْ، أَعْطِي للفَرَحِ أَسْبَابَهُ لِأَجْلِ نِخْتِنْبُو لَا مِنْ أجْلِكُمَا ... هَا .. أَلَا يَبْدُو حَدِيثِي حَدِيثَ عَقْلٍ وحِكْمَةٍ يَا مَاعِتَ الحَزِينَةْ؟

هَامِيسْ: _ إنَّهُ عَيْنُ العَقْلِ يَا عَزِيزَتِي، وعَلَى كُلِّ حَالٍ لَنْ تَكُونِي العُمْرَ ضَيْفَةَ المَكَانْ، لَا تَرْغَبِي عَنْ فَضْلِ الرَّجُلِ ولَا عَنْ سِعَةٍ مِنَ العَيشِ ولَا عَنْ رَاعٍ يَعْشَقُ نِخْتِنْبُو كَوَالِدٍ بِحَقْ، كُونِي رَبَّةَ الدَّارِ كَرَامَةً للرَّجُلْ أَرْجُوكِ يَا مَاعِتْ، حَقِّقِي لِي رَجَاءً لِمَرَّةْ .

وَ مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ "هِنْفَر" يُرَاقِبُ الحَدِيثَ عَنْ بُعْدٍ رَغْمَ انْهِمَاكِهِ فِي حَمْلِ الحِجَارَةِ إِلَى مَرْسَمِهْ، ولَاحَظَ لِينَاَ يَنُمُّ لَا عَنْ قَبُولٍ لَكِنْ أَقَلُّهُ عَنْ عَدَمِ رَفْضٍ للفِكْرَةِ تَحْتَ تَأْثِيرِ الإِلْحَاحْ، إنَّهُ عَاشِقٌ عَنْ جَدَارَةْ، مُنْذُ أَنْ وَقَعَتْ عَينَاهُ عَلَى فَرْخَةِ الغَيطِ هَذِهِ المَعْجُونَةِ بالسَّوَادْ، يَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ حُزْنِهَا العَظِيمِ حُبَّاً عَظِيمَاً، لَمْ تَكُنْ مُرُوءَتَهُ لتَسْمَحَ لَهُ أَنْ يُسَاوِمَ قَلْبَ إمْرَأَةٍ لمَعْرُوفٍ أَصَابَتْهُ مِنْ رُجُولَتِهْ، لَكِنَّهُ أَحَبَّ كَنَفَ إمْرَأَةٍ يَعْشَقُهَا ويَكْفِيهِ مِنْهَا أَنْ تَطْمَئِنَّ مَعَهُ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْر .

وَ بَدَتْ "هَامِيسُ" بَيْنَ شِقَّيْ رَحَى، لَيسَ "هِنْفَر" بهَذا الرَّجُلِ الّذِي تَرْفُضُهُ إمْرَأةْ، لَمْ تَكُنْ رِعَايَتَهُ بالمُقْتَصِرَةِ عَلَيْهَا وفَقَطْ لَمَأرَبٍ فِي نَفْسِهِ، إنَّمَا نَالَ مِنْ مُرُوءَتِهِ الجَمِيعْ، لَكِنَّهُ قَلْبُهَا الَّذِي لَا يَرَى مِنْ مُتَعِ الدُّنْيَا ألَّا هَذَا الحَيَّ المَيِّتَ، كَيفَ لشَرِيفَةٍ مِثْلِهَا أَنْ تَمْنَحَ رَجُلاً جَسَدَهَا بِلَا رُوحْ، هِيَ تُشْفِقُ عَلَى نُبْلِهِ مِنْ خِسَّةِ إمْرَأَةٍ لَيسَتْ

"مَاعِتْ"، ولَا تُحِبُّ "مَاعِتُ" أَنْ تَكُونَهَا، إنَّ فِي إمْكَانِهَا أَنْ تُوَافِقَ لَكِنَّهَا لَا تَمْلِكُ أَنْ تَرْفُضْ، خَاصَّةً أنّهُ عَلَى عِلْمٍ بمَا فِي نَفْسِهَا، بالأَخِيرِ قَرَّرَتْ أَنْ تُوَافِقْ، فَلْتَمْنَحْ " هِنفَرْ" سَعَادَةَ قُرْبِهَا لأَنَّهُ يسْتَحِقْ، ولْيَمْنَحْهَا صَبْرَهُ لأَنَّهَا تَسْتَحِقْ .

طَارَ بالسَّعْدِ "سِمِنْدِسُ "نَحْوَ صَاحِبِهْ، ووَسِعَ حُضْنُ "هَامِيسَ" الحَيُّ "مَاعِتَ" كَعَادَتِهِ مَعَهَا وبِكُلِّ مَا تُكِنُّهُ للدُّنْيَا مِنْ عِتَابْ .

وَ مَضَتْ بِهِمْ الأَيَّامُ إلَى طَالِعٍ مجْهُولْ، لَكِنَّهَا بَاتَتْ لَا تَخْشَاهُ مِنْ اليَوْمِ "مَاعِتُ "المُبْتَلَاةْ، حَيَاةٌ مِنْ دِعَةٍ أَحَبَّتْ "مِاعِتُ وُجُودَهُ فِيهَا، وعَشِقَتْ رُجُولَتَهُ وخِصَالَهُ والحَنَانَ الَّذِي رَاحَ يَنْهَلُ مِنْهُ صَغِيرُهَا، ويَنْمُو فِي كَنَفِهِ كَوَلَدٍ أَصِيلٍ مِنْ صُلْبِهِ، تَوَافُقٌ يَلْزَمُ الحَيَاةَ كَيْ تَبْتَسِمْ، لَكِنَّهُ أَبَدَاً مَا حَدَثَ أَنْ تَسَلَّلَ حُبُّه إلَى قَلْبِهَا النَّازِفْ .

وَ مضَتْ الأَعْوَامُ رَتِيبَةً بالجَمِيعِ، يَحْتَالُ كُلٌّ للسَّعَادَةِ الغَائِبَةْ وَسْطَ شَتَّى المُنَغِّصَاتِ والتَّحَدِّيَاتْ، لَا تَنْدَمِلُ جِرَاحُ قَلْبَيْنِ بَيْنَ زِحَامِ تِلْكَ الحَيَوَاتِ فِي قُطْرٍ بَاتَ لِكُلِّ فَرْدٍ فِيهِ مَخَاوِفَهُ مُنْفَرِدَا، وبرَغْمَ ارتِمَاءِ الجَمِيعِ فِي أَحْضَانِ الجَمِيعِ، مِثْلَ أَيِّ مُصِيبَةٍ يَتَآلَفُ النَّاسُ أَثْنَاءَهَا بِ ِلَا سَابِقِ مَعْرِفَةْ، الأَمَانُ مَطْلَبٌ يَضَعُ النُّفُوسَ فِي أَحْجَامِهَا مِنْ دُونِ نَعْرَةٍ كَاذِبَةْ، مَضَتْ حَيَوَاتٌ مُتَجَاوِرَة دُونَ التِقَاءْ، وكَأَنَّ الحَاضِرَ غَيْبَاً فِي آنْ، تَسْلِيمٌ مِنْ قَلْبَيْن، واسْتِسْلَامُ مِنْ قَلْبِ مَاعِت والّتِي آمَنَتْ بِمَوْتِ سِنِفْرُو، بَيْنَمَا لَمْ يَمْتْ رَجَاءَهُ فِيهَا مُطْلَقَا .

سُورُ العَجُوزْ

كَانَتْ أَجْوَاءُ طُوبَةَ تَنْشُرُ بَرْدَهَا القَارِسَ فَوْقَ رُبُوعِ مِصْر، وقَدْ لَاحَتْ "مَمْفِيسُ"خَبِيئَةُ" الضَّبَابْ، كَالّتِي تَلْعَبُ لُعْبَةَ الغُمِّيضَةِ مَعَ شَمْسِ هَذَا الوَقْتِ مِنْ العَامِ الهَزِيلَةْ، مَدِينَةٌ بَارِدَةٌ تُقَرْفِصُ فِي كَسَلٍ وتَنْفُخُ مِنْ زَمْهَرِيرٍ كَفّيْهَا، وكَهْلَةٌ كَمِصْرَ فِي عُمُومِهَا، تَنْتَظِرُ جِيلاً هَزِيلَ العَدَدِ مِنْ صِغَارِهَا لِغَدٍ تُوَزِّعَهُمْ فِيهِ عَلَى مَنَاحِيهَا وشُؤُنِهَا الجَمَّةْ، وبَاتَتْ بِمَا تَيَسَّرَ تُلَبِّي شَهَوَاتِهَا فِي حُدُودِ المُتَاحْ، واقْتَصَرَتْ الأَعْبَاءُ عَلَى المُمْكِنِ مِنْ طَاقَاتِ النِّسَاءِ وجَهْدِ الكُهُولْ، بِدَوْرِهَا مَارَسَتْ إلْحَاحَهَا الحَيَاةُ عَلَى التَّنَاسُلِ بِمَنْأىً عَنْ الفُجُورِ والعَرْبَدَةْ، وكَأنَّ "مِيرِيتْ نِيتُ" قدْ ابْتَدَعَتْ بِدْعَتَهَا الحَسَنَةَ فَأَزَاحَتْ مَا فِي نُفُوسِ النِّسْوَةِ مِنْ أَنَفَةْ، فَرَاحَتْ كُلُّ النِّسَاءِ تُطْلِقْنَ مَا طَابَ لَهُنَّ مِنْ عَبِيدْ، وتَصْطَفِي كُلُّ إمْرَأَةٍ مِنْ عَبِيدِهَا زَوْجَاً كَآلَةٍ للنَّسْلْ، فأطْعَمَتْ النِّسَاءُ شَّبَقَهُنَّ أَطْبَاقَاً رَدِينَةً واشْتَرَطْنَ الطَّاعَةْ، مَاذَا يَرُومُ عَبْدٌ أَكْثَرَ مِنْ أنْ يُبَاحَ لَهُ مَخْدَعَ رَبَّتَهْ، وأَنْ يَقْتَاتَ مِنْ قُوتِهَا وقَدْ كَانَ مُحَرَّمَا، إنَّهَا الضَرُورَةُ الَّتِي رَمْتْهَا الأَقْدَارُ فِي طَالِعِ "كِيمِيتَ "المَجِيدَةْ .

شَرَعَتْ الشّوَارِعُ تَنْفُضُ أَيَادِيهَا مِنَ السَّابِلَةِ لتَنَامَ فِي صَمْتٍ عَلَى عَزِيفِ الرِّيحْ، وحَلَّ الظّلَامُ سَرِيعَاً مِثْلَ غَازٍ يَنْشُرُ جُنْدَاً مِنْ دُكْنَةٍ كَعَارِضٍ يُنْذِرُ بالْمَطَرْ، فلَاحَتْ بَعِيدَاً الحُقُولُ تَرْتَعِدُ كُلّمَا بَصَّتْ نَحْوَ كُوَى البُيُوتِ وهِيَ تَرْقُصُ بالنّارِ مِنْ بَعِيدٍ مِثْلَ أَغْوَالٍ جَائِعَةْ، وقَدْ جَلَسَتْ " دَلُّوكَا " مِنْ فَوْقِ عَرْشِهَا تَحْتَ تَاجِ مِصْرَ فِي جَلَالْ، تتَهَيَّا قَبْلَ أَنْ تَأْمُرَ بِدُخُولِ كِبَارِ الكَهَنَةْ، وفِي شُغُلٍ تُشَاوِرُ فِي شَأْنِهَا شَرِيفَاتِ البَلَاطْ، قَدْ تَيَمَّنَتْهَا

" مِيرِيتْ نِيتْ "، بَينَمَا عَنْ شِمَالِهَا وَقَفَتْ " تَدُّورَةُ " أَمْهَرُ سَاحِرَاتِ مِصْر، إسْتَوَتْ فِي جِلْسَتِهَا وأمَرَتْ بالْكَهَنَةِ فَدَلَفُوا تِبَاعَاً رَاكِعِينَ، تَزَيَّلَ صَفَّهُمْ رَجُلٌ مُنَافٍ مَظْهَرُهُ لسِحْنَةِ الكَهَنَةْ، ومُرَحّبَةً بِهِمْ أوْمَأَتْ "بِرْعَا " فَاسْتَوُوا قَائِمِينْ، وابْتَدَرَ "مِنْكَاوُ" المَلِكَةَ بِدِيبَاجَةٍ مِنَ تَّقْدِيسٍ ومِنْ تَزَلُّفٍ مَعْهُودٍ ثُمّ أَرْدَفَ:

منكاو: _ أوْشَكْنَا نَطْلُبُ المُثُولَ بَيْنَ يَدَيْ جَلَالَتِكُمْ لِأَمْرٍ فَسَبَقَنا إنْعَامُ مَولَاتِي ابْنَةَ جُحُوتِي

برْ عا: _ وطَلَبْنَاكُمْ لأَمْرٍ أَيّهَا المُوَقَّرُ سَادِنَ آمُونْ رَعْ

منكاو: _ طَلَبُ جَلَالَتِكُمْ مُقَدَّمٌ مُوْلَاتِي برْ عَا المُعَظَّمَةْ

بر عا: _ أَتَتْنِي تقَارِيرٌ مِنْ مُهَنْدِسِي البِنَاءْ، تُفِيدُ بِحَاجَتِهِمْ لمَزِيدٍ مِنْ العُمّالِ والحَالُ مَا تَعْلَمُ ونَعْلَمْ، كَيْفَ فِي قِلّةٍ مِنْ سَوَاعِدِ مِصْرَ نُتَمِّمَ سُورَهَا ولَوْ مِنْ حَظِيرْ[1]

منكاو: _ مَلِكَتِي المُعَظَّمَةْ، وهَذَا مَبْعُوثِي إلَى أَرْضِ فَارَانْ .

بر عا: _ أُحَدِّثُكَ فِي شَأْنٍ فَتُجِيبُنِي بَحَدِيثٍ غَيْرِهِ أَيُّهَا المُوَقّرْ!

منكاو: _ هُوَ الأَمْرُ نَفْسُهُ يَا مَوْلَاتِي، كُنْتُ قَدْ ابْتَعَثْتُ هَذَا الكَاهِنَ مِنْ عِدَةِ أَشْهُرٍ طِوَالٍ خَلْفَ إسْرَائِيلَ ليَأْتِينَا بأَخْبَارِهِمْ، ولِكَيْ يَجُسَّ ويَتَحَسَّسُ نِيَّةَ "مُوسَى" تِجَاهَ مِصْر، وهَا قَدْ عَادَ بِمَا يُشِيعُ فِينَا الأَمْنَ يَا مَوْلَاتِي، أَوَ لَيْسَ هَذَا بِعَائِدٍ عَلَى ذَاكَ أَيّتُهَا المَعْبُودَةُ؟، تَقَدَّمْ يَا حُورُ واقْصُصْ عَلَى مَوْلَاتِكَ أَخْبَارَكَ السّارّةْ.

[1] شوك

فخَطَى "حُورُ" بِقَوَامِهِ الجَافّ كَعَيْنٍ للمَعْبَدِ أَلِفَ "آتُونَ "البِيدِ وأَلِفَتْه، وقَدْ أَخَذَ مِنْهُ قَيْظُ الفَيَافِي سِحْنَةَ المِصْرِيّينْ وأَعْطَاهُ لَوناً بَازِلْتِيَّاً قَاسْ، فَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهَا حَتّى أَذِنَتْ لَهُ فَرَفَعَ قَائِلاً:

حُور: _ المَجْدُ لحَاكَمَةِ وَادِي النِّيلِ ورُوحُ تُوحُتْ، مَوْلَاتِي بِرْعَا دَلُّوكَا المَعْبُودَةْ، لِي أَشْهُرٌ فِي أَثَرِ القَوْمِ أَتَحَسَّسُ أَحْوَالَهُمْ، ومَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ بِتَكْلِيفٍ مِنَ الكَاهِنِ الأَعْظَمْ

دلوكا: _ إِذَنْ مَاذَا وَرَاءَكَ يَا حُورْ، فَلتَخْبِرْنَا بحَقِيقَةِ الأَمْرِ وَلَا تُطِلْ

حور: _ عَانَيْتُ الأَمَرَّيْنَ فِي صَحْرَاءِ فَارَانِ القَاحِلَةْ، حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَى وَادٍ فَسِيحٍ قَادَنِي إِلَيهِ رُغَاءٌ وثُغَاءْ، فَيَمَّمْتُ فِي حَذَرٍ أَتَفَادَى حَتَّى عَايَنْتُ إِسْرَائِيلَ فِي أَعَدَادِهِمْ مَا نَقَصَ مِنْهُمْ رَجُلْ، واحْتَلْتُ مَكْمَناً حِيثُ أَرَى ولَا يَرَوْنَ فَرَأَيْتُهُمْ يَا مَولَاتِي فِي أَمْرٍ عُجَابْ، حَيْثُ تَسِيلُ مِنْ أَجْلِهِمْ عُيُونٌ وتَتَهَافَتُ لِمَأْكَلِهِمْ طَيْر،

وَ جُعَّتُهُمُ شَرَابُ العَسَلَ مَا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ يُرْزَقُونَهْ، وفِي رَغَدٍ كَأَنَّ الصَّحَرَاءَ لَهُمْ غُوطَةً مِنَ النَّعِيمْ، فَأَظَلُّ أَحْتَالُ لمَأْكَلِي ومَشْرَبِي إِذَا جَنَّ اللّيلُ مِنْ مَشَارِفِهِمْ، ثُمَّ الُوذُ عَائِذَاً بِمَأْمَنِي حَتَّى أَقِفَ عَلَى خَبَايَا القَوْم .

بر عَا: _ عَدُوٌ هَذَا حَالُهُ مُتَقَلّباً فِي نِعْمَةٍ تُثِيرُ حَسَدَ الحَاسِدِينْ، هلْ تَرَاهَا أَخْبَارَاً سَارَّةْ؟

حور: _ صَبْرَاً مَوْلَاتِي فَهُمْ قَومُ سَوْءٍ فِي مُعْظَمِهِمْ، ومَا هُمْ لهَا مِنَ الشَّاكِرِينْ

بر عا: _ كَيفَ هَذَا يَا حُورْ؟

حور: _ إِسْتَذَلَّ السَّامِرِيُّ مِنْهُمْ طَائِفَةً فَعَبَدُوا ذَهَبَاتِ مِصْرَ فِي هَيْئَةِ عِجْلٍ صَنَعَهُ لَهُمْ، وكَادُوا يَقتُلُونَ هَارُونَ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْه، حَتَّى عَادَ مُوسَى فحَرَّقَهَا، وغَضِبَ عَلَيهِمْ بِضَلَالِهِمْ عَنْ إِلَهِهِ المَزْعُومْ، ثُمَّ مَا لَبِثُوا أَنْ

اعْتَرَاهُمُ بَطَرُ النِّعْمَةْ، لَوْ رَأَيْتِيهِمْ يَا مَوْلَاتِي وهُمْ يَشْتَرِطُونَ عَلَى مُوسَى ورَبَّهُ شُرُوطَاً، لَحَسِبْتِهِمَا نَادِلَيْنِ لَدَى أَنْطَاعِ إسْرَائِيلِ الكُسَالَى، وهَذَا هُو السَّارُ فِي الحِكَايَةِ يَا مَوْلَاتِي، هُم لَيْسُوا سَوَآءً عَلَى أَمْر، ومِمَّا يُزِيدُ مَوْلَاتِي غِبْطَةً وسُرُوراً مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أحَادِيثِهِمْ الأَخِيرَةْ

بر عا: _ قُلْ يَا حُورُ فَمَا عَادَ مِنْ صَبْر

حور: _ هُمْ فِي عُمُومِهِمْ جُبَنَاءُ يَا مَوْلَاتِي، سِمِعْتُ الكَثِيرَ مِنْ نَجْوَى رِجَالَاتِهِمْ أَنّ رَبَّ مُوسَى قَدْ أمَرَهُمْ

بالرَّحِيلْ، أَظُنُّهُمْ أُمِرُوا بِأَرْضِ أبِيهِمْ إِفْرَايِيمَ ويَاكُوبَ فَأَبَوْاْ عَلَيهِ إلَّا بَعْضَهُمْ، لِلْحَرْبِ مَهَابَةٌ فِي نُفُوسِهِمْ أَيُّ مَهَابَةٍ مَوْلَاتِي بِرْعَا المَعْبُودَةْ، وأَعْظَمُ مَا فِي جُعْبَتِي مِنْ خَبَرِ أَنَّهُمْ لَنْ يَعُودُوا إِلَى مَمْفِيسْ، بَعْدَ مَا سَمِعْتُ أَنّ رَبَّهُمْ حَرَمَهُمْ أَرْضَ أَبِيهِمْ أَرْبَعَةَ عُقُودٍ كَامِلَةْ، ولَنْ يَبْرَحُوا مَكَانَهُمْ خِلَالَهَا أَبَدَاً، وَهَذِهِ فُسْحَةٌ مِنْ وَقْتٍ كَافِيَةٌ لِتَتَعَافَى فِيهَا مِصْرُ يَا مَوْلَاتِي

ميري: _ ولِمَ يُطِيعُونَهُ فِي هَذِهِ وقَدْ عَصَوْهُ فِي تِلْكَ يَا حُورُ؟

حور: _ لَيْسَ بِمَلْكِهِمْ يَا مَوْلَاتِي فَإِنَّهُ النِّيهُ أَنْفَذَتْهُ مَشِيئَةُ إِلَاهِ كَمَا سَمِعْت .

تَبَادَلَتْ "بِرْ عَا" النَّظَرَ مَعَ "مِيرِيتْ نِيتْ" و"تَدُّورَةْ " وأَشَاحَتْ نَحْوَ "مِنْكَاوٍ" فِي بِشْرٍ حَذِرْ

بِرْعَا: _ ولَكِنَّهُمْ لَيْسُوا وَحْدَهُمُ العَدُوَّ أَيُّهَا المُوَقّرْ، وعَلَى خِلَافِ مَا تُفَكِّرُ فِيهْ، أَنَا أَرَى فِي ذلِكَ مَا يُعَجِّلُ بِبِنَاءِ السُّورِ العَظِيمِ فِي ظِلِّ حَامِيَةٍ لَا تُغْنِي

مِنْكَاوْ: _ ولَكِنْ يَا مَوْلَاتِي لَا مُؤشّرَاتَ تُنْبِي عَنْ خَطَرٍ مِنْ المَقَدُونِ شَمَالاً وَلَا مِنْ بَابِلٍ أَوْ مِنْ فَارِسٍ بالشَّرْقْ، وهَا أَنْتِ فَوْقَ عَرْشِ مَمْفِيسَ تَعْتَلِينَهُ عَلَى أَنْقَاضِ هَوَارِيسَ[1] الرُّعَاةْ، وقَدْ كُسِرَتْ شَوْكَةُ الهِكْسُوسِ بِلَا رَجْعَةْ، فَمِمَّ تَهَابُ دَلُّوكَا المَعْبُودَةُ؟

تَدُّورَة: _ لَوْ أَذِنَتْ مَولَاتِي ليَطْمَئِنَ قَلْبُ الكَاهِنِ الأَعْظَمْ، أَرَى أَنْ نُبَدِّلَ وَسِيلَةً ونُحَقِّقَ غَايةْ

بِرْ عَا: _ وكَيْفَ نَفْعَلْ؟

إنَّ سُورَاً يُحِيطُ بِمِصْرَ قَاطِبَةً لهُو بالنّذْرِ الهَيِّنْ، لَكِنْ فِي غَيْرِ ظُرُوفٍ كَالّتِي نَحْنُ إزَاءَهَا، قِلّةُ سَوَاعِدٍ لَا تَقْوَى

عَلَى مُنْجَزٍ كَهَذَا، ومَا هُوَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءْ، فَلَوْ اكْتَفَيْنَا بذَرِّ بَرَابِيَّ[2] صَغِيرَةً عَلَى مَسَافَاتٍ مُتَبَاعِدَةْ، يَقُومُ عَلَى كُلٍّ مِنْهَا رَجُلُ مَعَهُ إمْرَأَتَهُ مِنْ أَقْرَبِ مَكَانٍ لكُلِّ طَابِيةْ، ثُمَّ كَرَابِطٍ بَيْنَهَا اسْتَبْدَلْنَا سُورَ الحِجَارَةِ بأَحْبَالٍ ذَاتِ أَجْرَاسٍ تصِلُ حَتَّى مَمْفِيسْ، بهَذَا نُوَفِّرُ مِنْ جَهْدٍ ومِنْ مَسَافَةٍ يَسْتَغْرِقُهَا نَذِيرُ الشُّؤْمِ وأيْضَاً لَمْ نُعَطّلْ النَّسْل بِخُرُوجِ الجُنْدِ عَنْ نِسَائِهِمْ، ثُمَّ هُوَ إيتْرُو عَا[3] المُقَدَّسُ يَمُدُّ أَرْجُلَهُ السَّبْعَةَ فِي كُلِّ صَوْبٍ فَلَا يُبْقِي شُبْهَةً مِنْ ظَمَأْ .

مِنْكَاوْ - وقَدْ تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُهُ للفِكْرَةِ، يَا لَكِ مِنْ إمْرَأَةٍ دَاهِيَةٍ يَا تَدُّورَةْ، إنَّ تَوْفِيرَ وِرْعَانٍ لتَهْيِئَةِ حَامِيَةٍ قَوِيَّةٍ كَانَ شَاغِلِي، لَمْ تَعْدَمْ مِصْرُ سَحَرَتَهَا بِكِ يَا إمْرَأَةْ !

---

[1] العاصمة التي بناها الهكسوس وأقام الرعامسة عليها مدينة رعمسيس

[2] طوابي صغيرة

[3] نهر النيل

مِيريتْ: - حِينَ يَدْخُلُ تَاجِرُ ثِيَابٍ وَاحِدٍ بأَرْضٍ فَقَدْ بَانَتْ لَهُ عَوْرَاتُ أَهْلِهَا، لَنْ يَخْفَى أمْرَنا عَنْ مُتَرَبِّصٍ أَيُّهَا المُوَقّرْ، ومَا أَظُنُّهُ إلَّا طَارَتْ بِهِ الحَمَائِمْ، السُّورُ وَحْدَهُ لَيسَ بِمُغْنٍ عَنَّا يَا مَوْلَاتِي المَلِكَةْ

بِرْ عَا: - صَدَقْتِ مِيرِتَ العَزِيزَةْ، هُنَاكَ تَدْبِيرٌ مَا وقَدْ أذِنْتُ لِتَدُّورَةَ العَلِيمَةَ بِهِ وقَدْ أَتَمَّتْهُ عَنْ جَدَارَةْ، وهَبَّتْ وَاقِفَةً وَهِيَ تُرْدِفُ .. فَلْيَتْبَعُنِي الجَمِيعْ .

مَشَتْ "تَدُّورَةُ" بَينَ يَدَيْهَا تَقُودُ المَلَأَ عَبْرَ أَقْبِيَةٍ تُفْضِي إلَى دَهَالِيزٍ تَشَعَّبُ تَحْتِ القَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ، مِنْهَا مَمَرَّاتٌ تَأخُذُ السَّارِي لِأَمْيَالٍ إلَى خَارِجِهْ، ومِنْهَا الضَّارِبُ فِي أعْمَاقِ الأَرْضْ، وانْتَهَتْ بِهِمْ إلَى غُرَفٍ مُؤْصَدَةْ، وكَأَنَّمَا قَدْ غُلَّتْ بِدَاخِلِهَا الشَّيَاطِينْ .

شَارَتْ المَلِكَةُ بِرَأسِهَا فَانْبَرَتْ "تَدُّورَةُ" تَفْتَحُ مَغَالِيقَهَا تِبَاعَاً فِي ذُهُولِ مِنَ الحَاضِرِينْ، بَدَتْ الغُرُفَاتُ مُزْدَحِمَةٌ بالتَّصَاوِيرِ، شُخُوصٌ تُشبِهُ فِي قَسَمَاتِهَا بَنِي إسْرَائِيلَ فِي خَيُولٍ وبَرذَونَاتٍ[1] لَا تُعَدُّ، وتتَدَلَّى مِنْ سَقْفِ الغُرْفَةِ بخُيُوطٍ، وفِي أُخْرَى مِنْ مَلَامِحِ إسْبَارطَةَ والرُّومَانِ فِي سُفُنٍ ودُرُوعْ، وبِأُخْرَى مَشَارِقَةٌ فِي عتَادٍ وعَجَلَاتْ، ومِنْ كُلِّ عَدُوٍّ شبَهَهُ وعَتَادَهْ، وقَدْ رُصَّتْ مِنْ تَحْتَ الجَمِيعِ خَنَاجِراً ورِمَاحَاً وبَعْضَ المَخَارِيزِ الصَغِيرَةْ، أَخَذَتْ الدَّهْشَةُ مِنْهُمُ الأَلْسِنَةَ حَتَّى تَفَوَّهَ "مِنْكَاوُ"

منكاو - أُعْجُوبَةٌ مَا أَرَاهُ أَيَّتُهَا المَلِكَةْ، لكِنْ مَا نَفْعُ هَذِهِ الأَشْبَاهْ، أَمِنْ وَرَائِهَا حِكْمَة؟

[1] دابة ما بين الحمار والحصان

بِرْعَا: - بالطَّبْعِ أيُّهَا المُعَظَّمْ، وسَكَتَتْ وقْتَاً تُشْعِلُ نَارَ الفُضُولِ فِي القُلُوبِ ثُمَّ قَالَتْ .. تَشْرَحَ لكَمْ تَدُّورَةُ مَا نَفْعُ هَذِهِ التَّعَالِيقِ الّتِي تَبْدُو لُعَبَاً طُفُولِيَّةً لِمَنْ يَرَى

تَدُّوَرَةْ: - إنَّهَا يَا سَادَتِي الأَبَالِسَةُ تَسْكُنُ هَذِهِ العَرَائِسْ، أسْتَطِيعُ بِلَا فَخْرٍ أنْ أقُولَ عَرَائِسِي هَذِهِ جُنُودْ، جُنُودٌ تَخْدِمُ عَنْ مِصْرَ فِي حُرُوبِهَا ضِدَّ مَنْ يَقْرَبُ الحُدُودْ، مَا عَلَى الأجْرَاسِ إلَّا أَنْ تُقْرِعَ، ومَا عَلَيْنَا سوَى العَبَثَ بالأَشْوَاكِ وبالرِّمَاحِ هَذِهِ فِي أبْدَانِ العَرَائِسْ، ويَصِيرُ كُلُّ مَا فَعَلَنَاهُ بِهَا كَائِنَاً بالمُغِيرِ ووَاقِعاً بِهِ، مِنْ ذَبْحٍ، مِنْ تَقْتِيلٍ مِنْ بَتْرٍ، أيّ أيّ شَيءْ، هَذِهِ خُلَاصَةُ سِحْرِي وجَرَّبْتُهَا مِرَارَاً مَا أَخْطَأَتْ مَرَّةْ .

بِرْعَا: - مَا قَوْلُ المُوَقّرِ عَظِيمِ الكَهَنَةِ فِي تَدْبِيرٍ كَهَذَا؟

مِنْكَاو: - رَائِعٌ يَا مَوْلَاتِي لَوْ أَنَّهُ ضَمِنَتْ تَدُّورَةُ مَفْعُولَهُ كَمَا تَقُولْ

مِيرِيتْ: - فَلْتَعْذُرْ مَوْلَاتِي تَخَوُّفَ إمْرَأَةٍ شَفِيقَةٍ بالْبِلَادِ فِي مِحْنَتِهَا، فَمَعَ ثِقَتِي تَمَامَاً بتَعْوِيذَةِ تَدُّورَةِ وبمَهَارَتِهَا، بمَاذَا نَفَعَنَا سِحْرُ السَّحَّارِينَ حِينَ اجْتَمَعُوا صَفَّاً لمُوسَى؟، ومَا هُوَ إلَّا رَجُلَاً وَاحِداً، أَتُفْلِحُ مَاهِرَةٌ وَاحِدَةٌ فِي دَحْرِ جَيْشْ؟، ثِقَتُنَا فِي عَلِيمَةٍ كَتَدُّورَةِ مُطْلَقَةْ، بَيْدَ أَنَّ الأَمْرَ أعْظَمْ، عَفْوَاً بِرْعَا المَعْبُودَةْ، فَنَحْنُ فِي مَقَامِ صِدْقٍ لَا تُصْلِحُ أَمْرَاً فِيهِ المُدَاهَنَةْ .

بِرْ عَا: - تَعْظُمِينَ فِي عَيْنَيَّ دَلُّوكَا بِصَفَاءِ عِشْقِكِ لِمِصْرَ يَا العَزِيزَةَ مِيرِيتْ نِيتْ، إنَّمَا هُوَ تَدْبِيرٌ إلَى جِوَارِ تَدَابِيرْ، هَا نَحْنُ نَتَعَهَّدُ نَاشِئَتَنَا بالمِرَانِ والجُنْدِيَّةِ المُبَكِّرَةْ .. لنَبْتَهِلْ أَنْ يَصْرِفَ آمُونُ عَنَّا الغُزَاةَ أَعْوَامَاً ولَوْ بِضْعَ سِنِينَ عَسَى تَنْضُجَ خِلَالَهَا سَوَاعِدَاً خُضْرَاً مِنْ حُمَاةِ وَادِيهَا المُقَدَّسْ، مَا حِيلَتُنَا مَعَ الزَمَنِ يَا مِيرِيتْ؟، مَنْ بِيَدِهِ إنْضَاجُ الشَّبِيبَةِ غَيْرُ الزَمَنِ أَيُّهَا السَّادَةْ، إنَّهُ قَدَرُكُمْ أنْ تَحْتَالُوا كُلَّ حِيْلَةٍ لِأَمْنِ هَذِهِ البِلَادِ المُقَدّسَةْ، ومَا لَا يَنْفَعُ لَنْ يَضُرَّ يَا مِيرِي العَزِيزَةْ، فَلْيَحْتَلْ كُلُّكُمْ حِيلَتَهُ ولْيَكُنْ آمُونُ مَعَهْ، وعَلَيْهِ ..

أُصْدِرُ أَنَا دَلُّوكَا فرْعَوُنُ كِيمِيتَ ومَا دَانَ لِسُلْطَانِهَا أمْرَاً فِرْعَوْنِيَّاً بإكْمَالِ السُّورِ كَمَا قَرَّ بَعْدَ مُشَاوَرَةْ، وتَبْقَى بَرَابِيَ التَّعَاوِيذِ سِرَّاً بَينَنَا لَا يُفْشِيهِ إلَّا خَائِنْ، وأَنْ يَبْقَى إسْفِينِيسُ عَلَى رَأْسِ حَامِيَةِ مِصْرَ، ومُشْرِفَاً عَلَى تَكْوِينِ الجَيشِ مِنْ جَدِيدْ، لَهُ أَنْ يَنْتَقِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ فِتْيَانِ مُلْكِنَا الوَاسِعْ .

أَطْرَقَ الجَمِيعُ فِي صَمْتِ المُقِرّ، ورَاحَتْ تَعُودُ بِهِمْ تَدُّورَةُ حَيثُ أتَواْ، وتَزْحَفُ مِنْ خَلْفِهِمْ حَنْدُوسَةٌ[1] تَبْتَلِعُ الدَّهَالِيزَ تِبَاعَاً وعَلَى مَهَلْ .

[1] الظلمة الحالكة

التِّيهْ

كَانَ النّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً خَلْفَ "مُوسَى" فِي صَلَاةٍ جَامِعَةْ، يُصَلُّونَ عَلَى جُثْمَانِ "هَارُونَ" الشَّفِيقْ، وعَلَى شَفَا الجُرْفِ العَمِيقِ فِي سُرَّةٍ مِنَ الوَادِي، غَابَ النَّبِيُّ فِي نَشْوَى الدُّعَاءِ لأخِيهِ وقَدْ بَلَلَّتْ الدُّمُوعُ لِحْيَتَهُ الكَثَّةْ، بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إلَّا مِنْ قَهْرِ البَيْنِ مِنْ شَقِيقِهِ ونَصِيفِهِ فِي الرِّسَالَةْ، إنْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهْ، هَبَطَ إلَى القَبْرِ مُحَوْقِلَاً ومُبَسْمِلَاً وهُوَ يُوَسِّدَهُ باتِّجَاهِ جَنَّةٍ تَتُوقُ إلَيْهِ، حَتَّى إذَا مَا اطْمَأَنَّ لنَوْمَتِهِ صَعَدَ لَا يَرَى قُدَّامَهُ مِنْ سَيْلِ عَيْنَيْهِ العَرِمْ، فَانْبَرَتْ المَسَاحِي تُهِيلُ التُّرَابَ عَلَى جُثْمَانِ "هَارُونَ" الطَّاهِرِ بآلِيَّةٍ فِي أَكُفِّ الحَزَانَى، وبَدَأَ النَّاسُ يَتَفَلّتُونَ تِبَاعَاً بَأَسَىً مُنْفَضِّينَ بِرَوِيَّةٍ إلَى دُنْيَاهُمْ، فَخَلَا المَكَانُ إلَّا مِنَ النَّبِيِّ وثُلَّةٍ مِنْ حَوَارِيِّيهِ المُخْلَصِينْ، إنَّ أَشَدَّ مَا يُؤْلِمُ النَّبِيَّ "مُوسَى " هُوَ أَنَّ هَارُونَ مَاتَ دُونَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةْ، تِلْكَ الّتِي بِجُبْنِهِمْ شَعْبُ إسْرَائِيلَ قَدْ حُرِمَهَا لحِينْ، وحُرِمَهَا "هَارُونُ" إلَى الأَبَدْ، فَجَلَسَ يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يُدْنِيهِ مِنْهَا ولَوْ قَلِيلَا، كَانَ يَشْعُرُ بقُوَّةٍ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ المَسْجِدَ حَيَّاً، وكُلَّمَا رَأَى مِنْ شَعْبِهِ هَذَا جُحُوداً واعْرَاضَاً تَمَكَّنَ هَذَا الشُّعُورُ مِنْ قَلْبِهْ، إنَّهُ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ كَرَسُولٍ أَنْ يتَحَمَّلَ هَؤُلَاءِ، كُتِبَ عَلَيْهِ التِّيهَ لَا عَنْ ذَنْب، إنّمَا هِيَ مسْؤُلِيَّةُ المُصْلِحِينَ عِنْدَمَا تَشْمَلُهُمُ عُقُوبَةٌ للنَّاسِ مَثُوبَةٌ لَهُمْ، أَيْقَنَ أَنَّ أَعْبَاءً أَثْقَلَتْ كَاهِلَهُ إنْ لَمْ تُؤْتِ أُكُلَهَا مَعَ ضِعَافِ إيمَانٍ كَهَؤْلَاءْ، فَلَسَوْفَ تُزْهِرُ فِي أَعْقَابِهِمْ، يُدْرِكُ يَقِيناً أَنَّهُمْ جِيلٌ رَخْوٌ مِنْ إسْرَائِيلَ لَمْ يَرَى أَيَّ كَرَامَةٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَعْدِ أبِيهِمَا " يعْقُوبُ " و" يُوسُفُ "، وأَنَّهُ الخَوْفُ قَدْ بَلَغَ مِنْهُمُ مَبْلَغَهْ، عَيْشُ العَبِيدِ فِي طَاعَةٍ كَمْهَاءٍ [1] لسَادَتِهِمْ

[1] الذي وُلد أعمى بلا شحمتيّ عين.

لا يُثْمِرُ قَلْباً حُرّاً غَايَتُهُ الكرَامَةُ والعَدْل، كَيْفَ للعَبِيدِ إدْرَاكُ مُفْتَقَدٍ أَوْ فَهْمِهْ؟، يُدْرِكُ النَّبِيُّ مَغْزَى أَنْ يَكْتُبَ اللهُ التِّيهَ عَلَى قَوْمٍ شَقِيَّهُمْ بِسَعِيدِهِمْ مَعَا، كَيْفَ لَوْ أَطَاعُوهُ طَاعَتَهُمْ لفِرْعَوْنْ، أَكَانُوا يَصْمُدُونَ لعَدُوٍّ، ومِنْ دُونِ إيمَانٍ وبِلَا فَهْمٍ للكُلِّيَّاتِ الّتِي تَصْنَعُ حُرّاً يُقِيمُ دَوْلَةَ اللهِ؟، إنَّهَ الأَمَلُ فِي الذَّرَارِي الّتِي مَا

تَشَرَّبَتْ ذُلَّ خُضُوعٍ لطَاغِيَةْ، ولَا يَوْمَاً اسْتَذَلّ نُفُوسَهُمْ إلَهٌ كَاذِبٌ بسَطْوَةِ السِّلَاحْ، جِيلٌ سَيُنْشِّؤُهُ عَلَى يَدَيْهِ هُوَ أَجْدَرُ بَأَرْضِ اللهِ المُبَارَكَةْ، مَنْ إلَيْهِمُ يُصْمَدُ الجِلِيلُ مِنْ الأُمُور، أُولَئِكَ هُمْ الصَّامِدُونَ لعَدُوٍّ لَا غَيْرَهُمْ،

وَ تِلْكَ حِكْمَةُ أَنْ تَتِيهَ مَعَهُمْ، وهَكَذَا يُرَبِّيكَ رَبُّكَ يَا "مُوسَى" ويُنْشِؤُ مِنْ ضُعْفٍ قُوَّةْ .

سَرَتْ فِي صَدْرِهِ رَاحَةٌ تُعَادِلُ الحَنِينَ بالصَّبْر، تَلَفّتَ كَمَنْ وَعَى بَعْدَ إغْمَاءٍ فَأَبْصَرَ "يُوشَعَ" فِي حُزْنِهِ، غَائِبَاً فِي تَأَمُّلَاتِهْ، تَتَحَرَّكُ شَفَتَاهُ دُونَ صَوتٍ فِي نَهْرٍ مِنْ الدُمُوعْ، ومَا عَلِمَ "مُوسَى" مِنْهُ إلَّا مَحَبَّة، وأَيُّ قَلْبٍ يَرَاهُ مُنْفَطِرَاً عَلَى هَارُونَ مِثْلَهْ !، حَرَّكَ رَأْسَهْ لخَاطِرَةٍ آنَسَهَا مِنْ نَفْسِهِ، يُوشَعُ أَيُّهَا الصَّفِيّ، أُتْرُكْ نَفْسَكَ لإيمَانِهَا لَا يَأْكُلُكَ الهَمُّ يَا فَتَايَ المُبَارَكْ، دَعْنَا نَتَرَدَّمُ[1] لأَسْمَالِ[2] إسْرَائِيلَ المُهْتَرِأَةْ، فَمَا جَعَلَ اللهُ لِنَبِيِّكَ مِنْ بَعْدِ "هَارُونَ" عَضُدَاً أَشَدَّ مِنْ يُوشَعْ، أُنْظُرْ يَا يُوشَعُ هَذِهِ الخِرَافُ حَوْلَ قُبَّةِ الزَّمَانْ، مَا سَمِنَتْ عَلَى عُشْبِ أَبِيهَا بَعْدْ !، إنَّهَا الحِمْلَانُ الصّغِيرَةُ يَا فَتَايَ مَنْ يَحْمِلُونَ كَعْبَتَهُمْ إلَى الأَرضِ المُبَارَكَةْ، وأَكَادُ أَرَاكَ تَنْصُبُهَا فُوْقَ صَخْرَةِ أَبِيكْ، ومُصَلّيَاً بِأَحْفَادِ هَذِهِ الخِرَافْ .

---

١ ترقيع الثوب.

٢ الملابس البالية.

قَامَ "مُوسَى" مِنْ مُقَامِهِ مُكَلَّلاً بالمَهَابَةِ وقَدْ أَعْيَتْهُ خُلْوَةُ النَّفْسْ، فَانْتَبَهَ "يُوشَعُ" وانْتَفَضَ وَاقِفَاً وسَارَ خَلْفَ "مُوسَى" يَنْحَدِرَانِ يُكَلِّلُهُمَا حُزْنٌ وصَمْت، عَائِدَانِ إِلَى جُمُوعٍ لَيْسَ مِنْ بَيْنِهَا "هَارُون" فأَوحَشَ المَكَانَ والنَّاسَ، يَخْالِطُونَ إِسْرَائِيلَ لَا يَعْرِفُونَهُمْ مِنْ وَحْشَةٍ كَأَقْوَامٍ لَمْ يُعَاشِرُونَهُمْ مِنْ قَبْل، وأَفْسَحَ النَّاسُ للنَّبِي طَرِيقَهُ إِلَى قُبَّةِ الزَّمَانْ، يَعْرِفُونَ فِي وَجْهِهِ نِيَّتَهْ، فَتَهَيَّضأوا لِمَا يَطرَأُ مِنْ أَوَامِرِ الرَّبْ .

إِنْتَهَى "يُوشَعُ" وَاقِفَاً عَلَى وَصِيدِ قُبَّةِ الزَّمَانْ، بَيْنَمَا وَاصَلَ الرَّسُولُ سَيْرَهُ حَتَّى خَشَعَ أَمَامَ تَابُوتِ الشَّهَادَةْ، وفَوْرَاً انْسَدَلَ عَامُودُ الغَمَامِ فتَغَشَّاهُ النُّورْ، ووَقَعَ الجَمِيعُ خُشَّعَاً سَاجَدِينَ للرّب، فَظَلَّ مُوسَى عَلَى حَالِهِ يُنَاجِي رَبَّهُ ويُنَادِيه، فَأَوْحَى لَهُ مَا أَوْحَى فِي شُئُونِ إِسْرَائِيلْ، وبِارْتِفَاعِ عَامُودُ الغَمَامِ إِلَى السَّمَاءِ يَرْفَعُ النَّاسُ الجِبَاهَ فِي إِشْفَاقْ، خَوْفَ تَكَالِيفٍ تَزْهَدُهَا نُفوسُهمُ الغَرِيرَةُ الإِيمَانْ، يَخْرُجُ مُوسَى عَلَيهِمْ بِوَجْهٍ غَيْرَ الذي دَخَلَ بِهِ قَبْلَ قَلِيلْ، وكَأَنَّ فِي وَجْهِهِ ضِيَاءُ الشَّمْسِ دُونُ حَرِّهَا وَهَّاجَاً مِنْ نُورْ، وكَعَادَتِهِمْ كُلَّمَا عَادَ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ أَقْعُواْ ينْتَظَرُونَهُ أَنْ يُلْقِيَ بِتَعَالِيمِهْ، لَكِنَّهُ ظَلَّ صَامِتَاً لحِينٍ مِنْ الوَقْتِ قَبْلَ أَنْ يأمُرَهُمْ بالإِنْصِرَافْ، فتَرَايَلُوا فِي أَثَرِ بَعْضِهِمْ يُوَسُوِسُ فِي نَفْسِ كُلٍّ مِنْهُمْ شَيطَانُهُ مِنْ الحِيْرَةْ، وقَدْ حَانَتْ العِشَاءُ الآخِرَة، فاسْتَبْقَى النَّبِيُّ "يُوشَعَ" بِإِشَارَةٍ مِنْ يُمْنَاهْ الكَرِيمَةْ، وتَمْتَمَ طَوِيلاً فِي أُذُنِهِ كَأَنَّ الوَحْيَ قَدْ خَصَّهُ بَوَصِيَّةٍ دُونَ قَومِهْ، ودَخَلَ بِجَادَهُ[1] فِي وَقَارٍ وغَابَ عَنْ فَتَاهْ، بَيْنَمَا أَسْرَعَ "يُوشَعُ" لمَهَمَّةٍ لَا نَوْمَ عَنْهَا فِي نَشَاطْ .

[1] لباس من الصوف ويطلق على الخيمة

فِي الصَّبَاحْ.. وقَبْلَ أَنْ تُلْقِيَ الشَّمْسُ السَّلَامَ عَلَى أَدْعَاصِ[1] السَّبَاسِبِ المَفْرُودَةِ فِي المَدَى، تَرَكَ "مُوسَى"

وَ صَايَاهُ لَثِقَةٍ مِنْ أَكَابِرِ القَوْمِ عَلَى تَخَوُّفْ، ومَضَى فِي مَعِيَّتِهِ "يُوشَعُ بِنْ نُونْ"، إِلَى وِجْهَةٍ أَخْفَاهَا عَنْ قَوْمِهْ، يَرَاهُمْ النَّاظِرُ حَبَّتَيْنِ مِنْ رِمَالٍ وهُمَا يَغِيبَانِ فِي عَينِ الأفُق .

[1] الكُتَل مِنْ رمال تماسكت بفعل المطر

اغْتِيَالْ

فِي إعْيَاءٍ تَحْمِلُهُ فَرَسٌ مُنْهَكَةْ، وقَدْ انْتَقَلَتْ إلَيْهَا عَدْوَى الإرْهَاقِ الذِي أَصَابَ فَارِسَهَا العَائِدَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ شَاقْ، يَتَهَادَى بَيْنَ غِيطَانٍ تَرْكَبُهَا بِرَكٌ عَطِنَة، ويَنْمُو فِيهَا الهِيشُ والحِجْنُ فِي أَرْيَحِيَّةٍ إلَّا القَلِيلَ مِنْهَا طَالَتْهَا يَدُ الإصْلَاحْ، فَبَدَأَتْ تَدُّبُ فِيهَا الحَيَاةُ مِنْ جَدِيدْ، وتَلُوحُ عَلَى البُعْدِ مَمْفِيسَ بَأبْنِيتِهَا المُهَدَّمَةِ كالَّتِي أَصَابتْهَا رِيحٌ عَاصِفْ، رَغْمَ مَا يُبْذَلُ مِنْ جُهُودِ إعْمَارِهَا مُنْذُ مَا يَربُو عَلَى العِقْدَيْن، وقَدْ ظَهَرَتْ يَدُ "بِرْعَا" جَلِيَّةً فِي اسْتِعَادَةِ وَجْهٍ كَانَ للبِلَادِ بِسَوَاعِدِ القِلَّةِ بِرَغْمِ زَحفِ الإعْمَارِ فِي بُطءٍ لَهْ عُذْرُهْ، يَعُودُ "سِنِفْرُو" كُلَّ مَسَاءٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيلِ مُنْذُ أَعْوَامٍ طِوَالْ، تَوَلَّى فِيهَا الإشْرَافَ عَلَى تَجْفِيفِ مَا أغْرَقَهُ النِّيلُ وعَلَى تَصْرِيفِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ عَنْ كَاهِلِ الحُقُولْ، وبِمَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ عُمَّالٍ مُجِدِّينَ أَنْقَذَ الكَثِيرَ مِنْ المِسَاحَاتْ، وقَدْ كَادَ يَأْكُلُهَا المِلحُ والعَطَنُ فَأَسْلَمَهَا للكُفَّارِ[1] (١) خِصْبَةً كَسَابِقِ عَهْدِهَا، وبَدَتْ آيَاتُ اللهِ الّتِي أَخَذَ بِهَا مِصْرَ تَنْكَشِفُ عَنْهَا رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً، إلَّا أَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَا زَالَ يَطْمِسُ ثَرَوَاتِهَا لأَبَدٍ قَدَّرَهْ، أَمْضَى "سِنِفْرُو" أَعْوَامَهُ فِي تَبَسُّطِ دَاعِيَةٍ إلَى الحَقِ وفِي حِرْصٍ شَدِيدْ، مُسْتَغِلَّاً بِحُبِّه للنَّاسِ اسْتِعْدَادَ مُعْظَمِ البُسَطَاءِ بِفُطْرَتِهِمُ السَلِيمَةِ وقَدْ زَالَ عَنْهَا أَعْتَى سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ إفْسَادِهَا، إنَّهُ الإنْسَانُ حِينَ يَزْفُلُ فِي نِعْمَةٍ مَا، فَيَتَوَطَّنُهُ الزَّهْو، إنْ اعْتَادَ سُلْطَانَاً، رُبَمَا صَارَ إلَهاً فَاسِقَاً فِي نَفْسِهِ المَرِيضَةِ وغَالِبَاً يَحْدُثْ !، الإلَهُ الحَقُّ يُنْزِلُ نِقْمَتَهُ فَيُصِيبُ بِهَا مُفْسِداً لَا مُعْرِضَاً عَنْ عِبَادَتِهْ، إنّهُ اللهُ يُؤَجِلُ العَذَابَ دَائِمَاً ويَصْرِفُهُ عَنْ مُصْلِحٍ ولَوْ كَفَرْ، هَا هُو الفِرْعَوْنُ الهَالِكُ مَا أَخَذَهُ إلَّا

[1] الفلاحون زراع الأرض.

مُفْسِداً فِي الأَرجَاءْ، خَلِّ مَا بَيْنَ إنْسَانٍ وقَلْبِهِ ثُمَّ أنْظُرْ مَا يَخْتَارُ دُونَ مَأرَبٍ يَشُذُّ بِهِ عَنْ الجَادَّةْ، ولِهَذَا كَانَ "سِنِفْرُو" فِعْلاً مِثْلَمَا تَنَبَّأَتْ "مِيرِيتْ نِيتُ "، مَبْعُوثَ نَبِيٍّ يَنُوبُ عَنْ نَبِيٍّ،

كُلّمَا خَاطَبَ أحَداً بِعَيْنِ المُشَاهِدِ أَحْيَا فِيهِ إيمَاناً سَجَنَهُ زَبَانِيَةُ فِرْعَوْنْ، هَذَا الإيمَانُ الّذِي تَحَرَّكَ يَوْمَ هَزِيمَةِ إلَهِ كَاذِبٍ أَمَامَ حَيَّةٍ تَلقَفُ عَثَامِينَهُ[1] جَمِيعَهَا، فَكَادَ يَربُو بالتَّسلِيمِ مَعَ السَحَرَةْ، ووَقْتَهَا نَامَ الإيمَانُ مُرْغَماً فِي القُلُوبِ خَوْفَ البَطْشْ، وتَحْتَ تَأْثِيرِ دُخَانِ الكَهَنُوتِ المُنْسَرِبِ بِزَهْوِ خِشْخَاشَةٍ قَاتِلَةْ، وبِفِعْلَ بُرُوبُوجَانْدَا التَّهْوِيلْ، فَمَا بَالُهُم بِأُفْعُوانٍ أَعْظَمْ، بالْأَمْسِ إبْتَلعَ مُنْتَخَباً مَهُولاً مِنْ أَرْضِ كِيمِيتْ بأَسْرِهَا، وعَلَى أَعْيُنِ شُهُودٍ مِنْهُمْ، نَعَمْ هُمُ سَّمَاسِرَةُ الوقْتِ " كَمِنْكَاوٍ " يسْتَثْمِرُونَ الإيمَانَ لِصَالِحِ أَنْصَابٍ[2] بِدَاعِي نَعْرَةِ قَوْمِيَّاتٍ فَارِغَةْ، ويَسْرِقُونَ حَمَاسَ الشُّعُوبِ كَمَا فَعَلَ يَوْمَ تَنْصِيبِ "دَلُّوكَا "فِرْعَوْنَاً جَدِيداً يَتَنَفَسُونَ مِنْ خِلَالِهْ، فَيَصْحُو إيمَانٌ أعْمَى يَمْنَحُهُمْ يَدَهُ فَيَرْسُونَ بِهِ فِي الحُطَمَةْ، لَكِنْ يَبْقَى البَعضُ بِإيمَانٍ بِكْرٍ لَا يَمْنَحُ العَيَّافِينَ عَيْنَيْه، وعَلَى هَؤُلَاءِ بَنَى "سِنِفْرُو" دَعْوَتَهْ، إيهٍ .. يَالَ طُمَأْنِينَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ رَغْمْ لَسْعَةٍ لَمْ تَنْدَمِلْ، فَمَا زَالَتْ "مَاعِتُ" تتَمَطَّى فِي حُضْنِهِ مُنْتَشِيَةً كَعْرُوسٍ فِي صَبَاحِ لَيْلَةِ حُبٍّ، ويَلْفَحُ صَهْدُهَا صَدْرَهُ مِثْلَ رِيحٍ تتَنَهَّدْ، لَمْ تُفْلِحْ "مِيرِتُ نِيتُ" بِكُلِّ مَا أوْتِيَتْ مِنْ جَمَالٍ قَاهِرٍ أَنْ تَهُزَّ عَرْشَ "مَاعِتْ"، أَنْفَقَتْ جَمَالَهَا بِشِقَّيْهِ جَسَداً ورُوحاً فِي إسْعَادِهْ، ومَنَحَتْهُ بتَفَانٍ وَلَدَهُمَا "إبْسِمَاتِيكْ" الحَبِيبَ نِتَاجَ لَيَالٍ مِنْ عِشْقٍ نَادُرٍ شَهْدُهُ بَيْنَ النِّسَاءْ، عَاشَتْ "مِيرِيتُ" كالمَاءِ لِصَحْرَائِهِ الّتِي تَفَشَّتْ فِيهِ بَعْدَ "مَاعِتْ "،

---

[1] الثعابين.

[2] كل مل ينصب للعبادة من دون الله.

فشَغَتْ فِي قَلْبِهِ آثَارُ المَاءِ مِنْ تَزَاحُمِ جَنَّاتٍ وحَيَاةْ، ومَثَّلَ "إبْسمَاتِيكْ "أَعْظَمَ وَشِيجَةٍ نَمَتْ فِي حَيَاتِهِمَا المُورِقَةْ، سَعِيداً كَانَ ومُحِبَّاً هُوَ "سِنِفْرُو"، عِنْدَمَا تَأْخُذُهُ دُنْيَاهُ مَعَهُمَا أَوْ عَنْهُمَا بِمَشَاغِلِهِ المُقَدَّسَةْ، لَكِنَّ جَمْرَةً إسْمُهَا "مَاعِتْ" تَنَامُ مِنْ تَحْتِ كُلَّ هَذَا بِلَظَاهَا المَحْبُوبَ وَلَسْعَتِهَا الّتِي لَا تَنَامْ، كَمْ يَنْتَشِي لِدَمْعَةٍ تَأْخُذُ بِنَفْسِهَا للتَّزَلّجِ خَارِجَ عَيْنَيْهِ بِلَا اسْتِئْذَانْ، وتَصْحُو فِي عَتْمَةِ الطَّرِيقِ كَمَا الآنَ أَنِيساً لاغْتِرَابِهِ الرُّوحِيّْ، لَيْسَ غَيْرُهُ وذِكْرَاهَا ووَقْعُ سَنَابِكٍ رَتِيبٍ عَلَى طَّرِيقٍ مُوحِشَةْ .

وَ فِي لَيْلَةٍ لَزِجَةٍ مِنْ أَوَاخِرِ شَهْرِ أَبِيبِ الحَارَّةْ، صَامِتٌ فِيهَا كُلُّ شَيءْ، ومَشْلُولٌ نَسِيمُهَا فَيُحِيلُ المَشْهَدَ كَجَدَارِيَّةٍ سَاكِتَةٍ لَوْلَا دَنْدَنَةُ الفَرَسِ فَوْقَ الطَّرِيقْ .

انْتَصَفَتْ بِهِ الطَّرِيقُ وأخَذَتْ تَنْعَطِفُ بِهِ تَحْتَ جُنْحِ لَيْلٍ بَيْنَ بَيْن، لَا هُوَ بالدَّامِسِ ولَا هُو بالمُبِينِ حِينَ صَهَلَتْ فَرَسُهُ ذُعْرَاً، وجَمَحَتْ بِهِ كَالّتِي هَمَزَتْهَا الجِنُّ، وفَقَدَ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا كَأَنّ زِمَامَهَا بِيَدِ القَدَرْ، وشَيْءٌ كَالمُوسَى أَخْطَأَ مَقْصُودَهُ فَغَابَ فِي كَتِفِهِ وبَلَلاً دَافِئَاً يَمْشِي باللُّزُوجَةِ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنْ، وإذَا بِالخِدْرِ يُسْرِعُ فِي جَسَدِهِ المُتْعَبِ ويَفْتَحُ لَهُ بَوَابَةَ النُّعَاسِ لِيَسْقُطَ مِنْ يَدِهِ الخِطَامْ، يَمِيلُ مُتَشَبِّثَاً بِعُرْفِ فَرَسِهِ مُنْتَهِزَاً ذُبَالَةً يَقَظَةٍ تَكَادُ هِيَ الأُخْرَى تَتَهَالَكُ للنَّوْم، وقَدْ مَضَتْ بِهِ كَعَادَةِ الأَفْرَاسِ الّتِي تَحفَظُ أَمَاكِنَ رَدَيَانِهَا[1] ومَبِيتِهَا نَحْوَ بَيْتِهْ كَالرِّيحْ .

فِي إصْرَارٍ يَتْبَعُهُ شَبَحُ فَارِسٍ فَوْقَ جَوَادِهِ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ إصَابَتِهِ الهَدَفْ، فَتَحْسَبُهَا ضَغِينَةً وثَأْرَاً لَا يُرْدِعَانِهُ عَنْ مُرَادْ، إلَّا أنَّ فَرَسَهُ كَانَتْ مِنْ ضَوَامِرٍ لَا تُدْرَكُ بِسُهُولَةْ، فَنَجَتْ بِهِ فِي خِفَّةٍ أَثَارَتْ غَيْظَ وحُنْقَ القَاتِلِ

[1] جري الدابة بين ملعبها ومبيتها.

المَجْهُولْ، فَعَادَ أَدْرَاجَهُ مُتَأَكِّداً مِنْ إصَابَتِهِ وشَآكَّاً فِي مَوْتِهْ، يَعُضُّ أَنَامِلَ النَدَمْ .

أَثَارَتْ الفَرَسُ الصَّاهِلَةُ عَلَى غَيرِ عَادَتِهَا خَوْفَ "مِيرِيتْ "، فَهُرِعَتْ نَحْوَ شُرُفَةِ البَهْوِ جَزِعَةً كَأَنَّهَا تتَوَقَّعُ

مَكْرُوهَاً مَا، أَسْرَعَتْ إلَيْهَا "تَاوْسِرْتُ "فَوَقَفَتْ عَلَى رَأْسِهَا حِينَ أَفْزَعَ صُرَاخُهَا شُرُفَاتِ "ممْفِيسَ "مِنْ حَوْلِهَا، وقَبْلَ أَنْ تَنْبِسَ السَّيّدَةُ كَانَتْ "تَاوْسِرْتُ" عَلَى القَارِعَةِ حَافِيَةَ القَدَمَيْنِ وفِي ثَوْبٍ عَارٍ مِنَ كِتَّانِ "سَاخَاوْ"، قَاصِدَةً قِلَّايَةَ[1] الطَّبِيبِ " بِتَاحْ "، وكَانَ الصُّرَاخُ قَدْ أَيقَظَهُ فِيمَنْ أَيقَظْ مِنْ قَاطِنِي الضَّاحِيَةِ النَّائِيَةْ، فَرَاحَ يُهَيئُ نَفْسَهُ لمُصِيبَةٍ تَعَوَّدَهَا مِنَ اللَّيلِ بَيْنَ الحِينِ وبَيْنَ الحِينْ، مَا كَادَتْ تَطْرُقُ بَابَهُ حَتَّى فُتِحْ لهَا، لَكِنَّهُ دُهِشَ لمَرْأى "تَاوْسِرت" وأَيْقَنْ أَيْنَ وِجْهَتَهْ، فكَانَ أَسْرَعَ إلَى مِيرِيتْ مِنْهَا، وهَذَا لعَلَاقَتِهِ الوَشِيجَةِ بِأَهْلِ القَصْرِ النُّبَلَاءْ، وَقَعَتْ عَينَاهُ عَلَى "مِيرِتْ" مُنْكَفِئَةً عَلَى "سِنِفْرُو" فِي حَالَةٍ مِنْ هَذَيَانْ، وبِمَا أَمْكَنَهَا تَضْغَطُ جُرْحَاً نَافِرَاً بالدَّمِ أَوْشَكَ أَنْ يَذْهَبَ بصَاحِبِهْ، فَأَمْرَهَا "بِتَاحُ" أَنْ تَنْسَحِبَ مِنَ الرُّدْهَةْ، وطَارَتْ لأمْرِهِ "تَاوْسِرتُ" تُلَبِّي مَطْلَبَهُ ورَاحَ عَبْدٌ "لمِيرِيتَ" يُشعِلُ الجَمْرَ بإشَارةٍ مِنْ سَيِّدِهْ، إنْسَحَبَتْ فِي صَمْتٍ يَسِيلُ كُحْلُ عَيْنيهَا فَوْقَ خَدَّيْنِ أَسِيلَيْنْ كَعَيْنٍ تَفِيضُ بالقَارّ، وفِي يَأْسٍ تَفْتَرِسُهَا ذِئَابُ الجَزَعِ والقَلَقْ، وتَنْهَشُهَا لَبُوءَآتُ الغَيْرَةِ وكِلَابُ الحِقْدِ الَّتِي مَا عَرِفَتهَا قَبلَ سَاعَتِهَا الرَّاهِنَةْ، إنَّهَا المَرْأَةُ مَهْمَا اعْتَلَتْ مِنْ قِمَمٍ أَوْ أَحَاطَتْ مِنْ عِلْمْ، تَظَلُ مَنْ تَحْكُمُهَا عَاطِفَةٌ وحَنَانْ، وتُوَجِهُهَا مَخَاوِفُ الأُنُوثَةِ إلَى عَكْسِ مَا يَسِيرُ العَقْلُ وعَكْسِ مَا يُقِرُّهُ المَنْطِقْ، الأُنُوثَةُ كَائِنٌ أَنَانِيٌّ جَمِيلٌ ومُخِيفْ، صِنْوُ الإنْسَانِيَّةِ يَسْكُنَانِ إمَرْأَةً وَاحِدَةً فَتَكُونُ نَارَاً وَ مَاءً

[1] مكان منعزل للعبادة أو للتعلم.

مَعْاً، آهٍ لَوْ طَغَى المَاءُ!، تَدْخُلُ الدُّنْيَا جَنْتَهَا بِلَا حِسَابٍ وبلَا سَابِقِ عَمَلْ، فَقَطْ آمِنْ بِامْرَأَةٍ وانْظُرْ طَاقَةَ المَاءِ فِي الخَلْقْ، حَقِّرْ مِنْ أُنُوثَةِ إمْرَأَةٍ وانْظُرْ طَاقَةَ نَفْسِ المَاءِ فِي خَرَابَ العَالَمْ، أَحِبَّ طَيْفَاً غَيْرَ ظِلِّ إمْرَأَةٍ تُحِبُّكَ وانْظُرْ ضَآلَةَ الجَحِيمِ مُقَارَنَةً بِلَظَاهَا .

كَانَ الطَّبِيبُ قَدْ أَنْهَى عَمَلَهُ الخَطِيرَ فِي كَمْ مِنَ الوَقْت، أَخْبَرَتْهُم أُولَيَاتُ الصَّبَاحِ وهِيَ تَمْسَحُ عَنْ النَّوَافِذِ ظَلَامَهاً النَائِمَ، تَكَاتَفُوا جَمِيعَاً فَحَمَلُوهْ إلَى مَخْدَعِهْ يُحِيطُهُمْ صُرَاخُ "إبْسِمَاتِك" الَّذِي قَدْ اسْتَيْقَظَ تَوَّاً عَلَى هَذَا المَشْهَدِ الكَئِيبِ والمُخِيفْ، وقَدْ اسْتَقْبَلَتْهُ "مِيرِيتُ" جَزِعَةً بَأحْضَانِهَا مُوَاسِيَةْ، ونَظَرَتْ فِي مَوَاتٍ إلَى "بِتَاحٍ" تَخَبَّطُ فِي سُؤَالِهَا الأَخْرَسِ الّذِي يَقُولُ .. ويَقُولُ .. ويَقُولْ .

"بِتَاحْ ": - الجُرْحُ قَاتِلٌ يَا سَيِّدَتِي، الشُّكْرُ "لآمُونَ" أَنْ أَخْطَأَ القَاتِلُ هَدَفَهُ لَكِنَّهُ الخَطَرُ قَائِمٌ إلَى مَدَىً نَسْأَلُ الرَّبَّ أَلَّا يَطُولْ

"مِيرِيتْ": - ومَنْ يطْمَحُ إلَى قَتْلِ سِنِفْرُو وهُوَ قَاتِلٍ نَفْسَهُ فِي خِدْمَةِ الوَطَنِ وتَشْهَدُ لَهُ مِصْر؟

"بِتَاحْ": - لَيْسَ هَذَا مَا يُعْنِي طَبِيباً يَا سَيِّدَتِي، كَادَ السَّيفُ يَأتِي عَلَى كَامِل شُرْيَانِهِ حَوْلَ مِفْصَلِ الكَتِفْ، ولَولَا أَنْ أَدْرَكْنَاهُ بالْكَيِّ لَكَانَتْ فَاجِعَةْ، لَقَدْ أَثْبَتُّ ذِرَاعَهُ إلَى جَنْبِهِ حَتَّى لَا تَضُرُّهُ حَرَكَةٌ تَعِنُّ .. مُفَاجِئَةْ، عَلَيكِ يَا تَاوْسِرتْ بِعَصِيرِ الشَّمَنْدَرِ وبِمَمْهُوكِ الزَّبِيبِ .. فَوْرَاً لنَسْتِعِيدَ مَا إفْتَقَدَهُ مِنْ دِمَاءْ، حَالَاً يَا إمْرَأَةْ سَأَعُودُ عَصْرَاً يَا سَيِّدَتِي، قَالَهَا وهُوَ يَمْضِي مُؤكِدَاً.. العَصِيرُ كُلُّهُ يَا سَيِّدَتِي وهَذِهِ مُهِمَّتُكِ الأُولَى، عَلَيْهِ أَنْ يَفِيقَ حَتَّى أَعُودْ، وانْتَبِهِي لَا يَلْمِسَنَّ الجُرْحَ أَحَدْ .

وَدَّعَتْهُ مِيريتْ فِي حُزْنٍ بَادٍ وشُحُوبْ، وجَلَسَتْ عِنْدَ رَأْسِ "سِنِفْرُو" بِقَلْبٍ لَا تَعْرِفُهْ، تَجْهَلُ مَا أَلَمَّ بِهَا مِنْ خَلِيطِ مَشَاعِرٍ مُتَضَارِبَةٍ تَتَعَارَكُ فِيمَا بَيْنَهَا أَيُّهَا تَظْفَرُ "بمِيريتْ" .

"مِيرِي"المُحِبَّةُ المِسْكِينَةُ الّتِي يَهْذِي فِي حُضْنِهَا بِاسْمِ خَادِمَتِهَا الآبِقَةْ[1]، يَعْتَرِيهَا حُبُّ حَتَّى نُخَاعِ العَظْم

وَ كُرْهٌ طَارِيءٌ حَتَّى نخاعِ العَظْم، أَنّهَا لتُنْكِرُ نَفْسَهَا . خَوْفٌ وإِشْفَاقْ، ووَاجِبُ دَعْوَةٍ مُشْتَرَكَةْ، إِيمَانٌ وامتِنَانٌ لهَذَا المُسْتَكِينُ عَلَى فِرَاشِهْ، هِي تَتَذَكَّرُ وَعْدَهَا جَيِّداً، لَكِنَّهُ وَعْدُ الوَاثِقِ مِنْ نَفْسِهْ، لَمْ يُدَاخِلُهَا شَكٌّ أَنَّهَا سَتُنْسِيَهُ عِشْقَ المْرَاهِقِينَ السَّاذَجَ بِصَادِقِ الغَرَامِ أَوَّلاً، وبِخِبْرَةِ إِمْرَأَةٍ هِيَ العَلِيمَةُ بَأَحْكَامِ الزّوجِيَّةْ، كَمْ تَحْقِدُ الآنَ عَلَى "مَاعِتَ" ولَا تَرَى فِيهَا إِلَّا غَرِيمَةً آثِمَةْ، لَا .... لَا بَلْ غَرِيمَةٌ غَيرُ آثِمَةٍ لكِنْ قَذِرَةْ، لَا .. لَا لَيسَتْ قَذِرَةْ، بَلْ هِيَ غَرِيمَةٌ طَيِّبَةٌ وبَرِيئَةٌ كَرِيهَةْ، يَاهْ أَيُّهَا العَشِيقُ الزَّوْجُ كَمْ أُحِبُّكَ وكَمْ أَكْرَهُكْ، كَمْ أمُوتُ لأجْلِكَ وكَمْ كِدّتُ أتَمَنَّى الآنَ مَوُتَكْ .. حَيَاتَكَ .. مَوتَكَ نَعَمْ نَعَمْ ... لَاااا .. بَلْ حَيَاتِكَ يَا مُنْيَةَ الرُّوحْ .

حِينَ نَدَّتْ مِنْهُ حَرَكَةً وهُو فِي خُفُوتٍ يَهْذِي مِي .. مير .... فَطَفَرَتْ دُمُوعُهَا وهِي تُقَبِّلُ كَفَّهُ بِدُمُوعِ الفَرِحِينَ قَائِلَةً فِي هَذَيَانٍ .. يتْ نِيتُ .. ميريتُ نِيتُ يَا سِنْفْرُو العَائِدَ مِنْ ضَلَالِكَ القَدِيمْ، كَانَتْ تَغْسِلُ كَفَهُ بِحُرْقَةِ مَنْ رَبَّتَ إِلَهٌ عَلَى قَلْبِهْ[2].

---

١ الهاربة.

٢ مسح على قلبه

نِخْتِنْبُو

جَلَسَ "أَحْمُسُ" خَارِجَ الحَانَةِ المُتَوَاضِعَةْ، فِي انْتِظَار رَفِيقِهِ "نِخْتِنْبُو"، حَانَةٌ بَسِيطَةُ المَرْأَى بَيْدَ أَنَّهَا أَنِيقَةٌ وهَادِئَةْ، تَأْوِي إِلَيْهَا زَرَافَاتٌ مِنَ الوَافِدِينَ ومِنَ المُغَادِرِينَ مِنْ وإِلَى "مَمْفِيسْ"، تَقْبَعُ هُنَاكَ فِي أَقْصَى المَدِينَةِ كَمَحَطَّةٍ للرَّاحَةِ ولإِسْتَعَادَةِ النَّشَاطْ .وَ لَاحَ "أحمس" شَابٌّ فِي السَابِعَةِ والعِشْرِينَ مِنْ العُمْر، مَتِينُ البِنْيَةِ وفَارِعُ الطُّولِ يَسْبِقُ جِسْمُهُ عُمُرَهْ، وكَانَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّقُوا مَعَايِيرَ جُنْدِيَّةٍ تؤسِسُ نَوَاةً لِجَيْشِ مِصْرَ النَّاشِئْ، وقَدْ مَضَى عِقْدٌ مُنْذُ التَحَقَ بالحَرَسِ الفِرْعَوْنِيِّ مَعَ أَخٍ لَهُ مِنْذُ طُفُولتِهِ فَكَانَ "نِخْتِنْبُو" صَدِيقَهُ الوَحِيدْ، وقَدْ أَتَيَا فِي خِلَالَهِ عَلَى مُعْظَمِ تَدْرِيبَاتِ العَسْكَرِيَّةْ، مِنْ استِعْمَالِ سَّيفٍ ورُّمْحٍ ومِنْ رَشْقِ نِبَالٍ ومِنْ قِتَالٍ مِنْ فَوْقِ العَجَلَاتِ الحَرْبِيَّةْ، نَاهِيكَ عَنْ أَعْمَالِ الفُرُوسِيَّةِ الشَّاقَةِ كُلَّهَا، مَعْلُومٌ أَنّ الحَرَسَ الفِرْعَوْنِيَّ يُجِيدُ أَفْرَادُهُ شَتَّى فُنُونِ القِتَالِ كَجَيْشٍ مُتَكَامِلٍ وَحْدَهْ، عَامٌ بِكَامِلِهِ لَمْ يَزُورَا فِيهِ الأَهلَ ولَا دَاسَتْ أَقْدَامُهُمَا تُرَابَ "بَاتْخِيكَا" الحَبِيبَةْ، الوَطَنُ "بِتْخِيكَا" .. هَذِهِ مُفَارَقَةً مُحَيَّرَةٌ وعَجِيبَةْ !، يَظَلُّ الوَطَنُ فِي أَذْهَانِ السَّاسَةِ وأَصْحَابِ النّفُوذِ مَزْرَعَةٌ عِمْلَاقَةْ، تُدِرُّ عَلَيهِمْ الذَّهَبَ للخَزَائِنِ واللّحَمَ للمَوَائِدْ، ويَبَقَى الوَطَنُ للدَّجَاجِةِ شِبْرَاً تَسْعَى فِيهِ بَينَ مِزْوَدِ الحَبِّ ومَسْقَى المَاء ثُمّ تُنْدَبُ للذَبْحِ فِي رِضَى، الوَطَنُ شِبْرٌ صَغِيرٌ لِكُلِّ دَجَاجَةٍ عَلَى حِدَةْ، تَصْنَعُ الأَشْبَارُ مُجْتَمِعَةٌ مَزْرَعَةً كَبِيرَةً تُسَمى وَطَنَاً، وعَلَى الجَمِيعِ فِيهَا أَنْ يَتَشَارَكَ المَصِيرَ مِنْ رَفَاهِيَةٍ ومِنْ تَذْبِيحٍ، وإِلَّا فَهَيَ المَزْرَعَةُ لَيْسَ إِلّا .

جَلَسَ "أَحْمُسُ" يُزَاوِجُ بَيْنَ وَطَنِهِ الصَّغِيرِ فِي "بِيثْخِيكَا" التِي تَعِيشُ فِيهِ والّتِي يَدْفَعُ دَمَهُ دَفْعَاً عَنْ حِيَاضِهَا مِنْ هُنَا فِي "مَمْفِيسْ"، قَدْ بَدَأَ المَلَلُ والقَلَقُ مَعَاً يَتَسَرَّبَانِ إِلَى قَلْبِهْ، تَأَخَّرَ "نِخْتِنْبُو" كَثِيرَاً، كَانَ مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَا قَدْ قَطَعَا مِنَ اللّيْلِ ومِنَ المَسَافَةِ شَوْطَاً، شَمْسُ أَبِيبٍ مُضْنِيَةٌ لهُمَا وللخَيْلِ عَلَى السَّوَاءْ ،

مَا بَالُ "نِخْتِنْبو" كَأَنّمَا لَيسَتْ بِهِ وَحْشَةٌ للأَهْلِ ولَا حَنِينْ؟ .

أَصْخَى لوَقْع جَوَادٍ يَقْتَرِبُ مِنْ بَعِيدٍ قَاصِدَاً المَكَانْ، فتَهَلَّلَ وَجْهُهُ حِينَ تَبَيَّنَ وَجْهَ الفَارِسِ المُنْتَظَرْ، هُوَ صَدِيقُهُ يَنْهَبُ الأَرْضَ نَهْبَ الخَائِفِينْ!

أَحْمُسْ: - كُلُّ هَذَا الوَقْتِ يَا رَجُلْ، لِي زَمَنٌ أَنْتَظِرُكَ حَتَّى مَلَلْتْ

نِخْتِنْبُو: - لَاحِقَاً نَتَحَدّثُ فِي الأَمْر، إِلَيَّ ببَعْضِ الشَّرَابِ فَقَدْ أَنْهَكَنِيَ العَطَشْ .

وَ بِإِشَارَةٍ إِلَى السَّاقِي أَسْرَعَ إِلَيهِمَا بأَبْرِيقٍ مِنْ الفَخَّارِ مُتْرَعَاً بِنَبِيذِ "مَرِيُوطَ" المُعَتَّقْ، سَكَبَ مِنْهُ "نِخْتِنْبُو" كَوْبَاً ورَمَى بمُحْتَواهُ فِي جَوْفِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةْ، وتَلَاهُ بآخَرَ دُونَ تَرَوّيٍ مِمَّا أَثَارَ دَهْشَةَ "أَحْمُسَ" وشُكُوكَهُ الّتِي أَكَّدَهَا شُرُودُ صَاحِبِهِ وتَوَتُّرَهُ، يُدْرِكُ خِصَالَهُ جَيِّدَاً فآثَرَ الصَّمْتَ حَتَّى يَسْتَعِيدَ هُدُوءَهْ، مَضَى وَقْتٌ لَيْسَ إِلَّا للصَّمْتِ هَوَاجِسُهُ وظُنُونُهْ، إِلَى أَنْ قَامَ "نِخْتِنْبُو" عَامِدَاً نَحْوَ جَوَادِهِ غَيْرُ آبِهٍ لصَدِيقِهْ، فَأَنْقَدَ "أَحْمُسُ" السَّاقِي مَالَهُ فِي عُجَالَةٍ ثُمَّ تَبِعَهُ فِي حَيرَةٍ وامْتَطَيَا جَوَادَيْهِمَا وأَوْغَلَا فِي بَطْنِ اللَّيْل .

"نِخْتِنْبُو" مُحدَثاً نَفسَه: (مَا الّذِي اقْتَرَفَتْهُ يَدَاكَ الآثِمَةَ يَا نِخْتِنْبُو، أَيُّ عَدَاوَةٍ بَيْنَكَ وبَيْنَ رَجُلٍ لَا تَعْرِفُهُ حَتَّى تَفْعَلَ فَعْلَتَكْ، غُرِّرَ بِكَ باسْمِ الوَاجِبِ والوَطَنْ، مَاذَا لَوْ تَحَرَّيتَ مَا قَدْ قِيلَ لَكْ، لَا يَلِيقُ بِجُنْدِيٍّ مِثْلُكَ

أَنْ يَكُونَ أَهْوَجَاً يَتَلَاعَبُهُ أَحَدٌ مَهْمَا كَانَ مَنْ أَيَكُونُ الوَطَنُ مَا يفْهَمُهُ البِرْعَا والمَلَأُ مِنْ وِجْهَةِ نَظْرَ إلَهِيَّةِ مُتَعَجْرِفَةْ؟،

أَفِي مُخَالَفَتِهِ رَأْيَهُ خِيَانَةٌ للوَطَنِ المُتَمَثّلِ فِي ذَاتِهْ؟

إنْ كَانَ كُلُّ هَؤُلَاءِ آلِهَةً لَا تَعْرِفُ الخَطَأَ فَلِمَ أَوْرَدُوا مِصْرَ المَهَالِكَ إذَنْ، وافْتَقَرَتْ إلَى أَحْلَامِهَا[1] الغُرْلِ[2] مَا زَالُوا؟ .

لِمَ تُحَارِبُ الآلِهَةُ أَعْدَاءَهَا بِيَدِكَ أَنْت، ولَمَاذَا تَفْتَقِرُ الآلِهَةُ إلَى سَوَاعِدِ النَّاسِ دُونَ عُقُولِهَا؟، عَلَيْهَا الآلِهَةُ إذَنْ أنْ تَرتَكِنَ إلَى قُدْرَتِهَا، ولتَنْتَقِم بِنَفْسِهَا أَوْ تُسَامِحْ، تَمَاماً كَمَا تَطْمَئِنُ إلَى حِكْمَتِهَا المُصِيبَة، دَائِمَاً وأَبَدَاً مُصِيبَة، مَا الّذِي يَدْفَعُهَا إلَى طُرُقٍ مُلْتَوِيَةٍ فِي انْتِقَامِهَا كَمَا فَعَلَتْ ووَظَّفَتْكَ، ثُمَّ اخْتَبَأتْ مِنْ بَعْدِهَا وَرَاءَ خِسَّتِكَ الّتِي تَنْهَشُ فِي قَلْبَكَ تَأنِيباً ومَلَامَةً مُرَّةْ، هَلْ تَعُضُّ الآلِهَةُ أَصَابِعَهَا الآنَ مِثْلَكَ نَدَمَاً ويَلَسَعُهَا وَخْزُ الضَمِيرْ؟، عَلَى الجُنْدِيِّ أَنْ يَكُونَ شَرِيفَاً مَهْمَا وَظَّفَتْهُ آلِهَةٌ قَمِيئَةٌ لَا تَعْرِفُ شَّرَفْاً يَا نِخْتِنْبُو الآثِمْ) .

أَبْحَرَا طَوِيلاً فِي عُبَابِ اللّيلِ ومَا نَبَسَ بِكَلِمَةٍ حَتَّى تُطَمْئِنَ "أَحُمْسْ" الّذِي أَكَلَتْهُ الأَسْئِلَةُ وفَاضَ بِهِ الصَّبْر، إسْتَجْمَعَ نَفْسَهُ الذَّاهِبَةَ وفِي لِينٍ كَأَنَّهُ اعْتِذَارٌ عَنْ إهْمَالِهِ لرَفِيقَهْ:

نختنبو: - يَبْدُو أَنَّنِي تَوَرَّطْتُ فِي عَمَلٍ خَسِيسٍ يَا أَحُمْسْ العَزِيزْ !

أحمس: - كَيْفَ يَا أَخِي ومِثْلُكَ طَاهِرُ القَلْبِ؟، تَرَبَّيْنَا مَعَاً ومَا وَقَعْتُ مِنْكَ عَلَى نَقِيصَةْ، إنَّهَا الأَخْلَاقُ لَا تَتَجَزَّأُ يَا صَدِيقِي

[1] الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم.

[2] الأطفال الذين لم يحتدوا (عملية الطهارة).

نختنبو: - هَذَا مَا حَدَثَ يَا عَزِيزِي، بِالأَمْسِ اسْتَدْعَانِي قَائِدُ الحَرَسِ الفِرْعَوْنِيّ ونَقَلَ إِلَيَّ رَغْبَةَ كَبِيرِ
الكَهَنَةِ فِي تَكْلِيفِ أَمْهَرَ الفُرْسَانِ بِمَهَمَّةٌ، هِي لِمِصْرَ وللبِرْعَا ولصَالِحِ أَمْنِ مِصْرَ القَوْمِيْ !

أحمس: - ومَا ذَاكَ يَا نِخْتِنْبُو، وهَلْ فِي خِدْمَةِ مِصْرَ عَمَلٌ يُشِينْ؟

نختنبو: - للسَّاسَةِ حِسَابَاتٌ شَخْصِيَّةٌ وَعَدَاوَاتٌ لَا تَخْدِمُ غَيْرَهُمْ، ويُلْبِسُونَها مِنْ مَنَاصِبِهِمُ الزَّائِدَةِ ثَوْبَ الوَطَنِيَّةِ يَا عَزِيزِي، لَمْ أُدْرِكْ هَذَا إِلّا بَعْدَمَا عَلِمْتُ شَخْصَ مَنْ قَتَلْتُ يَا صَدِيقِي القَرَوِيَّ ويَا نَصِيفِي فِي السَّذَاجَةْ، كَمُنْتُ لَهُ فِي المَكَانِ كَمَا حَدَّدَ لِي العَجُوزُ ٱل هِه مُقَدَّسُ مِنْ مِنْكَاوْ، نَعَمْ أَخْطَأْتُ رَقَبَتَهُ فِي ظَلَامِ اللَّيْلْ، لَكِنَّنِي أَصَبْتُهُ إِصَابَةً بَلِيغَةً وغَالِباً هِي قَاتِلَتُهْ، ثُمَّ تَبِعْتُهُ كَي أُجْهِزَ عَلَيْهْ، لَكِنَّهُ كَانَ مُمْتَطٍ ضَامِرَاً كَالرِّيحْ، نَجَا بِهِ يَا صَدِيقِي السَّاذَجْ، أَتَدْرِى أَيْنَ حَطّهُ جَوَادُهْ؟، أَنَاخْ بَهِ فِي قَصْرِ العَظِيمَةِ مِيرِيتْ نِيتْ يَا أَحْمُسْ، هَلْ عَرِفْتَ الآنَ بِدَمِ مَنْ لَوَّثَ نِخْتِنْبُو يَدَيْهْ؟

أحمس: - السَّيّدَةُ مِيرِيتْ وَزِيرَةُ بِرْعَا المُقَدَّمَةْ، وَيْحَكْ !، يَالَهَا مِنْ طَامَّةٍ يَا أَخِي المِسْكِينْ !، مَنْ يَكُونُ رَجُلاً قَتَلْتَهُ؟، لَا تَقُلْ أَنَّهُ المُوَقّرُ سِنِيفْرُو زَوْجُ السّيّدَةْ !

نختنبو: - هُوَ لَا غَيْرَهُ يَا صَدِيقِي وكُلُنَا يَعْرِفُ فَضْلَهُ وتَفَانِيهِ فِي خِدْمَةِ مِصْر، ثُمَّ إِنَّهُ مُكَلَّفٌ مِنْ قِبَلِ بِرْعَا، ولَمْ يَطْلُبْ مَنْصِباً يَرَاهُ مِنْكَاوُ خَطَرَاً عَلَيْهِ أَوْ مُنَافِسَاً، وشَتَّانَ بَيْنَ الكَهَانَةِ وبَيْنَ أَعْمَالِ الإِصْلَاحِ الزِّرَاعِيِّ الّتِي أَخَذَهَا الرَّجُلُ عَلَى عَاتِقِهِ فِي إِخْلَاصْ، فَأَيْنَ مَكْمَنُ العَدَاءِ إِذَنْ؟

أحمس: - فِي غِيَابِكَ جَلَسْتُ أُوَازِنُ بَيْنَ مفْهُومِ الوَطَنِيَّةْ، وهَا أنْتَ تُثْبِتُ لِي قَنَاعَتِي فِي اخْتِزَالِ السَّاسَةِ الوَطَنَ فِي " هُمْ "، بَيْنَمَا تَنْخَدِعُ الشُّعوبُ فَتَعْبُدُ صَنَمَاً لَا يَرَوْنَ المُنْتَفِعِينَ مِنْ خَلْفِهْ .. والقَائِدُ إسْفِينِيسْ، أَتُرَاهُ ضَالِعَاً فِي هَذِهِ الجَرِيمَةْ

نختنبو: - إنَّ غَدَاً لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ يَا أَحْمُس، تَكَتَّمْ الأَمْرَ حَتَى نَعُودُ ولَسَوْفَ تَتَجَلَّى الحَقِيقَةْ .

عَاوَدَهُمَا الصَّمْتُ كَأنَّ عَلَى رَأْسَيْهِمَا الطَّيْرُ يَنْهَبَانِ الطَّرِيقْ، وقَدْ سَلَبَ الهَمُّ الدِّعَةَ فَزَايَلَتْهُمَا مُتَعُ الدُّنْيَا كَهَارِبَيْنِ لَا يَقَرُّ لَهُمَا قَرَارْ، ويُشَارِكُهُمَا اللّيْلُ الحُزَنَ والصَّمْتَ، لَيْسَ إلَّا وَقْعُ المَطَايَا مُكَرَّرٌ ورَتِيبٌ يَنِدُّ كَأَيَّامٍ كَالِحَةْ .

تَمَطَّى النَّهارُ وشَرَعَ يَتَنَفَسْ، وحَرَّكَ الجَوْعُ بُطُونَ الصِّيصَانِ فَبَلَّشَتْ شَقْشَقَاتُهَا فِي عَزْفٍ جَمَاعِيٍّ أَيْقَظَ الأُمَّهَاتِ للسَّعْيِّ بِالْحَاحِ نَبَّهَ سَيِّدَةَ الدَّارِ، مَسَحَتْ عَلَى وَجْهِهَا تُزِيلُ عَنْهُ غُبَارَ نُعَاسٍ مَا بَرِحَ يُغْرِيهَا مُصِرَّاً بِالْكَسَلْ، فهَبَّتْ هَارِبَةً مِنْ دَغْدَغَتِهِ المُغْرِيَةْ، وفَتَحَتْ نَافِذَةَ الغُرْفَةِ فَانْدَفَعَ الضَّوْءُ ونَسِيمُ الصَّبَاحِ اللّطِيفِ

بِسُرْعَةْ، كَطِفْلَيْنِ مَلَّا اللَّهْوَ فِي الشَّوَارِعْ، فَعَادَا جَائِعَينِ مَنَ اللّعِبْ، ويَتَمَلْمَلَ "هِنِفَرُ" فِي فِرَاشِهِ مُعْتَرِضَاً دُونَ أَنْ يَنْبِسْ، اتَّجَهَتْ صَوْبَهُ كَسْلَى فِي رِفْقٍ وطَبَعَتْ فَوْقَ جَبِينِهِ قُبْلَتَهَا الحَانِيَةْ، وجَلَسَتْ تُدَاعِبُ شَعْرَهُ المُجَعَّدَ بِأَظَافِرِهَا فِي لُطْفٍ حَتَّى يَفْتَحَ للنُّورِ عَيْنَيْهْ، هَذِهِ عَادَتُهَا مَعَهُ حَتَّى اعتَادَهَا، فَيَقُومُ مِنْ سُبَاتِهِ لَا حَانِقَاً ولَا رَاضِيَاً لَكِنَّهُ مُمْتَنٌّ جِدَّاً لِطِيبَتِهَا، وإطْمَأَنَّتْ "مَاعِتُ" حِينَ جَلَسَ فِي فِرَاشِهِ وهُوَ يقَبِّلَ يَدَهَا فِي امْتِنَانْ، فَتَرَكَتْهُ لِطُقُوسِهِ الصَّبَاحِيَّةِ وانْطَلَقَتْ لِشَأنِهَا فِي نَشَاطٍ تُعِدُّ لَهُمَا طَعَامَ الإفْطَارْ، "مَاعِتْ" الجَمِيلَةُ وقَدْ مَرَّ بِهَا العُمْرُ مُسْرِعَاً وخَطَا بِهَا نَحْوَ الخَمْسِينْ، يَاهْ أَيّها العُمْرُ .. مَتَى أَمْسَيْتَ بِالعِيَالِ عَجَائِزَاً فِي

غَفْلَةْ، كَيفَ تَخْدَعُ طِفْلَةً أَغْمَضَتْ جُفُونَهَا فِي لُعْبَةِ الغُمِّيضَةْ، تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا فَتُنْكِرَ هَؤُلَاءِ الفَانِينَ مَنْ يُشَارِكُونَهَا اللُّعْبَةْ، أَهَذِهِ العَجُوزُ المُخْتَبِأَةُ هِيَ هَامِيسْ؟!، كَيْفَ تُمْسِكُ بثَوْبِ جَدَّةٍ وتَصِيحُ " أَمْسَكْتُكِ" لمُجَرَّدِ أَنَّهَا تَخْتَبِئ، إنّكَ خَادِعُ أَيُّهَا العُمْر، مَضَيْتَ بِهَا قَبْلَ أنْ تُخِيطَ جَيْبَاً مَزَّعَهُ العِيَالُ وَقَبْلَ أَنْ يَفُوزَ أَحَدْ، إنَّهَا لتَتَذَكَّرُ يَوْمَهَا الأَوَّلَ الّذِي وَضَعَتْ قَدَمَهَا فِي تُرْبَةِ هَذَا المَكَانْ، كَجُثَّةٍ حَالَ بِيْنَهَا وبَيْنَ أَنْ تُقْبَرَ شَيءٌ نَزْرٌ مِنْ حُشَاشَةِ الرُوحْ، وكَيفَ اتَّسَعَ حُضْنُ هِنفَرِ الطَّيّبِ لثَلَاثَتِهِمْ كَأَنَّهُ كَانَ هُنَا فَقَطْ لأَجْلِهِمْ، هِنْفَرُ هَذَا المَثَّالُ البَارِعْ الّذِي آثَرَ رَتَابَةَ الرِّيفِ عَلَى ضَوْضَاءِ ممْفِيسْ، هَذَا الطِّيِّبُ القَانِعُ مِنْهَا بالقُربِ، ومُكْتَفِيَاً مِنْهَا زَمَنَاً بِهْ، فَاحْتَضَنَهَا ووَلِيدَهَا ومَنَحَهُمَا اسْمَهُ عَنْ رِضَى نَفْسْ، تتَذَكّرُ اعتِزَالَهُ لَهَا صَابِرَاً عَنْهَا شَفَقَةً بقَلْبِهَا النَّازِفْ، وكَيفَ تَنَازَلَ لسِمِنْدِس عَنْ بَيْتٍ فِي الجِوَارِ لِيبْنِي بهَامِيسَ، تَتَذَكَّرُ هَذَا جَيِّدَاً وكَيفَ أَشفَقَتْ لَهُ امْتِنَانَاً لنُبْلِهِ النَّادِرِ، فَمَنَحَتهُ نَفْسَهَا رَاضِيَةً دُونَ قَلْبِهَا المُهَاجِرْ، هِنفَرْ نَبِيلٌ يُظْهِرُ اقْتِنَاعَهُ بِحُبِّهَا لَه، وهِي تَعْلَمُ مُرُوءَتَهُ جَيّدَاً .

أَعَدَّتْ لَهُمَا إفْطَارَاً مِنْ لَذِيذِ شِهْدِ " بِيرِنْهَا "[1] وقلِيلَاً مِنْ جُبْنِ الضَّأْنِ والقِشْدَةْ، وحَمَلَتْهُ إلَى خُوَانٍ بالحَدِيقَةِ الغَنَّاءِ بتَمَاثِيلِ "هِنْفَر" النَّاطِقَةْ، عَادَةٌ لَهُ أَنْ يَمحُوَ نَدَى الصَّبَاحِ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ كَإِلَهٍ يُجَفِّفُ أجْسَادَهَا مِنْ حُمُومْ، إبْتَسَمَ لَهَا حِينَ لَمَحَهَا قَادِمَةْ، وتَخَلَّى عَنْ خَلْقِهِ الكُثْرِ وانْصَرَفَ إلَى إلَهَةِ الجَمَالِ القَادِمَةْ.

جَلَسَ قُبَالَتَهَا كَعَابِدٍ يُغْنِيهِ النُّورُ عَنْ الطّعَامِ سَادِرَاً، فَبتَسَمَتْ لَهُ فِي دَلَالٍ وهِيَ تَرْزُقُهُ مِلْعَقَةَ العَسَلْ، إنّهُ لَيَعُدُّ كُلَّ مَا يَنِدُّ عَنْهَا رِزْقَاً يَبُوسُهُ فِي حَمْدِ عَبْدٍ شَاكِرْ، رَنَتْ مَاعِتُ إلَيْهِ فِي تَسَاؤُلٍ وهِي تُنْصِتُ لِجِيَادٍ تَقْرَعُ

[1] بنها

الآذَانَ تَقْتَرِبْ، خَفَقَ قَلْبُهَا لخَاطِرٍ قَدْ يَصْدُقْ، يَا آمُونَ القَاسِي الفُؤَادْ، أَهَلْ نَسِيتَ فَهَرَشْتَ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ رَحْمَتَكْ؟!

ماعِتْ: - هِنفَرْ .. أَيَكُونُ مَا خَطَرَ لِي صَحِيحاً يَا عَزِيزِي؟

هِنفَرْ: - أَظُنُّهُ يَا جَمِيلَتِي، قَدْ طَالَتْ الغَيْبَةُ هِذِهِ المَرَّةْ يَزْدَادُ وُضُوحاً قَرْعُ الجِيَادِ حَتَّى قَارَبَ اليَقِينْ، فَأَشَاحَتْ نَحْوَ بَابِ السُّورِ تَنْتَظِرْ، لَمْ يَطُلْ وقْتٌ حَتَّى وَقَفَ بالسُّورِ فَارِسَانِ أهْيفَانْ، هُمَا بُغْيَةَ النُّفُوسْ، فَطَارَتْ إلَيْهِمَا "مَاعِتُ" فِي لَهَفْ، وطَارَا إلَيْهَا ذَكَرَا حَمَامٍ يُغْدِقَانِ فَاخِتَةً[1] بِالْقُبَلْ، إرْتَمَى "أحْمُسُ" فِي حُضْنِهَا كَأُمٍ رَؤُمٍ تَعَهَّدَتْهُ بحَنَانِهَا، ثُمَّ أخْلَى لِشَوْقِ

"نِخْتِنْبُو "سَاحَةَ حُضْنِهَا الفَسِيحْ، وأَطْفَأَ شَوْقَهُ "لِهِنفَرْ" فِي حُضْنٍ عَمِيقٍ وانْطَلَقَ لحَنَانِ "هَامِيس" الغَافِلِ حَتَّى اللّحْظَةْ .

سَالَتْ دُمُوعُهُمَا كَمَنْ يُلَطِفَانِ مِنْ جَمْرِ شَوْقِهِمَا المُتَّقِدْ، فَلَمْ يَكُنْ هَذَا الفَارِسُ الجَسُورُ حِينَ ذَاقَ حُضْنَهَا، صَارَ ذَلِكَ الطّفْلُ العَائِدُ مَنْ عِرَاكٍ بِدُمُوعِهِ وبتَبْرِيرَاتِهِ المُسْبَقَةِ اتَّقَاءَ الغَضَبْ، يَهْذِي فِي حُضْنِهَا بِحِكَايَةِ الأَمْسِ، وَلَدٌ لَمْ يَعْرِفْ الجَرِيمَةَ ولَا يُسِيغُهَا، إعْتَرَفَ بالإثْمِ القَانُونِي الّذِي يُبَرِّرُهُ وَطَنٌ وتُنْكِرُهُ مُرُوءَةْ، خَفَّتْ يَدَاهَا وتَرَاخَى جَسَدُهَا حَتَّى كَأَنَهُ يَحْتَضِنُ ثُوْبَاً خَاوٍ مِنْ أُمَّةْ، وصَرَخَتْ فِي صَبَاحٍ نَائِمٍ مَا زَالْ، إنْتَفَضَ بالجِيرَانِ فَجَأَةً إلَى مَتحَفِ "هِنفَر" المِسكِينْ، وتجَمَّدَ الرَّجُلَانِ فِي إنْكَارِ وصَمْت، أسْرَعَ "سِمِنْدِسُ " وابْنَهُ يَمْضِيَانِ بِهَا إلَى الدّاخِلِ وتَتْبَعُهُمَا "هَامِيسُ "فِي صُفْرَةِ المَوْت .

آذَنَتْ الظَّهِيرَةُ بِقَيْظِهَا المُتَحَلِّقِينَ مِنْ حَوْلِهَا، ودَخَلَتْ الشّمْسُ تَأْخُذُ قَيْلُولَتَهَا فَوْقَ سَرِيرِ مَاعِتَ كَمَا عَوَّدَتْهَا رَبَّةُ البَيتْ !، إرْتَمَتْ أَشِعَّةُ مُنْهَكَةُ

[1] حمامه.

بِلَا قَصْدٍ فُوْقَ جَسَدِهَا فَانْتَبَهَ جَفْنَاهَا فِي تَثَاقُلْ، تُقَلِّبُ عَيْنَيْهَا فِي أَطْيَافٍ بِلَا مَعَالِمَ، سَرَتْ فِيهَا رَعْشَةٌ لمَرْأَى وَلَدِهَا الحَبِيبْ، وهَلْ حَقَّاً امْتَدَتْ يَدَاهُ "لسِنِفْرُو" بالسُّوءْ؟، مَاتَ سِنِفْرُو مِنْ زَمَنٍ تُدْرِكُ هَذَا جَيِّدَاً، لَكِنّ اقْتِرَانَ اسْمِهِ "بميريتْ "لَهُوَ مَدْعَاةٌ لشُكُوكِهَا، ولَوْلَا أَنْ قَتَلَهُ "نِخْتِنْبُو "لَكَانَ إحْيَاءً لأَمَلٍ ولَوْ كَانَ بَاهِتَا، فِي الحَالَيْنِ أَنْتِ خَاسِرَةٌ يَا مَاعِتْ، يَالَ شُؤْمَ طَالِعُكِ لَوْ أَنَّهُ هُوَ مُنْيَتُكِ وصِنْوَ رُوحِكْ، أنْتِ لَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَجِدِي فِي نَفْسِكِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْكِ، وَيالَ سُخْرِيَةُ الأَقْدَارِ قَدْ قَتَلَتْ قِطْعَةً مِنْك !، مَاذا فَعَلْتِ لآمُونَ حَتَّى حَكَمَ عَلَيْكِ بالحُزْنِ عُمْرَكِ أَيَّتُهَا البَائِسَةْ؟ .

وَجَدَتْ ضَالّتَهَا حِينَ رَأَتْ طَيْفَ "هَامِيسَ" فَأَشَارَتْ إلَيهَا فَدَنَتْ مُسْرِعَةْ، هَمَسَتْ فِي أُذُنِهَا أَنْ تُخْلِي الغُرْفَةَ

كَيْ تُحَادِثَهَا عَلَى حِدَةْ، فَأَخَذَ" سِمِنْدِسُ" بِيَدِ صَدِيقِهِ "هِنْفَرْ" وكَذَا فَعَلَ أَحْمُسُ بِنِخْتِنْبُو ومَضَواْ فِي حُزْنٍ قَاتِلْ، أَغْلَقَتْ "هَامِيسُ "البَابَ وأَسْرَعَتْ إلَى "مَاعِتَ" فِي جَزَعْ

هَاميس: - مَا خَطْبُكِ يَا عَزِيزَتِي، أهَكَذَا تَفْعَلُ رُؤْيَةُ الأَحِبَّة بِرَهِيفَةٍ كَأَنْتِ؟

مَاعت: - لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا تَفْهَمِينَ يَا هَامِيسْ، يَبْدُو أَنَّ للآلِهَةِ ثَأْرٌ مَعَ مَاعِتْ، إنَّهَا لتُعَاقِبُهَا بِذَنْبٍ لَا تَعْلَمُهْ، أَلَا تَرَيْنَ صَاحِبَتَكِ هَدَفَاً لسِهَامِهَا هَذِهِ مُذْ عَرِفْتِهَا يَا هَامِيسْ؟

هَاميس: - كَيْفَ يَا إمْرَأَةْ؟

ماعت: - أرْجِعِي ذَاكِرَتَكِ إلَى يَوْمِنَا المَشْؤُمِ يَا هَامِيسْ، أَلَمْ يُخْبِرْ هَذَا القَائِدُ يَوْمَهَا السَّيِّدَةَ أَنَّ البَحْرَ قَدْ ابْتَلَعَ فِرْعَونَ ومَنْ مَعَهُ وجُنُودَهُ أَجْمَعِينْ، وأَنَّ نَفَرَاً قِلَّةً مَعَهُ هُمْ مَنْ نَجَواْ فَعَادُوا بِجُثَّةِ الفِرْعَوْنَ أَتَذْكُرِينْ؟

هَامِيس: - ومَنْ يَنْسَى يَوْمَاً هُو يَوْمُ مَشْأَمَةٍ يَا مَاعِتْ، ولَكِنْ إلَامَ تَزْمِينَ يَا مِسْكِينَةْ، ومَا دَعَي هَذَا اليَوْمَ بِشُؤْمِهِ السَّاعَةْ؟

ماعت: - يَبْدُو أَنَّ سِنِفْرُو .. أَقْصِدُ إنَّهُ إحْتِمَالٌ كَبِيرٌ أَنْ يَكُونَ سِنِفْرُو .. قَدْ يكَونُ مِنْ عِدَادِ العَائِدِينَ يَوْمَهَا، قَدْ تَسَرَّعْنَا رُبَّمَا يَا إمْرَأَة عُمِّيَ عَلَيْنَا مِنْ هَوْلِ الخَبَرْ، يَبْدُو أَنَّنَا تَعَجَّلْنَا الحُزْنَ فَعَاقَبَنَا بِصَدَاقَتِهِ العُمْرَ، آهٍ يَا هَامِيسُ لَوْ أَنَّهُ هُوَ، آهٍ يَا هَامِيسُ لَيتَهْ لَا يَكُونُ هُوَ، رَحْمَةً بِمَاعِتَ أَيَّتُهَا الآلِهَةُ العَابِثَةْ،

هَاميس: - مَا هَذِهِ الأَحَاجِيَ الّتِي تَهْذِيْنَ بِهَا يَا مَاعِتْ، ومَنْ آتَاكِ بِخَبَرِكَ هَذَا يَا مَنْ تَعْشَقِينَ الحُزْنَ عِشقَ القِمْرِيَّةِ للنُّوَاحْ؟

ماعت: - نِخْتَنْبُو قَدْ أَتَى مُقِرَّاً بِذَنْبٍ شَنِيعْ، لَمْ يَحْتَمِلْهُ قَلْبُهُ الغَرِيرُ يَا عَزِيزَةَ مَاعِتْ، يَقُولُ أَنَّهُ اغْتَالَ رَجُلَاً صَاحِبَ نُفُوذٍ بِإيعَازٍ مِنْ كَبِيرِ الكَهَنَةْ، أَوْهَمَ المَاكِرُ صَاحِبَ الشَّيطَانِ ابْنِيَ السَّاذَجَ أَنَّ الرَّجُلَ عَدُوٌّ لِبرِعَا، وتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الرَّجُلَ زَوْجٌ للسَّيّدَةِ مِيرِيتْ نِيتْ، وهِيَ الآنَ وَزِيرَةٌ فِي بَلَاطِ البِرْعَا يَا هَامِيسْ، أَرَأَيْتِ مَا تَفْعَلُهُ الأَيَّامْ!، تِلْكَ مُصِيبَةٌ لَا أَحْشَاهَا عَلَى نِخْتِنْبُو مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةْ، وإنْ كَانَتْ تُنَافِي المُرُوءَةَ إلَّا أَنَّهُ مُكَلَّفٌ مَأْمُورْ، الأَدْهَى الّذِي أَخْشَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ يُدْعَى سِنِفْرُو!، فَمَاذَا لَوْ أَنَّهُ هُو يَا صَاحِبَةَ الحُزْنِ مُنْذُ كُنَّا؟

هَاميس: - أَلَا مِنْ سِنِفْرُو فِي صَعِيدِ مِصْرَ مِنْ طِيبَةَ إلَى مَمْفِيسْ؟!، مَجْنُونَةٌ أَنْتِ بِحَقِّ رَعْ، دَعْكِ مِنْ نَفْثِ سِتّْ وعُوذِي بِآمُونْ

مَاعت: - أَ يَكُونُ وَلَدِي قَاتِلُ أَبِيهْ!، وصَرَخَتْ صَرْخَةً مَكْتُومَةً بِحَجْمِ بُرْكَانٍ يَتَكَتَّمُ اللَّظَى!

هَامِيس: - لَهَفِي عَلَى صَدِيقَةِ عُمْرِيَ لَوْ كَانْ !، أَيُّ إمْرَأَةٍ فِي الدُّنْيَا تَتَحَمَّلُ بَلْوَىً قَدْ تَفَنَّنَ آمُونُ فِي سَبْكِهَا؟

ماعت: - عَلَيْنَا أَنْ نَحْتَالَ سَفَرَاً إِلَى هُنَاكَ نَتَحَسَّسُ الحَقِيقَةْ، مِنْ أَجْلِي يَا حَبِيبَتِي أَرْجُوكِ، بَكَتْ وهِيَ تَدْفِنُ رَأْسَهَا فِي صَدْرِ "هَامِيسَ" لَاجِئَةً مِنْ الوَيْل، وشَارِدَةً فِي غَدٍ مُظْلِمْ، وتَحَدَّرَتْ دُمُوعُ "هَامِيسَ " تَسْقِي غَابَةَ رَأْسِهَا اللَّيْلِيِّ فِي أَسَىً صَادِقْ

هَاميس: - لَكِنَّ الأَمْرَ لَا يُصَدِّقُهُ عَقْلْ، ولَوْ عَقْلُ شَاعِرِ كَسِمِنْدِسْ، وهُو هَذَا الوَاسِعُ الخَيَالْ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَفَرَّغَ الآلِهَةُ لِمَاعِتَ عَلَى هَذَا النَّحْوْ فَتَكْتُبُ كُومِيدْيَاهَا الإِلَهِيَّةَ بِكُلِّ تِلْكَ السُّخْرِيَةْ !

ماعت: - أَيُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ عَلَى غَيرِ صَوَابٍ مِنْ أَمْرِي يَا هَامِيسْ، أَمْ شَفَقَةً بِيَ تَكْذِبِينْ؟

هاميس: - بَلْ أَصْدُقُكِ القَوْلَ يَا شَقِيقَةَ الرُّوحْ، فَارْفُقِي بِنَفْسِكِ ولَا تُحَمِّلِي عَزِيزِي نِخْتِنْبُو هَمَّاً إِلَى هَمٍّ يَا عَاشِقَةَ الحُزْنْ، هههههه، أَوَ لَيْسَ اسْمَاً لَائِقَاً بِكْ؟

ماعت: - بَلَى يَا هَامِيسْ، لَيْتَهُ مُسَمَّىً بِلَا دَاعٍ مِنْ حَقِيقَةْ !

هاميس: - لنَتَّفِقَ أَنْ نَدَعَ للأَيَّامِ كَشْفَ الحَقِيقَةْ، ودَعِي لوَلَدِنَا نِخْتِنْبُو جَهْدَاً يَأْتِينَا بالحَقِيقَةْ، فَحْتْمَاً سَوْفَ تَأْتِيهِ وَحْدَهَا عِنْدَمَا يَعُودُ إِلَى ثَكَنَتِهْ، حَتْمَاً يَا عَزِيزَتِي .

هَدَأَتْ "هَامِيسُ" لحَدِيثِهَا، وتَسَرَّبَتْ الطُّمَأنِينَةُ إِلَى قَلْبَهَا حَتَّى غَادَرَهَا الجَزَعْ، تُرجِّعُ فِي نَفْسِهَا حِكْمَةَ "هَامِيسْ" .. (لَكِنَّ الأَمْرَ لَا يُصَدِّقُهُ عَقْلٌ ولَوْ عَقْلُ شَاعِرِ كَسِمِنْدِسْ، وهُو الوَاسِعُ الخَيَالْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَفَرَّغَ الآلِهَةُ لِمَاعِتَ عَلَى هَذَا النَّحْوْ، فَتَكْتُبُ كُومِيدْيَاهَا الإِلَهِيَّةَ بِكُلِّ تِلْكَ السُّخْرِيَةْ) .

بِلا قِنَاعْ

أَفْلَحَ "إسْفِينِيسُ" فِي تَجْيِيشِ عِدَّةِ آلَافٍ فَوْرَ تَكْلِيفِهِ مِنْ قِبَلِ " بِرْ عَا " مِصْرَ المَعْبُودَةْ، وأَفْنَى وَقْتَهُ فِي النُّهُوضِ مِنْ هَذَا الفَرَاغ العَامِ الذِي تَعِيشُهُ مَمْفِيسْ، دَرَّبَهُمْ حَتَّى أَجَادُوا وقَامَ بِتَوزِيعِهِمْ عَلَى الثُّغُورْ، وإنْ رَأَى اقْتِنَاعَ "دَلُوكَا" بِسِحْرِ وبَرَابِي " تَدُّورَةْ "، إلَّا أَنَّهُ مَا اقْتَنَعَ يَوْماً تَمَامَ الإقْتِنَاعِ أَنْ يكُونَ دِرْعُ مِصْرَ سِحْرُ سَاحِرْ، فَبَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا قَدْ أَصْبَحَ الضَّابِطَ الأَوّلَ فِي عُمُومِ البِلَادْ، الأمْرُ الَّذِي فَرَضَهُ وَاقِعُ الحَالْ، وهَذَا صَادَفَ رَجُلاً عَلَى قَدْرٍ مِنْ رُؤيَةٍ ومِنْ إخْلَاصْ، ظَهَرَ مَنْهَجُهُ فِي أَنَّ الجُنْدِيَّةَ رَغْبَةٌ لَا جَبْر، لهَذَا اعتَنَقَ مَبْدَأَ التَّطَوُّعِ فِي تَكْوينِ جَيشِهِ النَّاشِئْ، فَتَكَالَبَ إلَيْهِ مَنْ يَعْشَقُونَ الفُرُوسِيَّةَ مِنْ نَاشِئِي البِلَادِ عَنْ حُبٍّ يصْنَعُ مِنْهُمْ رِجَالاً ومِنْ كُلِّهِمْ أَبْطَالَا، فَتَحَقَّقَ لَهُ حُلْمٌ أَرَادَهُ لمِصْرَ، والَّتِي قَدْ بَدَأَتْ أُولَى خُطُوَاتِهَا بِثِقَةٍ نَحْوَ وَلَاءٍ لِنَفْسِهَا، تَمَثَّلَ فِي وَلَاءِ جَيْشِهَا لشَعْبٍ شَكَّلَ الجَيشْ، ومَا الأَرْضُ إلّا شَعْبَاً عَلَى الحَقِيقَةْ، ومَا الفِرْعَوْنُ إلَّا عَبَاءَةً تَجْتَمِعُ تَحْتَهَا الجُمُوعُ مَا أَوْفَى للجُمُوعْ، هَا هُوَ الآنَ وَسْطَ الأَلَآفِ مِنْ جُنُودٍ مُتَفَاوِتِي الأَعْمَارْ، فِي حَرَسٍ فِرْعَوْنِيٍّ مُطْمَئِنَّاً بَعْضَ الشَّيْءِ ليَوْمِهِ ومُأَمِّلَاً فِي غَدِهِ الأَفْضَلْ، ولأَجْلِ هَذَا كَانَ حَانِقَاً وخَائِفَاً أَنْ يَكُونَ ضَابِطَاً "كَنِخْتِنْبُو" قَدْ تَوَرَّطَ فِي دَنَاءَةٍ شَخْصِيَّةٍ بِاسْمِ الوَطَنْ، فجَلَسَ إلَى طَاوِلَةٍ فِي ثَكَنَتِهِ يَقْتُلُهُ انْتِظَارُ نِخْتِنْبُو، ويَسَائِلُ نَفْسَهُ عَمَّ قَدْ حَلَّ بِصَدِيقِهِ "سِنِفْرُو"، وهَلْ لنِخْتِنْبُو عَلَاقَةٌ بالأَمْر، فَلَا يَرَى مِنْ سَبَبٍ يُثِيرُ حَفِيظَةَ هَذَا الْ " مِنْكَاوُ " الخَبِيثُ تِجَاهَ رَجُلٍ مُتَفَانٍ فِي خِدْمَةِ البِلَادْ، وعَنْ حُبٍّ ووَفَاءٍ صَادِقَيْن، إحسَاسٌ قَوِيٌّ واعْتِقَادٌ لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ أَنَّهُ وَرَاءَ الحَادِثْ، إنّهُ ليَتَذَكَّرُ جَيِّدَاً يَوْمَ عَادُوا يَحْمِلُونَ جُثَّةَ المَلِكِ، يَوْمَهَا رَأَى خَوْفَ " مِنْكَاوٍ " فِي سُؤَالِهِ لَهْ .. " أَ مُطْمَئِنٌ إلَى هَؤُلَاءِ أَيُّهَا القَائِدْ؟

"، فالرّجُلُ يَوْمَهَا كَانَ خَائِفَاً عَلَى نُفُوذِهِ أَكْثَرَ مِنْ اهْتِمَامِهِ لأَمْرِ الفِرْعَونْ، فَبَدَتْ لَهُ جُمْلَتُهُ نَوْعَاً مِنْ إثَارَةِ واخْتِبَارِ شَهْوَتِهِ للسُّلْطَةْ، هَذَا إنْ كَانَ سَاوَرَهُ الإيمَانُ "بمُوسَى"، فَزَادَهُ حِرْصَاً مِنْ أَلَاعِيبِ الكُهَّانِ الّتِي يَعْلَمُهَا جَيِّدَاً .

مِنْ وقْتِهَا يَتَكَاتَفُ المُخْلِصُونَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ الفَارِغَةَ مِنْ قُوَّتِهَا وقُوتِهَا فِي التَّخَفِّي بِهَا عَنْ جَوَارِحِ تترَصَّدُ أَمْنَهَا، فَمَا زَالتْ فَرْخَ عُقَابٍ أُوشَكَ زَغَبُهُ أَنْ يَسْتَحِيلَ رِيشَاً، لَيْسَ هَذَا وَقْت المُؤَآمَرَاتِ يَا كَهَنَةَ السُّوءْ.

طَالَ بِهِ انْتِظَارُهُ فَلَمْ يَرَ بُدَّاً مِنَ الخُرُوجِ لِأَمْرِ "دَلُّوكَا "، إسْتَدْعَى حَارِسَهُ وهَمَّ أَنْ يَتْرُكَ لَهُ أَمْرَ اسْتِدْعَاءِ "نِخْتِنْبُو" فَوْرَ رُجُوعِهْ، لَكِنَّهُ لَمَحَ "نِخْتِنْبُو" مُسْرِعَاً إلَيهِ فِي وَجْهٍ كَالِحْ،

نختنبو: - عِمْتَ مَسَاءً سَيِّدي القَائِدُ إسفِينِيسْ

القائد: - إمْتَطِي جَوَادَكَ واتْبَعْنِي، فَقَدْ أَوْشَكَ مَوْكِبُ "بِرْ عَا" أَنْ يتَحَرَّكْ، هَيّا كَي نَكُونَ فِي شَرَفِ اسْتِقْبَالِهَا، ولنَتَحَدَّثْ فِي أَمْرٍ خَلَالَ الطَّرِيقِ أَيُّهَا الضَّابِطْ

نختنبو: - الطَّاعَةُ لِسَيِّدِي القَائِدْ، ورَكِبَ مِنْ لَحْظَتِهِ وسَارَ مِنْ خَلْفَ سَيِّدِهِ صَامِتَاً مُرْتَابَاً، لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ ذَنْبِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخَافُ عَفْوَ سَيِّدِهْ، لَا يُحِبُّ لَهُ أَخْلَاقَ الثَّعَالِبِ وهُو المِثَالْ، نَعَمْ قَدْ خَالَفَ مَا رَبَّاهُ عَلَيْهِ قَائِدُهُ لَهُوَ بالأَمْرِ الوَارِدْ، لَكِنْ أَنْ يخُونَ القَائِدُ مَبْدَأَهُ لَهِيَ القَاضِيَةْ، كَمْ تَمَنَّى أَنْ يُوَبِّخَهُ "إسْفِينِيسُ" حَالاً، أَوْ أَنْ يُنْزِلَ بِهِ نِقْمَتُهْ، كُلَّمَا أَمْعَنَ القَائِدُ فِي صَمْتِهِ المَقْصُودِ عَظُمَ ارْتِيَابُهْ، وعَاوَدَهُ ظَنُّهُ السَّيِّءُ تِجَاهَ القَائِدِ الحَبِيبْ، أَخِيرَاً إنْتَهَى بِهِمَا الطَّرِيقُ إلَى قَصْرٍ يَعْرِفُهُ رَغْمَ ظَلَامِ لَيْلَةٍ مَشْؤُمَةْ، هُوَ نَفْسُ المَكَانِ الّذِى غَادَرَ فِيهِ طَرِيدَتَهُ فَرِيسَةَ المَوْت، ورَجَاءً للْحَيَاةِ لَيْسَ يَدْرِي أَيُّهُمَا ظَفَرْ، بِأَسَىً وَقَفَ إلَى جِوَارِ القَائِدِ "إسْفِينِيس" رَاجِيَاً عِقَابَاً لَا عَفْوَا، وطَا مِنْ رَأْسِهِ "إسْفِينِيسُ" تَحِيَّةً

لِمَرْأى مِيرِيتْ التّي خَرَجَتْ فِي إستِقْبَالِ القَادِمَيْن، بَيْنَمَا قَدْ نَكَّسَهَا "نِخْتِنْبُو "خَجَلاً .

وَ عَلَى البُعْدِ يَتَهَادَى مَوْكِبٌ لَيْسَ بالبَاذِخْ " لِبرْعَا "، يَحُفُّهُ كَاهِنَيْنِ عَنْ يَمِينٍ وعَنْ شَمَالٍ يَخْطُرُ فِي وَقَارٍ يَلِيقُ بالمَلِكَةْ، وأَخَذَ يَقْتَرِبُ حَتَّى وَقَفَ بأَعْتَابِ القَصْر، وهَرْوَلَ الكَهَنَةُ الأَرْبَعَةُ يِصْطَفُّونَ قُبَالَةَ" مِيرِيتْ نِيتَ" ومُرَافِقَيْهَا لَتَحِيَّةِ "برِعَا"، إمْتَعَضَتْ أَسَارِيرُ "نِخْتِنْبُو "جَزَعَاً لمَرْأى "مِنْكَاوْ" والَّذِي تَعَمَّدَ تَجَاهُلَهْ، لَاحَظَ "إسْفِينِيسُ" هَذَا فبَاتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ شُكُوكِهْ، تَرَجَّلَتْ "دَلُّوكَا" فَوقَ بُسَاطٍ تَبَارَكَ بِقَدَمَيْ المَلِكَةَ، فَانْحَنَى لَهَا الوَاقِفُونَ إجْلَالاً وتَأدُّباً، حَتَى تَخَطَّتْهُم فِي أُبَّهَاءِ المُلْكِ فَاعْتَدَلُوا خَلْفَهَا نَحْوَ الدَّاخِلِ، جَلَسَتْ المَلِكَةُ وهُمْ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِهَا، وتَوَجَّهَتْ بحَدِيثِهَا إلَى رَبَّةِ المَكَانِ فِي إشْفَاقٍ صَادِقْ:

المَلِكَةْ: - مَا أَخْبَارُ عَزِيزُنَا سِنِفْرُو يَا مِيرِيتَ المُخْلِصَةْ؟

مِيرِتْ: - الحَمْدُ لخالِقِ الوَادِي حَامِي مِصْرَ العَظِيمْ، مَا زَالَ الطَّبِيبُ بتَاحُ يُجَاهِدُ جُرْحَهُ وهُوَ بَيْنَ إغْمَاءَةٍ وإفَاقَةْ، إنَّ الجُرْحَ قَاتِلٌ يَا مَوْلَاتِي وعَلَى الرَّبِّ الشِفَاءْ

مِنْكاو: - إنّهُ لَحَادِثٌ آلَمَ قُلُوبَنَا يَا سَيِّدَتِي الكَرِيمَةَ مِيرِيتْ نِيتْ، فَالعَزِيزُ سِنِفْرُو فِي صَدْرِ المُتَفَانِينَ مِنْ أَجْلِ مِصْرَ نَعْلَمُ حَقًّا

القَائِد: - نَعَمْ أَيُّهَا المُوَقَّرُ وهَذَا مَا يَنْفِي أَنَّهُ مُجَرَّدُ حَادِثٍ أَلِيمْ !

مِيرِيتْ - هَذِهِ قَنَاعَتِي أَيُّهَا الشُّجَاعُ إسفِينِيسْ، إنَّهَا مُؤَامَرَةٌ سَوْفَ تَكْشِفُ عَنْهَا الأَيَّامْ

المَلِكَة: - ومَنْ لَهُ مَصْلَحَةٌ فِي اغْتِيَالِ شَرِيفٍ كَسِنِفْرُو؟

مِنْ كَاو: - لَوْ صَحَّ هَذَا فَهُوَ اتّهَامٌ لَا يَخْرُجُ عَنْ إشَارَةْ، ثُمَّ وهُوَ يَنْظُرُ إلَى المَلِكَةِ ومَا لَدَى عَزِيزَنَا سِنِفْرُو يُصَارِعُهُ عَلَيْهْ طَامِعْ؟

ليُفْصِحْ سَيِّدِي القَائِدُ عَنْ مَقْصِدِهِ فَكُلُّنَا مُتَّهَمُونَ إذَنْ .

القَائِدْ: - لَيسَ اتّهَامَاً لشَخْصٍ بَعَيْنِهِ أَيُّهَا المُوَقَّرُ حَاشَاكْ، إنّمَا مُجَرَّدُ نِقَاشٍ وتَحْلِيلٍ للدَافِعِ مِنْ ورَاءِ الحَادِثْ، نَحْنُ هُنَا نُحَاوِلُ أَنْ نَبْنِي مَا هَدَمَتْهُ الرّيحُ بِيَدٍ وَاحِدَةْ، فَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَبَدَاً أَنْ نَجْنَحَ إلَى مَثْلِ هَكَذَا خِلَافَاتٍ أَيَّهَا المُوَقَرْ، نَعْمَلُ مَعَاً هُنَا لِتَجْذِيرِ غَرْسَنَا قَبْلَ أَنْ يَرْعَاهُ الرُّعَاءْ، لِهَذَا لَابُدَ أَنْ يُعْرَفَ القَاتِلُ فَيَنَالَ عِقَابَهْ، إنّ سِنِفْرُو لَيسَ بالفَرْدِ العَادِيّ يَا مَوْلَاتِي، فَهُوَ أَحَدُ أَهَمّ البَنَّائِينَ لِدَوْلَتِنَا ونَحْنُ نُعِيدُ تَكْوِينَهَا .

مِيرِتْ: - مَا كَانَ لِي أَنْ أَتْرُكَ دَمَهُ أَيَّهَا الشَّرِيفُ إسْفِينِيسْ، بَلْ فَقَطْ صَبْراً لِيَتَعَافَى سِنِفْرُو ولِيَكُنْ لَنَا شَأنْ

المَلِكَةْ: - لَا عَلَيْكِ عَزِيزَتِي مِيرِيتْ، لنَدَعْ قَائِدَنَا يَتَحَرَّى أَمْرَهُ وأَنْتِ لتَفْرُغِي لشَأنِ زَوْجُكْ .

كَانَ "نِخْتِنبُو" يُتَابِعُ الحِوَارَ بِذِهْنٍ حَاضِرٍ وقَلْبٍ مُضْطَّرِبْ، يَتَعَارَكُ فِي جَوْفِهِ خَوفٌ وسَعَادَةْ، كَانَ سَعِيدَاً مِنْ تَلْمِيحِ قَائِدِهِ للحُضُور ممَّا يَعْنِي أَنَّ الرَّجُلَ لَا صِلَةَ لَهُ بِتَدْبِيرِ الكَاهِنْ، وفِي خَوْفٍ مِنْ عِقَابٍ يَسْتَحِقُّهُ غَيْرَ أَنَّهُ لَنْ يُحْجِمَ عَنْه، وأَدْرَكَ أَنَّ "إسفِينِيسَ" يَمُدُّ لَهُ فَضِيلَةَ الإعْتِرَافْ، وحِفْظَاً لمُرُوءَةِ إبْنِهِ فِي الجُنْدِيَّةِ وفُرْصَةً لاسْتِرجَاعِ شَرَفَهُ العَسْكَرِيَّ ولَو كَانَتْ العَاقِبَةُ رَأسُهْ .

وَقَفَ يَعْلُو صَدْرُهُ وينْخَفِضُ بَيْنَ رَغْبَةٍ وإحْجَامْ، يُرَاقِبُهُ "إسفِينِيسُ" فَرِحَ النَّفْسِ لِأَمَارَاتٍ تَكْسُو وَجْهَهْ، قَدْ اسْتَشَفَّ مِنْهَا لَسْعَ الضَّمِيرْ، ويُرَاقِبهُ الكَاهِنُ مُرْتَعِشَ الفُؤَادْ، إنَّ مَصِيرَهُ وهَيْبَتَهُ لَرَهِينَةُ غُلَامٍ غِرٍّ قَدْ وَضَعَ ثِقَتَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ فِيهْ، هَلْ يَفْعَلُهَا الفَتَى فَيَسْقُطُ عَرْشَهُ فِي قُلُوبِ الرَّخِيتِ أَبَدَا؟

تعَلَقَتْ عَينَاهُ بالفَتَى نِخْتِنْبُو فِي إشْفَاقْ، وبَلَغَتْ حُلْقُومَهُ الرُّوحُ جَزَعَاً فأمْسَى مُسْتَسْلِمَاً لاعْتِرَافِهِ القَاتِلْ .

أَخِيرَاً تَكَلَّمَ " نِخْتِنْبُو ":

_ أَتَسْمَحُ مَوْلَاتِيَ المَعْبُودَةُ بِرْعَا لِعَبْدٍ مَنْ رَعَايَاهَا بِالحَدِيثْ؟

برْعَا: - تَكَلَّمْ أَيُّهَا الضَّابِطُ الشُّجَاعْ، فَمَا أَرَاهُ إسْفِينِيسُ مُقَرِّبُكَ إلَّا ثِقَةً فِيكْ وَإيمَانَاً بِشَجَاعَتِكْ

نِخْتِنْبُو: - لَيْلَتَهَا يَا مَوْلَاتِي كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ مُسَافِرَاً لأَجَازَةٍ كَمَا يَعْلَمُ سَيِّدِي القَائدْ، وتَصَادَفَ وأنَا فِي انْتِظَارِ رَفِيقَ رِحْلَتِي، صَادَفَ أَنْ جَلَسْتُ إلَى حَانَةٍ عَلَى مَشَارِفِ المَدِينَةِ أَقْتُلَ الوَقْتَ رَيْثَمَا يُوَافِينِي الرَّفِيقْ، لَمْ أَتَبَيَّنْ مَلَامَحَ رَجُلَيْنِ تَنَامَى هَمْسُهُمَا إلَى سَمْعِي يَا مَوْلَاتِي المَعْبُودَةْ، وفِيمَا فَهِمْتْ أَنَّ وَاحِداً مِنْهُمَا مَدِينٌ للآخَرْ، وكَانَ يُلِحُّ عَليهِ بسَمَاجَةِ الدَّائِنِينَ المَعْهُودَةْ، وتَحْتَ وَطْأَةِ الإلْحَاحِ زَلَّ لِسَانُ الرَّجُلْ، نَعَمْ أَتَذَكَّرُ مَا قَالَهُ يَا سَيِّدَتِي، فِي بُكَاءِ النّادِمِ قَال لدَائِنِهْ:

" قَتَلْتُ رَجُلَاً شَرِيفَاً يَا رَجُلَ مِنْ أجْلِ مَالِكَ اللّعِينْ، ولحَظِّيَ العَاثِرِ لَمْ يُسْقِطْهُ الجَوَادْ، بلْ نَجَى بِهِ حَتَّى دَخَلَ حَدِيقَةَ بَيْتِهْ، جُثَّةٌ أَمْ جَرِيحٌ لَا أَدْرِي، أَكُنْتُ أَلَاحِقُهُ إلَى مخْدَعِهِ حَتّى تَرْضَى أَيُّهَا السَّمحْ، نَعَمْ هَذَا مَا سَمِعْتُهُ بالحَرْفِ أَيُّهَا السَّادَةْ، ثُمَّ إنِّي انْشَغَلْتُ عَنْهُمَا بقُدُومِ صَاحِبِي فَنَسِيتُ أَمْرَهُمَا، لَأَنَ الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْنِينِي ،

واتَّخَذْنَا طَرِيقَنَا إلَى وِجْهَتِنَا، لَكِنْ عِنْدَمَا بَلَغَنِي خَبَرُ مَوْلَايَ سِنِفْرُو أَيقَنْتُ أَنَّ حَدِيثَهُمَا إنَّمَا كَانَ مِحْوَرُهَا حَادِثٌ يَخُصُّ مَوْلَايَ، وعَلَى عَاتِقِي يَقَعُ البَحْثُ عَنْ قَاتِلِهْ .

وَكَأَنَّ السَّمَاءَ أَشْتَتْ رِضَىً فَوْقَ رَأسِ الكَاهِنِ الحَلِيقْ، وتَبَادَلَ مَعَ "نِخْتِنْبُو" امْتِنَانَاً صَادِقَاً عَبْرَ نَظَرَاتِهِ الشَّاكِرَةِ المَاكِرَةْ، ولَمْ يُبْدِ اهْتِمَامَاً كَيْلَا يُثِيرَ شُكُوكَ "إسْفِينِيسُ" رَغْمَ أَنَّهُ شُوهِدَ مُرَحِّبَاً بالرِّوَايَةْ

المَلِكَةْ: - إذَنْ فَلَا ضَغِينَةَ أَوْ صِرَاعَاً سُلْطَوِيَّاً وَرَاءَ الحَادِثِ عَلَى قَوْلِ نِخْتِنْبُو أيُّهَا المُخْلِصُ إسْفِينِيسْ ،

عَجَبَاً كَادَ سِنِفْرُو يَمُوتُ لِقَاءَ حِفْنَةٍ مِنْ مَالٍ إذَن، ثُمَّ هَمَّتْ وَاقِفَةً وهِيَ تُرْدِفُ:

الملكة: - عَلَى عَاتِقِ قَائِدِنَا الهُمَامِ مَسْؤُلِيَةَ القَبْضِ عَلَى القَاتِلِ الدَّنِيءْ .

وَ مَضَتْ نَحْوَ الخَارِجِ دَاعِيَةً لَهُ آمُونَ بالشِّفَاءْ، وتَبِعَهَا المَلَأُ يُرَدِّدُونَ آمِين .

إنْطَلَقَ المَوْكِبُ "بالبِرْعَا" يَنْشَطُونَ إلَى القَصْرِ وفِي صُحْبَتِهِ كَهَنَةُ آمُونَ كَهَيْئَتِهِمْ فِي قُدُومِهِمْ، ويُشَيِّعُهَا ثَلَاثَتُهُمْ وفِي قَلْبِ كُلٍّ مِنْهُم بُرْكَانَاً يُرِيدُ أَنْ يَغْضَبْ .

فَمَا غَابَ المَوْكِبُ حَتَّى انْفَجَرَ بُرْكَانُ "مِيرِيتْ" صَائِحَةً فِي وَجْهِ "إسْفِينِيسْ "

ميري: - أَرَأَيْتَ هَذَا المُنَافِقَ وكَيفَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عِلَّتِهِ مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَيِّدْ إسْفِينِيسْ، كَادَ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا لَوْلَا حِكَايَةُ صَاحِبُكَ الَّتِي لَمْ تُقْنِعُنِي نَظَرَ القَائِدُ نَحْوَ مَرْؤُسِهِ فِي أَسَىً وهَمَّ بالحَدِيثْ، غَيْرَ أَنّ " نِخْتِنْبُو " قَدْ قَاطَعَهُ فِي رَجَاءِ المُشْفِقْ

نخْتِنْبُو: - سَيِّدِي يَعْلَمُ أَنِّي أَكَذِبْ، ولَكِنْ لتَسْمَحَ لِي بالشَّرحِ ثُمَّ لكَ الحُكْمُ فَدُونَكِ الرَّقَبَةَ،

القَائِدْ: - مَا سُكَاتِي عَنْكَ إلّا رَجَاءَ ظَنِّي، إشْرَحْ أَيُّهَا الشُّجَاعُ ولَكِنْ لَا تُخَيِّبْ رَجَائِي فِيكَ

نخْتِنبُو: - المُؤَامَرَةُ لَهَا مَا بَعْدَهَا يَا سَيّدِي، ولَنْ تَقِفَ عِنْدَ دَمِ سَيِّدِي سِنِفْرُو، بِحِكَايَتِي هَذِهِ الكَاذِبَةْ، قَدْ مَدَدْتُ حِبَالَ الثِّقَةِ مَا بَينِي وبَيْنَ هَذَا الأُفْعُوَانْ، لنَرَى أَبْعَادَ مَكْرِهْ

القَائِدْ: - وهَلْ يُسِيغُ مَاكِرٌ كَهُوَ حِكَايَةً مُهَلْهَلَةً كَمِثْلِهَا؟ مَا أَرَى بِرْعَا قَدْ أَقْنَعَتْهَا الحِكَايَةْ، إنَّمَا تَنَاوَمَتْ لِشَيءٍ مَا فِي نَفْسِهَا، أنَا عَلَي يَقِينٍ مِنَ اسْتِدْعَائِي فِي غَدٍ قَرِيبٍ بِخُصُوصِ رِوَايَتِكْ

نِخْتِنبُو: - سَيِّدِي .. فِي يَقِينِ الكَاهِنِ الآنَ أَنَّنِي أُبَرِّؤُ نَفْسِي بتَبْرِأَتِي لسَاحَتِهْ، هُوَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ تَوَتُّرِي، وأَنَّ أَيَّ لَغْوٍ سَيتَقْبَلُهُ عَنْ رِضَىً وأَنَا أَتَحَمَّلُ وِزرِي كَامِلاً بعْدَهَا .

مِيرِيت: - أَنْتَ أَدَاتُهُ القَذِرَةُ يَا هَذَا إذَنْ، كَيفَ تَجْرُؤُ أَنْ تَبُوءَ بإثْمِكَ أَمَامِي بِهَكَذَا بَسَاطَةْ؟، وهَجَمَتْ عَلَيْهِ كَلَبُوءَةٍ أَكَلَ الضَّبْعُ جِرَاءَهَا فِي اسْتِسْلَامٍ مِنْهُ وأَدَبٍ جَمٍّ مِنْ "إسفِينِيسْ"، حَتَّى هَدَأَتْ سَوْرَتُهَا، إرْتَدَّتْ عَنْ جِيدِهِ بأَظَافِرٍ أَخَذَتْ نَصِيبَهَا، وفِي إعْيَاءٍ إرْتَمَتْ إلَى كُرْسِيِّهَا يَقْتُلُهَا الحُنْقُ، فِيمَا رَاحَ" نِخْتِنْبُو" يُقَبِّلُ ذَيلَ ثَوْبَهَا آسِفَاً، وتَطْفَحُ عَينَاهُ بِدَمْعِهِ الصَّامِتِ قَائِلاً:

نخْتِنْبُو: - خَدَعَنِي يَا مَولَاتِي بِقَوْلِهِ أَنَّ هَذَا العَمَلَ لصَالِحِ مِصْر، حَدَّدَ \ لِي المَكَانَ وأَخفَى عَنِّي هَوِيَّةَ سَيِّدِي سِنِفْرُو، ومَا نَالَتْهُ يَدِي بِسُوءٍ وأَنَا عَارِفٌ بِشَخْصِهْ، لَكِنَّهُ عَهْدِي لمَوْلَاتِي أَنْ أَهَبَهَا عُنُقِي، فَقَطْ لتَدَعْنِي أَقِفُ عَلَى مُخَطَّطِهِ لرُبَّمَا يَنَالُ مِنْ آخَرِينَ وتَحْدُثُ البَلْبَلَةُ الَّتِي نَتَّقِيهَا .

مِيرِيتْ: - كَانَ بإمْكَانِكِ مِنْ سَاعَةٍ أَيُّهَا المَقِيتُ أَنْ تَفْعَلْ

نِخْتِنْبُو: - رَأسُ الأَفْعَى مَنْ كَانَ بِأَيدِينَا، لَو قَطَعْنَاهُ لَظِلَّ جَسَدَهَا حَيَّاً فَيَنْمُو لَهُ أَلْفُ رَأْسْ

القَائِدْ: - أَصَابَ نِخْتِنْبُو فِي هَذِهِ يَا مَوْلَاتِي، لَكِ عَهْدٌ أَنْ أُقَدِّمَ رَأْسَهُ لِعَدَالَتِكِ فَوْرَ مَا قدْ يُنْهِي مُهِمَّتَهْ،

وَ بشَرَفِي أَعِدُ مَوْلَاتِي

مِيرِيتْ: - لَكَ مَا شِئْتَ إِسْفِينِيسُ العَزِيزْ، فَقَطْ لَا تَقَعَ عَينَايَ عَلَى هَذَا الغَوِيَّ حَتَّى حِينَهَا، إِنْحَنَى القَائِدُ شَاكِراً تَعَاوُنَهَا رَغْمَ المُصَابْ، واسْتَأْذَنَهَا فِي أَسَفٍ صَادِقٍ ومَضَى خَارِجَا، وعَلَى أَثَرِهِ "نِخْتِنْبُو "مُتَثَاقِلاً فِي حُزْنِهِ العَمِيقْ .

إِمْتَطَيَا فَرَسَيْهِمَا يُغَالِبُ كُلٌّ مِنْهُمَا شَجَنَهْ، ويَبْتَعِدَانِ فِي كَسَلِ المُتْعَبِ رُوِيداً رُوَيْداً لَا يَجْمَعُهُمَا حَدِيثْ، ويَرْفُلُ "نِخْتِنْبُو" فِي كُرْهِ سَيِّدَتُهِ لَهْ، وآيِسَاً أَنْ يَسْتَعِيدَ ثِقَةَ مَوْلَاهْ .

شَارِداً "إِسْفِينِيسُ" فِي مُعْتَرَكٍ قَدْ زَجَّ بالجَمِيعِ فِي خِضَمِّهِ كَاهِنٌ خَبِيثْ، ويَشْغَلُهُ إِلَى جَانِبِ الأَمْرِ أَمْر، نَاظِراً فِي إِشْفَاقٍ نَحْو" نِخْتِنْبُو" فِي قَلَقٍ لَا يَعْرِفُ لَهُ دَاعٍ أَحدْ، مُرْهَقَيْنِ يَمْضِيَانِ بِحُزْنِهِمَا فِي كَسَلْ، وفَجْأَةً تَخَاذَلَا عَلَى عَوِيلٍ أَتٍ مِنْ جَوْفِ القَصْر، فَانْطَلَقَا إِلَى نَدِيبِ بِكْرٍ صَادِرٍ مَنَ الشُّرْفَةْ، وَكَانَتْ "تَاوْسِرْتُ" تَعْوِي كَجَبَّانَةِ جَائِعَةْ .

إلَى بَيْتِ إيلْ

يَاهْ كَمْ طَالَ الزَمَانُ بخِرَافِ إسْرَائِيلَ هُنَا بأَرْضِ فَارَانِ المُقَدَّسَةْ، جِيلٌ غَيْرُ الجِيلِ النَّازِحِ هَرَبَاً لَمْ يَكْتَمِلْ لَهُمْ إيمَانْ، مَنْ تَرَبَّوْا عَلَى عَيْنِ النَّبِيِّ دُونَ خَوْفٍ أَوْ مُمَالَأَةْ، كَانَ "يُوشَعُ" قَدْ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ مِنْ بَعْدِ "مُوسَى" نَبِيَّاً إلَى بَنِي إسْرَائِيلْ، قَوْمٌ سُرْعَانَ مَا يَنْصَرِفُونَ عَنْ دِينِهِمْ مَتَى خَلَوْا مِنْ نَذِيرْ، لِذَا كَانَ دَأْبُ اللهِ أَنْ يُتْبِعَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَقَفَ "يُوشَعُ" النَّبِيُّ يُحَادِثُ نَفْسَهُ عَنْ مُعَانَاةٍ سَيُكَابِدُهَا كَمَنْ قَبْلَه، ويُكَابِدُ حَنِينَهُ "لِمُوسَى"

(كَمْ مَرَ يَا يُوشَعُ عَلَى نُبُوءَةِ مُوسَى الَّتِي أَسَرَّكَ بِهَا يَوْمَ قُبِضَ هَارُونْ؟).

فِي دِعَةٍ طَفَرَتْ مِنْهُ دُمُوعُ الحَنِينِ وهُو يَنْظُرُ لمَوْضِعِهِ مِنْ تَابُوتِ الشَّهَادَةِ الخَالِي، وقَدْ رَفَعَهُ الرَّبُّ مِنْ بَعْدِ "مُوسَى"، وفَاضَ بِهِ الحَنِينُ لعَامُودِ الغَمَامِ، وقَدْ كَانَ الآتِي إلَيْهِمْ بِصَوتِ اللهِ العَلِي مُخَاطِبَاً فِيهِ "مُوسَى"

(إنَّهُ مَا انْقَطَعَتْ السَّمَاءُ بالوَحْيِّ لَكِنْ شَتَّانَ بَينَ وحَيٍّ وبَيْنَ خِطَابْ، كَانَ الأُنْسُ فِي أَنْ تَكُونَ خَارِجَ البَابِ وأَنْتَ عَارِفٌ بَأَنَّ الرَّبّ يُشَافِهُ نَبِيَّهُ بالدَّاخِلِ، بِكَيْفِيَّةٍ يَعْلَمُهَا مِنْ فَوْقِ عَرْشِهْ، يَا لهَا مِنْ وَحْشَةٍ حَلَّتْ بِكَ يَا يُوشَعُ رَغْمَ أُنْسِ اصْطِفَائِكَ مِنْ بَعدِهْ !)

قَدْ انْصَرَفَ لتَوِّهِ مِنْ وَقْفَتِهِ لِلوَحْيِ، وقَدْ تَلَقَّى أَمْرَ اللهِ العَلِيِّ فِي شَأْنِ هَؤُلَاءِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ بالبِشَارةْ رَغْمَ شَجَنِهْ، وسَارَ يَتَخَلَّلُ صُفُوفَهُمْ نَاظِرَاً فِي الوُجُوهْ، كَمَنْ يَتَوَقَّعُ سَفْسَطَاتِ كَانتْ لآبَائِهِمْ مِنْ قَبْل، إعْتَلَى صَخْرَتَهُ الّتِي يَخْطُبُهُمْ مِنْ فَوْقِهَا كَدَأْبِهْ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيهِ ثُمَّ قَالْ:

يوشع: - أَتَى أَمْرُ اللهِ فِيكُمْ، تَعْلَمُونَ لِمَ كُتِبَ عَلَيكُمْ التِّيهَ أَيُّهَا المُجَادِلُونْ؟

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ قَدْ كَثَّرَكُمْ رَبُّكُمْ فصِرتُمْ تَمْلَؤُنَ الفَلَاةْ، وإنّمَا هِي أَرْضٌ أَدَّبَ رَبُّكُمْ فِيهَا العُصَاةَ مِنَّا، فَمَا هِيَ بأَرْضِ مُقَامَةٍ لَكُمْ، وإنِّي لَرَاحِلٌ بِكُمْ عَنْ أَمْرِ مِنْ رَبِّي إِلَى مَا كَتَبَ لَكُمْ، الآن عفَا اللهُ عَنَّا وقَدْ قَضَينَا الأَجَلْ، فَاعْمِدُوا لِطَاعَةٍ نَكَصَ عَنْهَا آبَاؤُكُمْ، فَإِلَى أَرْضٍ حُرِمْتُمُوهَا مِنْ غَدِكُمْ يَرْحَمُكُم الله .

إنْصَرَفَ مِنْ مَقَامِهِ دَاعِيَاً رُؤُسَ الأَسْبَاطِ وتَارِكَاً الجَمَاهِيرَ تَمُوجُ بَيْنَ رَهْبَةِ الفَجْأةِ وبَينَ السُّرُورْ، فَتَبِعُوهْ إِلَى قُبَّةِ الزّمَانْ، هَذِهِ الكَعْبَةُ المَجِيدَةُ اليَوْمَ آخِرُ عَهْدِهَا بالمَكَانْ، إِخْتَلَى بِهِمْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ أَخِيرٍ وقَدْ خَرَجُوا جَادُّونَ إِلَى شَؤُنْ .

وَبَاتَ الجَمِيعُ لَيْلَتَهُمْ الأَخِيرَةَ كَوَدَاعٍ لسِجْنِهِمُ الكَبِيرْ، ومُشْفِقُونَ مَنْ تَرْكُ مَأْلُوفٍ اعْتَادُوهْ، إِلَى طَالِعٍ يَضْمَنُهُ الرَّبُّ لَكِنَّهُ مَحْفُوفٌ بِجِهَادٍ وتَضْحِيَةٍ مَا زَالُوا فِي عُمُومِهِمْ يَرْهَبُونَهَا .

عِنْدَ بَوَادِرِ الفَجْرِ، نَشَطَ الجَمِيعُ لِهَدْمِ مَوْطِنٍ سَيَبْقَى لَهُ حَنِينُهُ مَدَى الدَّهْرِ، ومَا حَلَّ عَصْرُ اليَوْمِ بِهِمْ حَتَّى كَانُوا قَدْ تَحَمَّلُوا مَطَايَاهُم بِدُنْيَا رَاحِلَةٍ عَنْ المَكَانْ، واصْطَّفُوا أَسْبَاطَاً كَالعَادَةِ فِي انْتِظَارِ الأَمْر، فَرَغَ "يُوشَعُ" وقَدْ خَرَجَ مِنْ صَلَاتِهِ خُرُوجَ جَائِعٍ لَمْ يَزَلْ لمَزِيدٍ مِنْ الدُعَاءْ، فَاسْتَقْبَل شَعْبَهُ بوَجْهٍ ضَارِعٍ، مَا نَبَسَ غَيْرَ بِاسْمِ اللهْ، ورَافِعَاً يُمْنَاهُ بالإِذْنِ يَخُوضُ بِهِمْ البَيْدَاءَ نَحْوَ "بَيْتِ إِيلْ "[1]، فَظَعِنُوا[2] فِي حَذَرِ وَلِيدٍ لأُولَى خُطُوَاتِهِ خَارِجَ الدَّارْ!، ورَاحَتْ "فَارَانُ" تَخْلُو رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً مِنْ

---

[1] بيت المقدس.

[2] ركبوا المطايا.

وَرَائِهِمْ كُلّمَا أَمْعَنُوا فِي السَّيْرِ، ويَهْبِطُ اللَّيْلُ كَعَيَّافٍ مُقْتَفٍ أَثَرَاً مِنْ خَلْفِهِمْ، فَيُدَثِّرُ أَمْكِنَةً بَدَأَتْ تَدْرُسُ[1] مَعَالِمُهَا وسَتَضْحَى طَلَلَاً فِي الصَّبَاحْ، فَلَا يَنُمُّ عَلَيهَا غَيْرُ أَبْعَارِ السَّوَائِمِ ورَمَادُ الشِّوَاءْ .

مَضَوْا يُسْلِمُهُمْ صَبَاحٌ إِلَى صَبَاحْ، وتُشَيِّعُهُمْ أَرْضٌ إِلَى أَرْضْ، حَتَّى اسْتَقْبَلَهُمْ نَهْرُ "الأُرْدُنُّ" مِثْلَ غَيْثٍ فَأَدْرَكَ جَفَافَ أَرْوَاحٍ أَشْرَفَتْ، وحَطَّ بِهِمْ "يُوشَعُ" الرّحَالْ، فَأَخْلَدُوا إِلَى ذِكْرَى وَادٍ خَصِيبٍ رَاوَدَ أَشْيَاخَهُمْ بِأَيَّامِهِ الخَوَالِي الزَّاخِرَةِ بالنِّعْمَةِ والشَّقَاءْ، تَمَهَّلُوا بِمَكَانِهِمْ يُعِدُّونَ لحَرْبٍ بَاتَتْ عَلَى بُعْدِ أَيَّامٍ تَلُوحُ فِي الأفُقْ، وبَدَتْ نِيرَانُ "أَرِيحَا" عَلَى مَرْمَى البَصَرِ تُشَّاعَلُ فَتَصْرِفُ النُّفُوسَ عَنْ دِعَةٍ ولَّتْ، وعَنْ نَومٍ هَانِئٍ مُفْتَقَدْ، إِنَّهَا بَاكُورَةُ اللِّقَاءِ بِالعَمَالِيقْ، والَّذِينَ طَالَمَا أَرْهَبَتْهُمْ الأَقَاصِيصُ عَنْ بَغْيِهِمْ وعَنْ سَطْوَتِهِمْ، لَكِنْ هَذِهِ المَرَّة.. عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ خَيْرَاً فعَفَى عَنْهُمْ، وأَخْرَجَهُمْ لفَتْحٍ قَرِيبْ، كَانُوا عَلَى ثِقَةٍ هَذِهِ المَرَّةَ حَدَّ اليَقِينِ أَنَّ السّلَامَةَ لَا تَضْمَنُهَا القُوَّةْ، إِنّمَا يَضْمَنُهَا الرُّضُوخُ لأَمْرِ الرَّبْ، إِطْمَأَنُّوا لنَصْرِ اللهِ رَغْمَ الحَذَرِ وخَوفِ المَوتْ، ومَا لَهُمْ لَا يَخَافُونَ وقَدْ أَلِفُوا نَصْرَ اللهِ بِلَا سَوَاعِدَهُمْ المُعَطَّلَة، حَقَّاً عَلِمُوا أَنَّ رِفْعَةَ اللهِ كالرِّزْقِ آتِيَةْ، بالرُّضُوخِ لَهُ آتِيَةْ، أَلَمْ يُرْزَقُوا بلَا جَهْدٍ بَينَمَا تَكِدُّ العَصَافِيرُ مِنْ حَوْلِهِمْ (ويُعَلِّمُكُمْ اللهُ) .. هِي حِكْمَتُهُ إِذَنْ الّتِي قَصُرَتْ عَنْهَا الأَذْهَانْ، يَا اللهْ وتِلْكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى مَاثِلَةْ، أَلْقَى بِهُمْ الرَّبُّ اليَوْمَ أَمَامَ عَدُوِّهِمْ وقَالَتْ مَشِيئَتُهُ:

(هُمْ آكِلُوكَ .. إِنْ لَمْ تَرْفَعْ سَيْفَكْ، تَهْبِطُ الصَّخْرَةُ فَوْقَ رَأْسِك، مَيِّتٌ أَنْتَ إِنْ تَسَكُتْ إِرفَعْ يَدَكَ إِتِّقَاءَ أَصْرِفُهَا عَنْ رَأْسِكَ الصَّخْرَةْ) .

[1] تختفي.

سُرْعَانَ مَا انْتَهَى أَمْرُهُمْ إِلَى عِلْمِ العَمَالِيقْ، فَانْتَبَهُوا عَلَى قَوْمٍ دُونَهُمْ قُوَّةً وعُدَّةً وبَسْطَةً فِي الخِلْقَةْ، الأَمْرُ الّذِي أَشَاعَ سُخْرِيَةَ الجَبَّارِينَ رُكُوناً إِلَى القُوَّةِ والبَأْسِ غُرُوراً، فَتَشَاغَلُوا عَنْهُمْ هَازِئِينَ ومُحَقِّرِينْ، بِضْعُ لَيَالٍ صَارَتْ مُهْلَةً وعُدَّةً "ليُوشَعُ "وَ جُنُودُهْ، وحُسُوماً نَازِعَاتٍ عَلَى أَهْلِ البَلْدَةْ، وأَتَى يَوْمٌ آذَنَ بِهِ الرَّبُّ نَبِيَّهْ .

النَّهَارُ مُوشِكٌ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيهْ، لِيصْحُو عَلَى شَعْبٍ بأَسْرِهِ يَزْحَفُ نَحْوَ "أَرِيحَا" فِي زَمْزَمَةٍ مِنْ تَهْلِيلٍ تُزَلْزِلُ المَدِينَةَ النَّاعِسَةْ، وتُثِيرُ دَهْشَةَ العَمَالِيقِ مِنْ جَرْأَةِ أَقْزَامٍ تَمْلَأُ الوُدْيَانَ كالذَّرْ، يَجْتَمِعُ الرّهْطُ مِن إِسْرَائِيلَ عَلَى الوَاحِدِ مِنْهُمْ، فَيَعْقِرُونَهُ مِنْ عُرْقُوبِهِ فَيخِرُّ مَشْلُولاً إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يُنْحَرُ كَالشَّاةْ، شَلَّتْ المُفَاجَأَةُ القَوْمَ وفَتَّتْ فِيهِمْ الجَثَامِينُ المُمَدَّدَةْ، كَأَصْنَامٍ عِمْلَاقَةٍ لآلِهَةِ مِصْرَ تَعْلُوهَا جُمُوعُ النَّمْلْ، فَيسْبِقُ الذُّعْرُ النَّاخِرُ قُلُوبَهُمْ، يُكَتِّفُ أَرْضَ المَدْعَكَةِ[1] بِغُبَارٍ يُهَاجِرُ نَحْوَ السَمَاءْ مُضَلِّلاً العُيُونَ ومُشَوِّشاً المَشْهَدْ، فَيتْرُكُونَهُمْ مُجَنْدَلِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ، مَا تُرِكَ مِنْهُمْ نَاعِقاً يَعُودُ إِلَى أَهْلِيهِمْ بالْخَبَرْ .

وَ كَأَنَّ اللهَ يَطْوِي الأَرْضَ طَيّاً ويَكْسِرُ شَوْكَةَ العِدَا لنَبِيَّهْ، فَتَمْضِي بِهِمْ الأَيَّامُ سِرَاعاً مِنْ نَصْرٍ إِلَى نَصْرْ، ليقِفَ "يُوشَعُ" عَلَى أَعْتَابِ بَيتِ المَقْدِسِ دُونَ حَائِلْ، وقَدْ أَسْلَمَتْ الأَرْضُ فُجَّارَهَا لسَيْفِهْ، فَغَادَرَهُمْ مِنْ وَرَائِهِ صَرْعَى ومِنْ أَمَامِهِ آبِقِينَ بِلَا هُدَى، فَيَدْخُلَهَا شَاكِراً لأَنْعُمِهِ الّتِي أَحَلّهَا بشَعْبِهُ عَلَى مَا بِهِ مِنْ عَوَارْ .

أَوْرَثَ الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ مَقْدِسَهْ، ونَصَبَ "يُوشَعُ" قُبَّةَ الزّمَانِ فُوقَ صَخْرَةِ "يَعْقُوبْ"، لتَصِيرَ مُصَلًّىً ووِجْهَةً للعَالَمِينْ، حَتَّى يَكُونَ شَأَنٌ مِنْ شُؤُنِ اللهِ فِي خَلْقِهْ، ورَاحَ يُوشَعُ يُكْمِلُ رِسَالَتَهُ فِيهِمْ وفَاءً للرَّبْ .

---

[1] دعَك العدو وتذلِيله

فأَقْطَعَ كُلَّ سَبْطٍ نَصِيباً مِنَ الأَرْضْ، واصْطَفَى منْهُم قَاضِياً عَلَيْهِمْ، ثُمَّ اصْطَفَى عَلَى الجَمِيعِ قَاضِياً، يَحْتَكِمُونَ إليْهِ كَحَبْرٍ عَالِمٍ بالرَّبْ، ليَسْتَقِرَّ المُقَامُ ببَنِي إسْرَائِيلَ مَا اسْتَقَامُوا للهْ .

نَحْوَ بُوتُو

أَخْطَأَ "نِخْتِنْبُو" فِي فَهْمِ الرَّجُلْ، فَمَا إنْ وَصَلَ مَوْكِبُ المَلِكَةِ إِلَى القَصْرْ، وآذَنَتْ الكَهَنَةَ دُونَ دَعْوَةٍ بالإنْصِرَافْ، حَتَّى أَسْرَعَ "مِنْكَاوُ" إِلَى المَعْبَدِ مُغْتَنِماً فُرْصَةَ نَجَاتِهِ السَّانِحَةْ، نَادَى مِنْ فَورِهِ "سُوفْخَاتِبَّ" المُنْتَظِرُ فِي بَهْوِ "رَعْ "الكَبِيرْ، فَسَعَى الرَّجُلُ إِلَيْهِ مُخَمِّناً مَخَاوِفَهُ الّتِي مَا بَارَحَتْه .

خاتِب: - أَمْرُ سَيِّدِي المُعَظَّمُ، عَلَّ فِي الأَمْرِ خَيْر؟

منكاو: - أَيُّ خَيْرٍ يَا سُوفْخَاتِبْ، حِيلَةٌ مِنْ طِفْلٍ يَخَالُهَا تُجْدِي مَعَ حُنْكَةِ طَاعِنٍ مِثْلِي وحِكْمَتَهْ، لَكِنَّهُ مَا عَادَ صَبْرٌ عَنْ هَؤْلَاءْ

خاتب: - ومَاذَا فَعَلَ يَا سَيِّدِي يُثِيرُ مَخَاوِفكَ؟، فَأَنا مُرْتَابٌ مُنْذُ غَادَرْتَ مَعَ المَلِكَةْ، لَكِنَّ خَوْفِي مِنْ ذَكَاء مِيرِيتْ وفَرَاسَتِهَا المَعْهُودَةْ، وأَشُكُّ أَنَّنَا هَدَفَاً لعُيُونِهَا كَمَا هُمَا هَدَفَاً لسَيِّدِي مِنْ يَوْمِهِ البَعِيدْ ،

منكاو: - لَا وَقْتَ يَا عَزِيزِي سُوفْخَاتِبْ، ليَكُنْ حَدِيثُنَا لَاحِقَاً، فَدَبِّرْ لأَمْرِنَا فَوْرَاً إِلَى بُوتُو، دَعْنَا نَمْكُثْ فِي ضِيَافَةِ خِنِمْ آمُونَ، ولنَهْرُبْ بمَخَاوِفِنَا مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَيٍّ مِنْ ذَرَارِي رَعْمْسِيسْ[1]، أَوْ رَحِمِ مَوْلَانَا سِتِي مِرِنْ بِتَاحْ[2]، تَفْهَمُنِي أَكِيدٌ يَا عَزِيزِي سُوفخَاتِبْ

خاتب: - أَفْهَمُكَ جَيِّدَاً يَا سَيِّدِي، ولَكِنْ مَنْ يَضْمَنُ وَلَاءَ إِسْفِينِيسَ وهُوَ مَنْ أَظْهَرَ وَلَاءً كَامِلَاً لبِرعَاهْ، وتَسَاهُلَاً مَعَ سِنِفْرُو هَذَا السَّاعِي بِدَعْوَةِ مُوسَي فِي الخَفَاءِ وبِتَنَاوُمٍ مِنْ دَلُّوكَا

[1] رعمسيس الأول مؤسس دولة الرعامسة

[2] من حكام أسرة الرعامسة

منكاو: - بِرْ عَاهُ .. هههه نَحْنُ مَنْ صَنَعْنَاهَا يَا عَزِيزِي، فلَا هِيَ ولَا المُصَدِّقُ نَفْسَهُ إسْفِينِيسَ هَذَا بمُمْتَنِعَيْنِ مِنْ بِرْعَا أَصِيلِ دَمٍ يَطْلُبُ عَرْشَهْ، أَمَا وقَدْ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمَا فَلْيعُدْ الأَمْرُ لأَهْلِهْ، عَاجِلاً أَمْ آجِلاً فَالأَمْرُ

وَاقِعْ، أَوَلَيْسَ قَدْ رَتَّبْنَا لَهْ مِنْ يَوْمِ خُرُوجِ الفِرْعَوْنْ؟

خاتب: - إنَّهُ لَنِعْمَ التَّدْبِيرُ أَيُّهَا المُعَظَّمْ، لأَنْصَرفَ لأَمْرِي وقَبْلَ أَنْ يُدْهَمُنَا الوَقْت .

كَانَ الرَّجُلُ قَدْ أَخَذَ للأُمُورِ حَيْطَةً كَعَادَةِ الفَرَاعِينِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ للحَرْبِ مُخَلِّفِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ ذُرِّيَّةً ضُعَفَاءْ، فَكَانَ الدَّأْبُ أَنْ يَخْتَفُوا بِلَا طُقُوسٍ بِذُرِّيَةِ الفِرْعَونِ إمَّا لعَوْدَتِهِ مُظَفَّراً، وإمَّا ورَثَةٌ يُطَالبُونَ بالثَّأْرِ عَدُوَّاً إنْ حَدَثَ وكَانْ مَا لَا يُحْمَدْ وقَدْ سَرَّبَ "مِنْكَاوُ" العَائِلَةَ المَلَكِيَّةَ إلَى آمَنِ مَكَانْ، ولَا يُعْلَمَ كَسِرٍّ إلَهِيٍّ مُقَدَّسْ، المَلِكَةُ "تُويَا" زَوْجُ الفِرْعَونِ وأَطْفَالُهَا الثَّلاثَةُ بَينَ وَلِيدٍ وفَطِيمٍ وحَابٍ مَا يَزَالْ !، إنَّهُ لَيَرجُو أَنْ يَكُونَ رِجَالُ خِنِمْ آمُونَ قَدْ أَدُّوا وَاجِبَاً مُقَدَّسَاً تِجَاهَ أُمَرَاءِ مِصْرَ كَامِلَاً، كَانَ "مِنْكَاوُ" كدَأْب الكَهَنَةِ فِي عُمُومِ الأَرْضِ .. يُشَكِّلُونَ صَفَّاً ثَالِثَاً مِنْ خَلْفِ الحَاكِمِ ومِنْ خَلْفِ الجَيْشْ، فَيَقُودُونَ الجَمِيعَ بِنَفْعِيَّةْ، وفِي حِينَ يَظُنُّ الجَمِيعُ أَنَّهُمْ مُنْقَادِينَ لَهُمْ، الوَلَاءُ للوَطَنِ رَهْنُ فِرْعَونٍ وجَيْشٍ يُؤَمِنَانِ لَهُمْ مَطَامِعَهُمْ الكَامِنَةَ خَلْفَ سِتَارَةِ الوَطَنْ، لِهَذَا قَدْ أَزَّ الرَّجُلُ ضَابِطَاً شَرِيفَاً كَيْ يَرْتَكِبَ جَرِيمَتَهْ، وبِحُبٍّ صَادِقٍ مُعْتَقِدَاً فِي تَفَانِيهِ للوَطَنْ، لَمْ يَكُنْ لِيَسْكَتَ عَنْ "سِنِفْرُو" ولا عَنْ "مَاعِتَ" وهُمَا فِي صَمْتِ عَاصِفَةٍ يُعِيدَانِ حِكَايَةَ مُوسَى مِنْ جَدِيدْ، ذَهَبَ "مُوسَى" بإسْرَائِيلَ إلَى غَيْرِ رَجْعَةْ، أَمَّا أَنْ يُؤْمِنَ "لِسنفْرُو" وهُوَ المِصْرِيّ شَعْبٌ مِنْ جِلْدَتِهِ فَإلَى أَيْنَ يُخْرِجُهُمْ مُخْرِجٌ وهُمْ أُصَلَاءٌ عَلَى هَذَا التُّرَابِ؟ .. ومَنْ لَهُ الحَقّ؟

إنَّ أمْرَهُمَا لمُفْضٍ بالْبِلَادِ إمَّا لِغَلَبَةِ دِينُ "مُوسَى" فِي مُرِيدِيهِ هُنَا إنْ تُرِكْ، وإمَّا إلَى صِرَاعٍ يُفْنِي الفَرِيقَيْنْ، لَيْسِ ببَعِيدٍ مِنْ خَبِيثٍ مِثْلِهِ مَا فَعَلَهُ المُخَنَّثُ "أَمِينُوفِيس"[1] ، حِينَ اتَّخَذَ إلَهَاً كَاذِبَاً "كَآتُونْ"، لَكِنَّهُ هَدَّدَ بقُوَّةٍ عَرْشَ آمُونَ ورَعْ العَرِيقَيْنِ فِي قُلُوبِ البِريخِيتْ، كَادَ يَذْهَبُ بعَبِدَيْهِمَا إلَى أَخِيتْ آتُونِ بِلَا رِجْعَةٍ إلَى طِيبَةِ المَجِيدَةْ، طِيبَةُ التّي هَدَّدَهَا شَبَحُ الفَنَاءْ، لَوْلَا فِتْنَةُ كُهَّانِهَا الّذِينَ احْتَالُوا لرَبِّهِمْ وقَيعَةً بَينَ عَبِيدِهِ تَضْمَنُ بَقَاءَهْ، هَكَذَا احْتَالَ الرَّجُلُ عَلَى ضَوْءِ مِثَالٍ مِنْ أَسْلَافِهِ الْ.. مُؤْمِنِينْ !، إنْتَبَهَ لشَرِيكِ النِّكَايَةِ يَؤْذِنَهُ بالتَّمَامِ فَانْتَفَضَ خَارِجَاً إلَى كَيْدِهِ المَتِينْ .

وَ كَانَتْ الرِّيحُ قَدْ أَلْقَتْ "بِاسْفِينِسَ ونِخْتِنْبُو" إلَى دَاخِل قَصْرِ "مِيرِيتْ نِيتْ" الغَارِقِ فِي النَّدِيبْ، فَأَلْفَيَا السَّيّدَةَ مُتَهَالِكَةً كَمَا غَادَرَاهَا فِي صَمْتِ الطُّرْشَانِ وكَأَنَّ العَويلَ لَمْ يَكُنْ، فَخَرَّ "نِخْتِنْبُو" إلَى جِوَارِهَا آسِفَاً مَأْكُولَ القَلْبِ مِنْ ذَنْبٍ بَغِيضٍ أَيْقَنَ بِفَدَاحَتِهْ، لَكَأَنَّهُ ذَبِيحٌ يَطْلُبُ مَوْتَهُ الآنَ جَاثٍ تَحْتَ قَدَمَيْهَا، فِيمَا كَانَ "إسْفِينِيسُ "علَى رَأْسِ صَدِيقِهِ الأَمِينْ، يَأْتِي نُواحُهُ وصَوْتُهُ المخْلُوطُ بالبُكَاءِ إلَيْهِمَا فَيُأَكِدُّ الفَاجِعَةْ، (أَ هُوَ لَا غَيْرُكَ صَاحِبِي غَارِقَاً فِي دِمائِكْ، ومُفَارِقَاً الحَيَاةْ، أَ هَذَا الجَسَدُ البَارِدُ لصَدِيقٍ أَحَبَبْتُه؟) .

مِنْذُ عَادَا مَعَاً مِنَ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ وهُمَا شَرِيكَا خَوْفْ!، يَعْلَمُ عَنْ إيمَانِ "سِنِفْرُو" مِنْ دَمْعَتِهِ الأُولَى أَمَامَ البَحْر، ويَعْلَمُ "سِنِفْرُو "عَنْ إيمَانِ "إسْفِينِيسَ" مِنْ صَوتِ دَمْعَةٍ مَكْتُومَةٍ هَوتْ حَجَرَاً فِي قَلْبِهْ، كِلَاهُمَا احْتَرَمَ كُفْرَ صَاحِبِهِ فِي نُبْلٍ ومَضَيَا كُلٌّ لِغَايَةٍ عَلَى طَرِيقِهْ، يَحْمِي دَاعِيَةً فِي صَمْتٍ ويَطْمَئِنُ "سِنِفْرُو" إلَى حِمَايَتِهِ فِي صَمْت، يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ مَرِيرٍ قَطَعَ بالمَوْتِ حَبْلَ نَجَاةٍ لهَذَا الوَفِيِّ المَخْدُوعِ "نِخْتِنْبُو"، إنْحَنَى يُقَبِّلُهُ

[1] الملك أمتحتب.

كَأَنَّهُ مَا عَايَنَ مَوْتَى مِنْ قَبْل، وقَامَ إلَى وَاجِبِهِ هَابِطَاً نَحْوَهُمَا فِي تَثَاقُلْ، ومُرَدِّداً كَواعِظٍ أسِيفْ:

(إنَّ المَوْتَ مُخَادِعٌ كَبِيرٌ يُصَادِقُ كُلَّ فَرْدٍ عَلَى حِدَهْ، يُسَامِرُهُ وَيَتْرُكُهُ فِي سَلَامٍ إلَى بُيُوتَاتِ الجِيرَانِ قَدْ، أَوْ إلَى أَطْرَافِ القُرَى البَعِيدَهْ، ثُمَّ يَعُودُ حَامِلَاً شِطْرَنْجَ الحَيَاهْ، حَذِقٌ يَدَعُكَ تَكْسِبُهُ ولَا يَغْضَبُ مَرَّةً مِنْ خُسَارَتِهْ، حَتَّى لَيْلَةٍ وأنْتَ تَفْرِشُ الخُوانَ لمَكَاسَبِكَ المُعْتَادَةَ يَأْتِيكَ مُنْهَكَاً فيَنَامُ فِيكَ دُونَ رَغْبَتِكْ) .

يُوَدَّعُهُ عَائِدَاً لقَتِيلَينِ فِي بَهْوِ القَصْرِ، فَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى "إنْسِمَاتِيكْ" يَلُوذُ بإمْرَأَةٍ جَامِدَةٍ كَنُصُبٍ مِنْ أَنْصَابِ المَعَابِدِ الرَّاسِخَةِ السُّكَاتْ، ومَا زَالَتْ "تَاوْسِرْتُ" عَلَى أَرْضِيَّةِ البَهْوِ تُمَارِسُ هُوَايَةَ إمْرَأَةٍ جَائِعَةٍ للجَنَائِزْ، لَا أَحَدَ هُنَا تُواسِيهِ يَا "إسفِنِيسْ"، الكُلُّ ذَاهِبُ الفُؤادِ مِنْ هَوْلِ وفَجْأَةِ المَوتْ، هُمْ مَوْتَى إلَى حِينٍ كَالمُسَجَّى العَزِيزِ فِي مِخْدَعِهْ، وفِي نَبْرَةٍ بَحَّهَا الحُزنُ وزَكَمَهَا البُكَاءُ تَوَجَّهَ "لِنِخْتِنْبُو "بِحَدِيثِهِ آمِرَاً ..

اسينيس: - إلَى المَعْبَدِ مِنْ سَاعَتِكْ، أَخْبِرْ كَهَنَةَ الجَنَائِزِ فَلْيُأَدُّوا وَاجِبَهُمْ نَحْوَ سَيِّدِكْ، وكَضَّابِطٍ شَرِيفٍ سَلِّمْ سَيْفَكَ إلَى قَائِدِ الصِّدَامِ[1] وانْتَظِرْنِي، فَأَنْتَ مَقْبُوضٌ لِأَمْرِ مَوْلَاتِكَ كَمَا وَعَدْتْ، وأَمَا أَمْرُ الكَاهِنِ..... فَدَعْهُ لتَدْبِيرِي .

إنْطَلَقَ" نِخْتِنْبُو" مِنْ سَاعَتِهِ يُسَابِقُ ضَمِيرُهُ حُزْنَهْ، وبرَأسِهِ ضِبَاعٌ تَنَازَعُ لَحْمَهُ الّذِي سَمَّمَتْهُ بِلَا قَصْدٍ خِيَانَتُهُ لقَائِدٍ يُحِبُّهُ وكَانَ عَلَيْهِ اسْتِشَارَتَهْ، يَمَّمَ شَطْرَ المَعْبَدِ الّذِي يَسْكُنُهُ " آمُونْ رَعْ " مُتَفَرِّجَاً عَلَى دَسَائِسِ الكَهَنَةِ وكَأَنَّهَا رَغْبَتُهُ، نَزَل من فَوْقِ صَهْوَةِ حِصَانِهِ عَامِدَاً إلَى دَاخِلِ المَعْبَدِ مُسْتَأْذِنَاً الحُرَّاسَ فِي طَلَبِ كَهَنَةِ الجَنَائِزْ، أَخْبَرَهُمْ بمَوْتِ سِينِفْرُو وأَنَّ عَلَيهِمْ المُغَادَرَةَ فَوْرَاً لنَقْلِ جُثَّتَهُ للتَّحْنِيطْ، صَدَعَ الكَهَنَةُ لقَدَاسَةِ

[1] رتبة عسكرية في الجيش الفرعوني

المَوْتِ وذَهَبُوا يَتَجَهَّزُونَ لشَأنِهِمْ، .. فَاسْتَأذَنَ فِي الدُّخُولِ عَلَى الكَاهِنِ الأَكْبَرْ، فَصَدَمَهُ خَبَرُ سَفَرِهِ نَحْوَ جِهَةٍ غَيْرِ مَعْلُومَةْ.

وَ فِي مَهَمَّةٍ قَالَ سَتَطُولُ قَلِيلاً، سُقِطَ فِي يَدِ "نخْتِنْبُو "وَ قَدْ انْتَوَى قَتْلَ هَذَا الخَبِيثَ لِيُطَهِّرَ نَفْسَهُ مِنْ الخِيَانَةْ، جُنَّ مِنْ بَدِيهَةِ ثُعْبَانٍ عَجُوزْ، أَيُسَلِّمُ نَفْسَهُ طَاعَةً لقَائِدِهِ ويَعِيشُ حَسِيراً فِي انْتِظَارِ قِصَاصُ "مِيرِيتْ نِيتْ" فَاقِداً لشَرَفَهْ !، أَمْ يَخْرُجُ يَطْلُبُ الشَّرَفَ خَلْفَ مَجْهُولِ القِبْلَةِ اللَّعِينْ؟، إنَّ فِي خُرُوجِهِ اتِّهَاماً جَدِيدَا لَهْ، ثمَّةُ رَبْطٍ بَيْنَ هَارِبَيْنِ خَاصَّةً وبَيْنَهُمَا جَرِيمَةٌ مُشْتَرَكَةْ، كَبَّلَهُ العَهْدُ وثَبَّطَ مِنْ عَزِيمَتِهْ، فَمَشَى مُتَثَاقِلاً يُسُوقُ نَفْسَهُ رَاغِباً إلَى مَصِيرٍ معْلُومْ، تَتَمَثَّلُ لعَينَيْهِ جَرِيمَتَهُ فَيَنْظُرُهَا هُنَاكَ ... عَلَى سَرِيرٍ ينَامُ مَغْدُورٌ دُونَ عَلْمِهِ فِيمَ قُتِلْ، وهُنَاكْ ... حَيْثُ شَبَحِ مِيرِيتْ المُحَطَّمَةَ النَّفْسِ بِلَا وَعْيّ، وهُنَاكْ .... عِنْدَ صُورَةِ "إبْسِماتِكْ" اليَافِعْ والمَوْتَ الّذِي اسْتَدْعَاهُ لخَرَابِ بَيْتٍ سَعِيدْ .

مَا أَقْبَحَ ذَنْبَكَ يَا فَتَى وأَنْتَ مَاضٍ نَحْوَ مَصِيرِكَ فِي صَمْتِ حَمَلٍ يسِيرُ إلَى الذَّبْحِ، بَينَمَا يُمْعِنُ " مِنْكَاوُ " سَاخِراً مِنَ الجَمِيعِ ،وَ يَمضَى الوَقْتُ الّذِي لَا يُعْنِيهِ شَيءٌ كَعَادَتِهِ مِنْذُ الأَزَلْ، يَرقُبُ الخَلِيقَةَ المُتَهَالِكَةَ عَلَى دُنْيَا مَا هِيَ إلَّا دَقِيقَتَيْنِ مِنْ فُسْحَتِهِ الخَالِدَةْ، يُطَالِعُ القَتْلَى بِلَا إكْتِرَاثْ، ويُشَاهِدُ القَتَلَةَ بِلَا مُبَالَاةٍ أَيْضَاً، يُرْجِيءُ الجَمِيعَ لِعَدَالَتِهِ المَخْبُوءَةِ فِي صَمِيمِ الدَّهْرِ، ولهَذَا لَمْ يُعْنَى كَدَأبِهِ بمُتَسَلِّلٍ فِي حَارَاتِ "آبُو"[1] الضَّيّقَةْ، يَهْمِسُ بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ جَرْزَةُ النُّحَاسِ فِي جُنْحِ العَتْمَةِ: إفْتَحْ لسَيّدِكَ يَا "خِنِمْ آمُونْ " [2].

[1] حضارة مصرية (تلّ الفراعين ب كفر الشيخ)

[2] كَاهِنْ أحد معابد بوتو ..إفتراضا

الحَقِيقَةْ

مَضَى "بميرِتْ" الوَقْتُ ومَا غَادَرَهَا الذُّهُولْ، مَاتَتْ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَوَّلِ نِيَاحَةٍ "لتَاوْسِرْت"، حَتَّى أَنَّهَا مَا الْتَفَتَتْ إِلَى رُسُلِ الجَبَّانَةِ وهُمْ يَمْضُونَ بِجُثَّةِ "سِنِفْرُو" كَجُثْمَانِ غَرِيبٍ لَا تَعْرِفُهُ، وتَوَقَّفَ وَعْيُهَا عِنْدَ آخِرِ نِصْفِ كَلِمَةٍ فَاهَ بِهَا حَبِيبُ الْقَلْبِ "سِنِفْرُو"، لَا تَفِيقُ إِلَّا لِتُرَدِّدُهَا ثُمَّ تَعُودُ لصَمْتِهَا المُقِيمْ " حِينَ نَدَّتْ مِنْهُ حَرَكَةً وهُو فِي خُفُوتٍ يَهْذِي مِي.. ميري.. فَطَفَرَتْ دُمُوعُهَا وهِي تُقَبِّلُ كَفَّهُ بِدُمُوعِ الفَرِحِينَ قَائِلَةً فِي هَذَيَانٍ.. يتْ نِيتُ ..."ميريتُ نِيتُ" يَا "سِنْفْرُو" العَائِدَ مِنْ ضَلَالِكَ القَدِيمْ، وكَانَتْ تَغْسِلُ كَفَّهُ بِحُرْقَةِ مَنْ رَبَّتَ إِلَهٌ عَلَى قَلْبِهْ "، وهِيَ الآنَ تَغْسِلُ كَفَهُ بِحُرْقَةٍ لَكِنْ مَا رَبَّتَ إِلَهٌ عَلَى قَلْبِهَا، هَكَذَا هِيَ "مِيرِيتُ" لَمَنْ يَرَاهَا .

وَ مَضَى الوَقْتُ"بِابْسِمَاتِكْ" الَّذِي تَمَاسَكَ مَعَ مُرُورِ الأَيَّامْ، ولغَايَةٍ نَبِيلَةٍ أَلْحَقَهُ "إسفِينِيسُ" بحَرَسِهِ حَتَّى يَشْمَلُهُ بالرِّعَايَةِ وَفَاءً لأَبَوَيْهْ وتَفْرِيخاً للوَطَنْ، ويَمَرُّ الوَقْتُ لَا يَلْتَفِتُ لحَيٍّ ولَا لمَيِّتٍ ولَا يَقِفُ لمُلْتَاعْ .

يَقِفُ "إسفِينِيسُ" بَيْنَ يَدَى المَلَكَةِ يطْفحُ وَجْهُهُ بِشْرَاً يُحَدّثُهَا فِي شَأْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَخَفِّيَاً بِإِيمَانِهِ عَنْ العُيُونْ، وعَلَى عَهْدٍ قَطَعَهُ لنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ حِرْزَاً لمِصْرْ، وصَادِقَاً ونَصِيرَاً للمُؤْمِنِينَ إِنْ حَدَثَ وظَهَرَتْ لَهُمْ خَبِيئَةٌ فمَالَ عَلَيهِمْ "بِرْعَا" بالبَطْشْ، كَان مَغْتَبِطَاً لسَلَامَةِ إِخْوَةِ إِيمَانِهْ، وأَيضَاً لسَلَامَةِ مِصْرَ مِنْ إِنْقِسَامٍ جَدِيدٍ يَلُوحُ فِي الطَّالِعِ مُهَابَاً فِي نُفُوسِ المُخْلِصِينْ، حَدَّثَهَا فقَالْ:

إسفِينِيسُ: - كَانَ يُخْشَى منْ نُزُوحِهِمْ إِلَى مصْرَ بِمَا عَلِمُوهُ مِنْ فَرَاغِهَا وضَعْفِهَا الحَالِي، فَهُمْ وَحْدَهُمْ شَاهَدُوا غَرَقَ جَيْشٍ بِرُمَّتِهْ، أَزُفُّ إِلَى

مَوْلَاتِي "بِرْ عَا" خُرُوجَهُمْ عَنْ كَامِلِ أَرْضِ مِصْر، لَا يَعْنِينَا الآنَ إِنْ أَكَلُوا كَنْعَانَ أَمْ أَكَلَتْهُمْ كَنْعَانْ، يُعْنِينَا أَمْنُ الجَبْهَةِ الشَّرقِيَّةِ وأَظُنُّهَا إِلَى حِينٍ آمِنَةْ، وأَمَّا عَنْ لُوبْيَا[1] (١) وتَحَرُّشُهَا بالغَرْبِ فأَمْرُهُمْ هَيِّنْ، لتَأْمُرْ مَوْلَاتِي بتَسْيِيرِ الجَيشِ لتَأْدِيبِهِمْ متَى شَاءَتْ، وأَمَّا عَنْ هَؤُلَاءِ الهَمَجِ أَبْنَاءِ البَحْرِ فَمِنْ أَمَامِهِمْ جُنُودُ بِرْعَا فِي دِلْتَا مِصْرَ لهُمْ بمَرْصَدْ .

بر عا: - عَظِيمْ أَيُّهَا القَائِدُ، إِنَّهَا لبُشْرَى حقَّاً، بَدَتْ المَلِكَةُ مُنْهَكَةٌ تَلُوحُ عَلَى قَسَمَاتِهَا صُفْرَةُ المَرَضْ وهُزَالاً مِنْ بَعْدِ فَرْهَدَةْ[2] (٢)، سَعَلَتْ طَوِيلاً ممَّا زَادَهَا إِنْهَاكاً، فَأَسْنَدَتْ ظَهْرَهَا إِلَى العَرْشِ ضَارِبَةً بِكِبْرِيَاءِ المُلْكِ عَرْضَ الحَائِطِ ثُمَّ أَرْدَفَتْ:

الملكة: - أَمَا مِنْ أَخْبَارٍ عَنْ مِنْكَاوَ وسُوفْخَاتِبّ الهَارِبَيْنِ ولأَيِّ سَبَبٍ كَانَ هُرُبُهُمَا غَيْرَ مَا نَعْلَمْ؟!

إِغْتَنَمَ الرَّجُلُ سُؤَالَهَا فَرَاحَ يُمَهِّدُ لِمَا يُرِيدُ قَائِلاً:

إسفِينِيسُ: - لَا لَيْسَ بَعْدُ يَا مَلِكَتِي المُعَظَّمَةْ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ اغْتَالَ سِنِفْرُو لعِلَّة واحِدَةْ، بِدَايَةً هَلْ لمَوْلَاتِي مَأْخَذٌ عَلَى سِنِفْرُو؟

بر عا: - كَانَ مُخْلِصاً لوَاجِبِهِ أَيُّهَا القَائِدْ، وبَدَتْ دَلُّوكَا مُتَعَجِّبَةً مِنْ سُؤَالِهْ

اسفينيس: - موْلَاتِي .. لقَدْ كَانَ فَقِيدُنا سِنِفرُو مُؤْمِناً لمُوسَى

بر عا: - رَفَعَتْ المَلِكَةُ حَاجِبَيهَا دَهِشَةً مُسْتَنْكِرَةً لقَوْلِهِ المُبَاغِتِ ثُمَّ أَرْدَفَتْ وهِيَ تَهُزُّ رَأْسَهَا:

كَانَ لَدَيّ هَاجِسٌ أنَّ فِتْنَةَ مُوسَى لابُدَّ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ عَبِيدِ الفِرْعَوْنِ نَصِيبَهَا، لَسْتُ بالْخِبَّةِ أَيُّهَا القَائِدُ إسفِينِيسْ

---

[1] ليبيا

[2] جمال وامتلاء

إسفِينِيس: - حَاشَاهَا المَلِكَةْ، مَا أَوَدُّ قَوْلَهُ هُوَ.. هَلْ أَخَلَّ إيمَانُهُ بِوَلَائِهِ لِبِرْعَا أَوْ نَفَى مِنْ قَلْبِهِ إخْلَاصاً لِهَذِهِ الأَرْض؟

بر عا: - رَغْمَ فَجِيعَةِ دَلّوكَا فِيهِ لَكِنَّ لَا يَسَعَهَا إلَّا أَنْ تَشْهَدَ لِرَجُلٍ مِثْلِهِ بالإِخْلَاصْ، كَانَ وَفِيّاً رَغْمَ كُفْرِهْ، لَا لَمْ يَحْدُثْ أَنْ خَانَ أَيُّهَا القَائِدْ

إسفِينِيسْ: - لِهَذَا اغْتَالَهُ مِنْكَاوُ يَا مَوْلَاتِي خَوفَاً مِنْ تَكْرَارِ مَا قَدْ كَانْ، وتَعَصُّباً مِنْهُ لنُفُوذِ الكَهَنَةْ، مَوْلَاتِي إنِّي لَأَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ سِنِفْرُو مِنْ أَوَّلِ شَأْنِهْ، وهُوَ تَحْتَ عَيْنَيَّ مَا رَأَيْتُهُ إلَّا وَفِيّاً للبِلَادْ، كُلُّ أَبْنَاءِ مِصْرَ أَبْنَاءٌ لَهَا أَوْفِيَاءْ، إنَّ فِي حُرِّيّةِ الدِّينِ لتَنَافُسٌ عَلَى رِفْعَةِ الوَطَنْ، مَاذَا لَوْ أَنَّ فِرْعَوْنَ ظَلَّ إلَهاً لمَنْ أَرَادَهُ إلَهَهْ، وتَرَكَ لإِسْرَائِيلَ إيمَانَهُمْ، أَكَانَ هَذَا شَأْنُ مِصْرَ وحَالُهَا يَا مَوْلَاتِي؟

بر عا: - أَلَا يُفَرِّقُ هَذَا النَّاسَ والوَطَنَ يَا إسْفِينِيسْ، عَلَي هَذَا فمِنْكَاوُ سَائِسٌ لِأَمْنِ بِرْعَا رَغْمَ جَرِيمَتَهُ المُنْكَرَةْ، قَدْ كَانَ فِي مُصَارَحَتِي أَمْنَاً لخَوْفِهْ فَفِيمَ هُرُوبُهُ إذَنْ؟، إنَّ وَرَاءَهُ لَشَأْنٌ أَرِقُ مَضْجَعِي

إسفِينِيسْ: - لَا يَا مَوْلَاتِي، إنَّ شَعْبَ إسْرَائِيلَ ذُرِّيَّةٌ وَافِدَةٌ كَمَا عَلِمَتْ مَوْلَاتِي وكَانَ بِإمْكَانِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَتْرُكَهِمْ لمُوسَى ويَنْتَهِي، لكِنَّهُ الكَهَنُوتُ يَا مَوْلَاتِي، حتَّى لَوْ دَانَ المِصْرِيُّونَ بِدِينَيْنِ سَتَظَلُّ مِصْرَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ لَا مَصَبَّ لأَيُّهُمَا غَيْرَهَا، إنَّهَا تَدْعَكُهُمْ جَمِيعَاً فِي سُمْرَتِهَا المُقَدَّسَةْ، الكَهَنُةُ فَقَطْ يَا مَوْلَاتِي مَنْ يَرَوْنَ مَصَالِحَهُمْ حَتَّى فَوْقَ الإِلَهِ الَذِي يَجْمَعُونَ باسْمِهِ النُّذُورْ، لَا أَعْنِي كَهَنَةَ الأَرْبَابِ وَحْدَهُمْ، بَلْ البِرْعَا نَفْسُهُ كَاهِنٌ يُنَصِّبُ نَفْسَهُ صَنَمَاً لَا مُؤْمِنَ إلَّا مَنْ عَبَدَهْ، تَمْثَالٌ وَاحِدٌ لأَيِّ فِرْعَوْنَ فِي هَذَا الوَادِي الفَسِيحِ يُخْبِرُكِ الحَقِيقَةَ يَا مَوْلَاتِي .

بر عا: - ومَا تَقُولُهُ تَمَاثِيلُ وَادِينَا أَيُّهَا الفَيْلَسُوفُ إسْفِينِيسْ؟

إسفِينِيسْ: - أَلَيسَتْ كُلُّهَا تَذْهَبُ للحَرْبِ وحْدَها، وتَعُودُ أَيْضَاً بالمَجْدِ وَحْدَهَا، وتَذْهَبُ للحقلِ وحْدَهَا وتَعُودُ بالأَرْزَاقْ وَحْدَهَا؟!، أَلَيْسَ

وَحَدَهُ فرْعَوْنَ المُحَارِبُ الوَحِيدُ والزَّارِعُ الوَحِيدْ!، طَبِيعِيٌّ جَدَّاً أَنْ يَكُونَ الرَّافِلُ الوَحِيدُ فِي النّعْمَةِ فَمَا جَلَبَهَا إلَّا سَعْيُهُ المُقَدَّسْ، أَيْنَ جَيْشٌ مِنْ البُسَطَاءِ يَمُوتُونَ فَدَاءَ وَطَنٍ هُوَ الفِرعَونْ؟، أينَ جُيُوشُ مِنَ الفَلَّاحِينَ الكَادِحِينَ مِنْ أَجْلِ بُطُونِ الوَطَنِ الذِي هُوَ الفِرْعَوْن؟!

أَينْ هَؤُلَاءِ مِنْ " المَاعِتْ"[1]!، هَذَا هُوَ سِرُّ هُرُوبِ مِنْكَاو يَا مَوْلَاتِي، سَوْفَ تَقِيءُ الأَيَّامُ سُمَّ بُطُونِهَا عَنْ قَرِيبْ، فلتُرِحْ مَوْلَاتِي بِرْعَا نَفْسَهَا قَلِيلَاً .

بر عا: - إذَنْ أَنْتَ تَضَعُ فَلْسَفَتَكَ أَمَامَ مَوْلَاتِكَ بِلُطْفْ، وهِيَ فِعْلَاً جَدِيرَةٌ بالتَّفْكِيرِ أَيُّهَا القَائِدُ الفَيْلَسُوفْ، فَليَكُنْ يَا شُجَاعِيَ الأَمِينْ .. ليَكُنْ وأشَارَتْ إلَيْهِ بالإنْصِرَافِ .

خَرَجَ "إسْفِينِيسُ" لشَأْنِهِ، إجْتَازَ البَهْوَ وتَوَجَّهَ خَارِجَاً إلَى سَاحَةِ القَصْرِ المُتَرَامِيةْ، وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى " أَحْمُسْ بِنْ سِمنْدِسْ " وهُوَ يَتَقَدَّمُ نَحْوَهُ كَأَنَّهُ فِي انْتِظَارِهِ مِنْ مُدَّةْ، إسْتَقْبَلَ قَائِدَهُ بِلُطْفٍ وانْحَنَى خَاشِعَاً مُرْدِفَاً...

أحمس: - لَوْ يَسْمَحُ سَيِّدِي لأُمِّ صَدِيقِي الرَّاحِلِ العَزِيزِ بِلِقَائِهْ ،

القائد - الآنَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِي لَكِنْ لَابَأْسَ لأَذْهَبَ أَنَا إلَيْهَا، أَمْسَكَ بِخِطَامِ جَوَادِهِ ومَشَى إلَى خَارِجِ السَّاحَةْ، يَتَقَدَّمُهُ أَحْمُسُ حَتّى وَقَفَ بِهِ أَمَامَ عَرَبَةٍ رَشِيقَةْ، تَنُمُّ عَنْ صَاحِبِهَا أَنَّهُ بَينَ الطَبَقَةِ الوُسْطَى وبَيْنَ الأَرُسْتُقرَاطِيَّةْ، نَزَلَ مِنْهَا سَيِّدَتَانِ ورَجُلَانِ تَوْقِيرَاً لمَقْدِمِهْ، وبَادَرُوهُ التَّحِيَّةْ ...

الجميع: - أسعَدَ الرَّبُّ مَسَاءَ القَائِدْ

القائد: - أُسْعِدْتُمْ جَمِيعَاً أَيُّهَا السَّادَةْ، لتَأْمُرُنِي السَّيّدَةْ

[1] فكرة العدالة الإجتماعية عند المصريين

ماعت: - جِئْتُ أَسْتَفْسِرُ مِنْ سَيِّدِي هَلْ مِنْ الحَقِّ أَنْ يُقْتَلَ نِخْتِنْبُو دُونَ ذَنْبٍ سِوَى إِطَاعَةَ الأَوَامِرْ؟، كَانَتْ "مَاعِتُ" كَذِئْبَةٍ جَفَّتْ دُمُوعُهَا لَا تَرَى غَيْرَ هَدَفَاً غَادَرَتْ "بِتْخِيكَا" لأَجْلِهْ، لَمْ يَلْتَفِتْ القَائِدُ لقَوْلِهَا بقَدْرِ دَهْشَتِهِ مِنْ إِحْسَاسِهِ بأَنَّهُ يعْرِفُ هَذَا الوَجْهَ جَيِّدَاً، مَا زَالَ وجْهُهَا كَمَا رَآهُ مِنْ زَمَنٍ طَوِيلٍ بحَجْمِ مُعَانَاةِ مِصْر، إِنَّهَا هِيَ الفَتَاةُ فِي قَصْرِ قَائِدِ الجُنْدِ البَائِدْ، إِنَّهَا ...

ماعت: - أَلَا يُجِيبُنِي القَائِدُ .. أَقَلُّهُ حَتَّى تَهْدَأَ نَفْسِي الثَّائِرَةْ

القائد: - سَيِّدَتِي أَنَا أَتَذَكَّرُ هَذَا الوَجْهَ وأَيْنَ رَأَيتُهْ، أَلَسْتِ فَتَاةَ سِنِفْرُو الّتِي فَرَّتْ يَوْمَهَا؟ .

وَقَعَ الجَبَلُ عَلَى رَأْسَيْ "مَاعِتَ" و"هَامِيسْ "، مَنْ يَا تُرَى يَكُونُ الرَّجُلْ، هَلْ اقْتَرَفَتَا ذَنْبَاً عَظِيماً يَسْتَوْجِبُ هَذَا البَحْثَ عَنْهُمَا إِلَى الآنْ؟، أَنْ يَتَذَكَّرَ رَجُلٌ فِي مَنْصِبِهِ وَجْهَهَا مِن عُقُودٍ خَلَتْ فإِنَّمَا لذَنْبٍ عَظِيمْ

ماعت: - إِذَنْ فَأَنْتَ الضّابِطُ الّذِي عَادَ حَامِلَاً جُثَّةَ مِصْرَ لَيْلَتَهَا، أَنَا هِيَ مَاعِتُ أَيُّهَا القَائِدْ، لتَفْعَلْ بِي مَا شِئْتَ فَمَا عَادَ يَعْنِينِي، لكِنْ افْعَلْ لأَجْلِي شَيْئَاً وَاحِدَاً، أُرِيدُ ثَأْرِي مِمَّنْ أَغْرَى نِخْتِنْبُو بِفِعْلَتِهْ، وقَدْ أَحَالَ هَذَا الوَاجِبَ المُقَدَّسَ إِلَى جَرِيمَةْ، أَهَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَجْلِ إِمْرَأَةٍ قَدْ ضَاعَ مِنْ يَدَيْهَا حَصَادَ عُمْرِهَا؟ .

وَ إِذْ "بِهِنْفَر" كَالّذِي جَاءَ يَطْلُبُ صَيْدَاً فَاصْطَادَتْهُ الفَرِيسَهْ، وبَدَتْ مَكَانَهَا "هَامِيسُ" مُنْكَمِشَةً فِي حُضْنِ "سِمِنْدِسْ"، وكَأَنَّهُ الأَمْسُ عَائِدَاً بِهَلَعِهِ هَازِئَاً مِنْ مُرَاوَغَةِ الجَمِيعِ لَهُ، غَيْرَ أَنَّ رَدَّ القَائِدِ ومَا ظَهَرَ مِنْ دَهْشَتِهِ لحَدِيثِ "مَاعِتٍ" أَثْلَجَ الجَمِيعْ، وعَادَ بِهِمْ إِلَى عَبَاءَةِ الطُّمَأْنِينَةِ مِنْ جَدِيدْ .

القائد: - لأجْلِ مَاذَا أَفْعَلُ بِكِ مَا شِئْتُ يَا سَيِّدَةْ؟، دَعِينَا لمَا يَخُصُّ انْتِقَامَكْ، هَذَا أَمْرٌ يَطُولُ ولَيْسَ هُنَا مَكَانَهْ !، فَهَلْ لِي بزِيَارَةٍ للسَّادَةِ لَاحِقَاً بمَكَانِ إقَامَتِكُمْ؟، لَدَيَّ أَعْمَالٌ عَاجِلَةٌ الآنَ لَوْ تَسْمَحُونَ لِي، الضَّابِطُ أحْمُسُ يَعْرِفُ مَقَرَّكُمْ أَكِيدْ؟

سِمْنْدس: - بالطَّبْعِ سَيِّدِي القَائِدُ، تُشَرَّفُنَا زِيَارَتِكُمْ أيَّمَا شَرَفْ .

القَائِدْ: - ليكُنْ الضَّابِطُ أَحْمُسَ فِي عَوْنِ أُسْرَتِهِ اللّيلَةَ وليُعَاوِدْ معَ الصَّبَاحْ

أحْمس: - أَمْرُ سَيِّدِي ومَشْكُورٌ تَفَضُّلَهْ، ثُمَّ أَشَارَ لِأَهْلِهِ فَأَوْمَأوا شُكْرَاَ وإسْتَأذَنُوهْ، فَتَحَمَّلُوا العَرَبَةَ ومَضَواْ يَنْهَبُونَ الطَّرِيقَ إلَى دَارٍ بَالِيَةٍ "لسِمْنْدِسَ" عَتِيقَةً مُنْذْ غَادَرُوهَا ثَلَاثَتُهُمْ .

فِيمَا امْتَطَى "إسْفِينِيسُ" جَوَادَهُ مَاضِيَاً إلَى ضَاحِيَةٍ نَائِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي "ممْفِيسَ "، وفِي عُجَالَةٍ يَلْوِي عَلَى أَمْرٍ يَشْغَلُهْ .

وَ خَارِجَ عَرِيشَةٍ كَانَتْ "لسنِفْرُو" عَلَى رَأْسِ الحُقُولِ مِنْ حَوْلِ مَمْفِيسْ، يتَسَلَّقُهَا اللُّوفُ كَثَّاً، كَأَنَّهَا فَجْوَةٌ فِي كَومَةٍ مِنْ خُضْرَةْ، جَلَسَتْ عُصْبَةٌ مِنَ الفَلَّاحِينَ ومِنْ العُمَّالِ فِي انْتِظَارِ القَائِدِ " إسْفِينِيسَ"حَيْثُ قَدْ ضَرَبَ لَهُمْ مَوْعِدَاً، جَلَسُوا يَلُفُّهُمْ أسُفٌ عَلَى سَيِّدِهِمْ وعَلَى أَيّامِهِ البَائِدَةْ، وقَدْ كَانَ مُرْشِدَاً لَهُمْ مِنْ عَمَايَتِهِمْ إلَى التّوْحِيدْ، رَجُلٌ إسْتَطَاعَ تَدْلِيكَ إيمَانَهُمْ الخَائِفَ مُذْ انْصرَفُوا عَنْ نُورِهِ جَزَعَاً مِنَ بَطْشِ الطَّاغِيَةْ، وهَا هُو المَوتُ لَا يَفْقَهُونَ هَلْ عَاجَلَ "سِنِفْرُو" أَمْ عَاجَلَ إيمَانَهُمْ الرّخْوَ مَا زَالْ، يتَهَامَسُونَ دُونَمَا سَبَبٍ يُفَزِّعُ أَمْنَهُمْ...

هَنِي: - هَلْ بَلَغَكَ يَا حُورْ كَايُو مَا أَصَابَ مَوْلَاتِي مِيرِيتْ نِيتْ هَذِهِ المِسْكِينَةْ؟، غَلَبَهَا المُصَابُ ونَخَرَ بسُوسِهِ فِي قُواهَا

حُورْكَايُو: - إنّهَا مِنْ بَعْدِ سَيّدِي هِيَ والمَوْتَى سَوَاءْ، كُنْتُ أتمَنَّى أَنْ تُرْشِدُنَا مِنْ بَعْدِهِ أَوْ تَجْمَعَ لَنَا عِقْدَاً أَرَاهُ أَوْشَكَ أَنْ يَنْفَرِطْ

هَنِي: - أَتُرَى تَسَرَّبَ شَكٌّ حَوْلَ دِينِ سَيّدِنَا كَانَ ورَاءَ مَوْتِهْ؟

شِبْسِسْ كَارَعْ: - بالطَّبْعِ يَا إخْوَانِي لَكِنَّ اغتِيَالُ سَيدِنَا بَرِيئَةٌ مِنْهُ بِرْعَا، مَاذَا وإلَّا مَا كَانَ لَكُمْ شَمْلٌ يجْمَعُكُمْ اليَوْم، فَزِيدُوا مِنْ حَيْطَتِكُمْ تَحَسُّبَاً حَتَّى آتِيكُمْ بخَبَرِ الخَيْر

حُورْ: - ومَنْ الرَّجُلْ يَا هَنِي أَتَعْرِفُهْ؟

هَنِي: -؟! ...

نِفِرْ فَرَعْ: - إنَّهُ رَفِيقُ سَيِّدِنَا الذِّي أَتَتْ بِهِ تَاوْسِرْتُ بوِصَايَةٍ مِنْهُ بَعْدَ الخَبَرِ المَشؤُمْ، مِنْ يَوْمِهَا يَسْكُنُ كَوْخَ السَّيِّدِ هُنَا غَارِقَاً فِي صَمْتِهِ إلَّا فِيمَا نَدَرْ، كَأَنَّهُ عَابِدٌ لَا يَمَلَّ مِنْ دُعَاءْ، نَادِرُ الخِلْطَةِ بأَحَدْ

حُورْ: - إنَّ فِي مَنْطِقِهِ لحِكْمَةْ، ومَا زَجَّ بِهِ فَقِيدُنَا العَزِيزُ إلَّا لأَمْرٍ فَدَعُونَا لَا نُثْقِلَ عَلَيْهْ، ولنَتْرُكْهُ لشَأْنِهِ ولمَا يَعْلَمُهُ مِنْ وَاصَايَاً وَحْدُهُ يعْلَمُهَا، ولوَقْتِهَا يَكْتُمْهَا ثِقُوا فِي فَرَاسَتِي .

قَطَعَ حَدِيثَهُمْ فَارِسٌ يَسْبِقُهُ ضَجِيجُ سَنَابِكٍ[1] عَلَى الطَّرِيقِ تُسَابِقُ الهَزِيعَ نَحْوَهُمْ، فَأَدْرَكُوا بِفِطْنَتِهِمْ أَنَّهُ القَائِدُ طَالَمَا لَمْ يَتَخَفَّ فِي سَيْرِهْ، فَاطْمَأَنُوا واشْرَأَبُّوا إلَيْهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رُؤُسِهِمْ

القَائد: - السَّعَادَةُ لقُلُوبِكُمْ أجْمَعِينْ

الجميعْ: - أسْعَدَ الرَّبُّ قَائِدَنَا العَظِيمْ، تَفَضَّلْ يَا مَولَاي فَنَحْنُ فِي إنْتِظَارِكُمْ

[1] حوافر الخيل

القائد: - جَدَّتْ أُمُورٌ يَا سَادَةُ تَسْتَدْعِي تَأجِيلَ اجْتِمَاعِنَا لحِينْ، أُمرُ خَيرٍ لَا تَفْزَعُوا وانْصَرِفُوا آمِنِينْ، ثُمَّ نَظَرَ يَتَفَقَّدُ فِيهِمْ فِي إنْكَارٍ وأرْدَفَ: أَيْنَ شِبْسِسْ كَارَعْ؟، أُرِيدُهُ فِي مَهَمَّةٍ فَوْرَاً صَاحَ رَجُلٌ مِنْهُمْ إلَى قَادِمٍ مِنْ بَعِيدْ، هَا هُوَ قَادِمٌ يَا سَيِّدي، إنَّهُ دَائِمُ الخُلْوَةِ مُذْ عَرَفْنَاهْ، أسْرِعْ يَا سَيّدْ شِبْسِسْ كَارَعْ فالقَائِدُ يَسْأَلُ عَنْك.

أَرْمَلَ[1] " كَا رِعْ " فِي سَيْرِهِ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَىْ " إسْفِينِيسَ " مِنْ دُونِ أنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ مِنْ البُكَاءِ عَلَى مَا يَبْدُو، رَكَعَ مُهَمْهِماً فِي خُشُوعٍ .. أَمْرُ سَيِّدِي " إسْفِينِيسْ "، فَنَادَى القَائِدُ فِي القَوْمِ بتَلَطُّفْ أَنْ يَمْضُوا فِي سَلَامٍ حَتَّى يَبْعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولَا، ثُمَّ وَقَفَ يَرَاقِبُهُمْ إلَى أَنْ اطْمَأَنَّ للْظُّلْمَةِ أَنَّهَا ازْدَرَدَتْ آخِرَهُمْ، وانْحَنَى يَأخُذُ بِيَدِ "شِبْسِسْ كَا رَعْ" الرَّاكِعِ بَيْنَ يَدَيْهِ، أوْقَفَهُ فِي وُدٍّ وقَالَ بنَبْرَةٍ بَينَ البُكَاءِ والفَرَحْ، هَلُمَّ مَعِي يَا شِبْسِسْ كَا رَعْ فَلَدَيَّ مَا يَسُرُّكْ .

[1] مشي بين السعي والجري

لِقَاءْ

يَاهْ .. كَمْ مَضَى مِنْ العُمْرِ يَا سِمِنْدسَ الحَبِيبْ!، وقَفَتْ "هَامِيسُ "تُطِلُّ مِنْ شُرْفَةِ الأَمْسْ، رَغْمَ أَنَّ "سِمِنْدِسَ" رَافَقَهَا عُمْرَهْ، إلَّا أَنَّهُ حَنِينٌ لَهُ وَجِيبُهُ تِجَاهَ المَكَانْ، وفِي إشْفَاقٍ تَرنُو كَأَنَّهَا انْتَبَهَتْ لأَخَادِيدِ وَجْهِهَا فَجْأَةْ!، حَتَّى الحِجَارَةَ تُصِيبُهَا الشَّيخُوخَةُ؟!، وَقَفَ ثَلَاثَتُهُمْ يُحَدِّقُونَ فِي أَثَرٍ بَاتَ بَاهِتَاً، لَيسَ عَلَى حَالِهِ شَيءٌ إلَّا جُمَّيْزَةً مُعَمِّرَةً بِطَبْعِهَا، وَقَفَتْ تُعَانِي مِنْ نُفَايَاتِهَا المُكَدَّسَةِ والَّتِي لَا تَكْنُسُهَا الرِّيَاحُ إلَّا مَرَّةً فِي العَامْ، وانْتَبَهَتْ "مَاعِتُ" عَلَى فَتَاتِهَا القَدِيمَةِ وكَأَنَّ حُزْنَهَا العَتِيقُ لَابِدٌ هُنَا بشُقُوقِ الدّارْ، وأَنَّ اجْتِمَاعَ ثَلَاثَتِهِمْ هُنَا مَرْهُونٌ بالمَوْت، فِي آخِرِ أَيّامِهِ هُنَا تَرَكَ "سِمِنْدِسُ "مَلْحَمَةَ شِعْرٍ كَمْ بَنَى عَلَيْهَا أَمَالَا، قَدْ مَاتَتْ مِنْ لَيْلَتِهَا بقُدُومِ " مَاعِتَ وهَامِيسَ " بشُؤْمِ ذَاكَ اليَوْم، رُبَمَا مَا زَالَتْ مِحْبَرَتُهُ وقِرْطَاسُهُ يتَحَادَثَانِ تَحْتَ رُكَامِ الجِمّيزَةِ العَجُوزْ، وهُنَا تَرَكَتْا فَتَاتَيْنِ لَاهِيَتَيْنِ فِي أَحْلَامِ البَجَعَاتْ، مِنْ رُعْبِ يَومٍ قَدْ آتَاهُمَا بغَبَاوَةِ المَوْتْ، والهُرُوبِ بهَوَانِ الفِرَاقِ لمَرْتَعِ الصِّبَا أَمَامَ فَزَعٍ جَارِفْ، وهَا هُو الحُزْنُ ينْثُرُ عَطَنَهُ مِنْ جَدِيدْ، ووَقَفَ "أَحْمُسُ" فِي قَلْبِهِ مَشَاعِرٌ مْتَبَاينَةٌ تِجَاهَ بَيْتٍ يَعْرِفُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ أنّهُ لأَبَوَيْه ،وَ أنّهُمَا مِنْ أَهْلِ "مَمْفِيس "، لَيْسَ غَيْرَ "هِنْفَرْ" وَحْدَهُ بِلَا ذِكْرَياتٍ هُنَا، وَقَفَ نَبِيلاً كَعَادَتِهِ يُعَانِي أَلَمَهُ فِي صَمْتْ، وهُوَ يَرَى حَبِيبَتَهُ تَخُونُ أَيّامَهُ وتَرْتَمِي فِي ذِكْرَيَاتِهَا، تَتَقَلَّبُ فِي نَطْرَةِ عِشْقٍ ظَنَّهُ رَمِيماً صَارْ، فَأَضْحَى رَاضِيَاً مِنْهَا بقَلْبٍ تُرَاجِعُهُ مِنْ حِينٍ لحِينٍ غُصَّةٌ عَابِرَةْ، لكِنَّهُ الآنَ يتَأَلَّمُ فِي صَمْتٍ لهَذِهِ الأَمْوَاءُ[1] الّتِي تَفَجَّرَتْ فَاخْضَرَّتْ "مَاعِتُ" القَاحِلَةْ، ويَقْرُصُهْ هَذَا النَّخِيلُ الّذِي يَرْمِي

[1] جمع ماء.

بِتُمُورِهِ خَارِجَ عَيْنَيْهَا، فَرَاحَ يَخْتَفِي بِوَعْكَةِ قَلْبِهِ عَنْ نَظْرِ "مَاعِتَ" لَوْ حَدَثَ يَعْنِي وانْتَبَهَتْ لَهْ، وشَرَعَ فِي تَنْظِيفِ المَكَانِ كَأَبْلَهٍ لَا يقْرَأُ اللّفْتَةَ ولَا يُدْرِكُ أَفَاعِيلَهَا، هَكَذَا إمْعَانَاً فِي تَقْدِيرِها آثَرَ أَنْ يَبْدُو .

يَأْتِي عَلَى أَحَدِنَا حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ يَعْشَقُ أَلَمَهْ، رُبَّمَا لحَالَةِ الصّفَاءِ الّتِي يَخْلُقُهَا الأَلَمْ، أَوْ رُبَّمَا لحُبِّ القِيمَةِ الكَامِنَةِ فِي العَطَاءْ، لَكَنْ لَيْسَ بالضَّرُورَةِ لمَازُوخِيَّةٍ يَعْشَقُ الأَلَمَ، إنَّمَا لشَفَافِيَةٍ لَا تَتَحَقَّقُ إلَّا بالأَلَمْ .

لَفَتَ انْتِبَاهَ الجَمِيعِ حِينَ رَاحَ وَحْدَهُ يَشْرَعُ فِي تَنْظِيفِ المَكَانْ، فَبَلَّشُوا يُعَاوِنُونَهُ فِي كَسَلِ الحَزَانَى، وتَرَى "مَاعِتُ" انْصِرَافَهُ فَتَطْمَئِنُ لجَهَالَتِهِ بمَا يَعْتَرِيهَا، فَتُواصِلُ التَمْشِيَةَ آمِنَةً فِي حَوائِطِهَا[1] (١) والّتِي أَثْمَرَتْ بَغْتَةْ، لَا تُدْرِكُ كَمْ لأَجْلِهَا يَغُضّ "هِنْفَرُ" طَرْفَاً عَنْ تَفَّاحِهَا الطّارِحِ تَوّا، هُوَ المَكَانُ بذِكْرَيَاتِهِ الأَلِيمَةِ يُصِرُّ أَلَّا يُعْتِقَ "مَاعِتَ" مِنْ حَبَائِلِهْ، إيهٍ أَيَّتُهَا القِمْرِيَةُ الّتِي تَسْجَعُ بالحُزْنِ مِنْ يَومِهَا !، إنَّ قَلْبَكِ يَا مَاعِتُ صَبَّارَةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا أَنْ تَقِفَ عَلَى مَرِّ الأَيَامِ حَارِسَةً لجَبَانَةٍ دَفَنْتِ فِيهَا أَحْبَابَكْ، نَامِي أَيّتُها العَتِيقةُ الحُزْنِ نَامِي، فغَدَا نِيَاحَةٌ يَخْلُقُهَا آمُونُ لأَجْلِكْ .

مَضَى بِهِمُ الوَقْتُ ليُصْبَحَ المَكَانُ لَائِقَاً بَعْضَ الشَّيءِ بأَجْسَادِهِمْ المُنْهَكَةْ، قَدْ أَخَذَ طَائِفُ اللَّيْلِ أَعْيُنَهُم مِنَ الجَهْد، وبَدَأَ يَتَسَرَّبُ كَلِصٍّ شَرِيفٍ نَحْوَهَا، لَكِنْ هَيْهَاتْ !، حَالَ بِيْنَهُ وبَيْنَهَا وَقْعُ خَيْلٍ تَدْنُو حَتَّى كَادَتْ تَكُونُ دَاخِلَ الحَائِطِ المُهْمَلْ، فَانْتَبَهَتْ حَتَّى جُدْرَانُ الدّارِ لِهَؤُلَاءِ الزّائِرِيْنَ فِي إنْكَارٍ وتَرَبُّصْ، وهَتَفَ القَادِمُ المُخِيفُ بِاسْمِ "أَحْمُس"

أَحْمُسُ: - هُوَ مَوْلَايَ إسْفِينِيسْ، مَاذَا أَتَى بِهِ السَّاعَةَ مِنْ هَزِيعِ اللّيْلْ؟!

[1] بساتينها

هَبَّ خَارِجَاً لِيَرَى رَجُلَيْنِ عَرِفَ فِي أَحَدِهِمَا سَيِّدَهُ بَينَمَا أَنْكَرَ صَاحِبَهُ مُهَمْهِمَاً .. مَوْلَايْ!، تفَضَّلْ، أَهْلَاً بِمَقْدِمِكَ كَالنِّيلْ

القَائِدْ: - عُذْرَاً فَارِسِي المِغْوَارْ، هَلَّا أَذِنْتَ لَنَا فالأَمْرُ فِي غَايَةِ مِنَ جِدٍّ ومِنْ ضَرُورَةْ؟

لَمْ يُمْهِلْ الصَّوْتُ "أَحْمُسَ "فَأَتَى مَتلْهُفَاً صَوْتُ "مَاعِتَ "بالإِذْنْ، فَدَلَفَا نَحْوَ الدَّاخِلِ فِي حَيَاءْ، أَفْسَحَ لَهُمَا "هِنْفَر "وَ أَشَارَ بالْجُلُوسْ مُرَحِّبَا، ودَخَلَتْ المَرْأَتَانِ بِلَهْفَةِ المُنْتَظِرِ أَمْرَاً طَالَ وفِيهِ حَياتِهِ أَوْ مَوْتِهْ، لَكِنَّ "مَاعِتَ" كَالَّتِي اصْطَدَمَتْ بَحَائِطِ القَدَرْ، فَأَصَابَهَا دُوَارُ الصّدْمَةِ المُبَاغِتَةْ، لَمْ يَكُنْ الغَرِيبُ بِالغَرِيبِ عَنْهَا، كَيفَ وهُوَ الّذِي يَسْقِي زَقُّومَةً فِي قَلْبِهَا مِنْ عُقُودْ؟، وهَلْ يَتُوهُ الحُزْنُ عَنْ أَسْبَابِهْ !، مَا وَقَعَتْ عَيْنَا "مَاعِتِ "عَلَى الغَرِيبِ حَتَّى شَقَّتْ سَمَاءَ البَرِيَّةِ مِنْ حُوْلِهَا صَيْحَتُهَا !! .... رَبَّاهْ، أَيُعْقَلُ أَنَّ آمُونَ قَدْ أَشْفَقَ لَهَا؟!،

أَهُوَ أَنْتَ سِنِفْرُو مَنْ دَفَنَ مَاعِتَ عُمْرَهَا مَعَهْ، يَاهْ .. سِنِفْرُو .. أَيُّهَا الأَنَا التِي أَخْذْتَهَا بمَوْتِكَ الكَاذِبْ!، إِنْدَفَعَتْ إِلَى حُضْنِهِ وهِي تَهْذِي بِلَا وَعْيٍ فِيمَا كَانَ "سِنِفْرُو " يَشْهَقُ كَنَاجٍ مِنْ غَرَقْ، دُونَمَا كَلِمَةٍ يَعْصِرُهَا زَيْتُونَةً تَسِيلُ بزَيْتِهَا فِي صَدْرِهْ، والجَمِيعُ كَالّذِينَ أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ إِلَّا شَرِيكَةَ الأَمْسِ "هَامِيسْ"، وَقَفَتْ تَسْتَرِقُ النَّظَرَ إِلَى هِنْفَر المِسْكِينْ، هَكَذَا تَذْبَحُهُ إِمْرَأَةً سَعِيدَةٌ ..سَعِيدَاً، فِرَاقُ إِمْرَأَةٍ لَا تَكْرَهُهُ أَجْدَرُ بِهِ مِنْ تَمَسُّكِهِ بِامْرَأَةٍ لَا تُحِبُّهْ، كَانَ لِنُبْلِهِ أَسْبَابُهُ الّتِي انْتَحَرَتْ عَلَى شِفاهِ عَاشِقَيْن، إِذَنْ فَلَا تَمُوتَنَّ رُجُولَتَهُ فِي عُيُونِ أَحِبَّتِهِ وإِنْ تَغَاضَوْا لأَجْلِهْ، وكَانَتَ "هَامِيسُ "تَقْرَأُ نَفْسَهُ المَدْبُوحَةْ!، ذَابَتْ "هَامِيسُ" خَجَلَاً لأَجْلِ "مَاعِتْ"،

تِلْكَ الغَائِبَةُ حَتَّى عَنْ حُزْنِهَا، وقَدْ أتَتْ تَطْلُبُ ثَأرَاً، تَقَدَّمَتْ وَسَطَ أَصْنَامٍ تَدُقُّ فِي صُدُورِهَا قُلُوبٌ وَجِفَةٌ مُسْتَنْكِرَة!، وهَزَّتْ "مَاعِتَ" بِقُوَّةٍ وهَمَسَتْ فِي أُذُنِهَا:

هاميس: - ونِخْتِنْبُو يَا عَزِيزَتِي أمَا تَنْبِضُ ذِكْرَاهُ فِي قَلْبِكْ؟!

أفِيقِي أَيّتُهَا المِسْكِينَةْ، هَذَا زَوجُكِ يَكَادُ يَمُوتُ مِنْ صَدْمَتِهْ، مَاعِتْ يَالَ حَظِّي مِنْكِ يَا إمْرَأةْ، أفِيقِي مِنْ هَذَيَانِكْ.

جَلَسَ "إسْفِنِيسُ "لَا يَدْرِي عَنْ حَالِهْ، مَا كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ رِجُلاً هُنَا قَدْ يكُونُ زِوْجَاً للسَّيِّدَةْ، يَا لَكَ مِنْ أَحْمَقٍ فَاتَكَ أَنْ تُخَمِّنَ أَمْرَاً بَدِيهِيَّاً، فقَتَلْتَ رَجُلاً وأَنْتَ آتٍ لتُحْيِيَّ رَجُلْ !، فَمَا مَلَكَ أَنْ صَاحَ يُنَبِّهُ "سِنِفْرُو" كَي يَسْتَفِيقَ ويُفِيقَ إمْرَأَةً تَنَاسَتْ بِهِ الدُّنْيَا مِنْ حَوْلِهَا:

القائد: - سِنِفرُو أَيُّهَا العَزِيزْ، أعْتَقِدُ أنّ السَّيِّدَةَ أَتَتَنِي بالأَمْسِ لأَمْرٍ بخُصُوصِ نِخْتِنْبُو، عَلَيْنَا الآنَ أَنْ نُنْهِيَهُ قَبْل أَنْ يَدْهَمُنَا الوَقْتْ، وكَأَنْ "سِنِفْرُو" يسْمَعُ بِاسْمِ "نِخْتِنْبُو "لأَوَّلِ مَرَّةْ، بَدَا خَجِلاً مِنَ الوُقُوفِ المُحَدِّقِينَ بِهِمَا، فَانتَقَلَتْ عَدْوَى الخَجَلُ إلَى مَاعِتْ، إنْزَوَتْ عَنْ عُيُونِ" هِنْفَرْ "لَا تَدْرِي مَا تَقُولُ ولَا بِمَاذَا تَشْرَحْ، وقَدْ وَجَدَتْ مَهْرَباً فِي القَائِدْ، تَهَدَّلَ صَوْتُهَا وعُيُونُهَا مُعَلَّقَةً "بسِنِفْرُو " وقَالَتْ

مَاعِتْ: - قُلْتَ أَنَّ الأَمْرَ يَحْمِلُ طَابَعَاً سِرِّي، مَا دَخْلُ وَلَدِي بسِرِّيَةٍ تَخُصُّكُمْ؟!، أَلَيْسَتْ هِي نَفْسَهَا الوَاجِبَاتُ السِّرِّيَّةُ والّتِي أَوْدَتْ بِوَلَدِي؟، تَبَّاً لَهَا مِنْ طُقُوسٍ يقْتُلُ بهَا وَطَنٌ أَبْنَاءَهْ ! .

سِنِفْرُو: - نِخْتِنْبُو قَاتِلِي لوْلَا الله هُوَ وَلَدُكِ أَنْتِ يَا مَاعِتْ؟!

مَا ظَنَنْتُ القَدَرَ طَاعِنِي هَذِهِ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءْ، رَغْمَ إجْرَامِهِ يَا مَاعِتَ لَيْتَنِي مِتُّ مِنْ طَعْنَتِهِ ولَا طَعَنَنِي الخَبَرْ، لَيْتَهُ حَيٌّ لأَجْلِكِ أَنْتِ ومَاتَ سِنِفْرُو يَا إمْرَأَةً تُعَذِّبُ سِنِفْرُو مِنْ صِبَاهْ، ربَّاهْ لَا يَحْتَمِلُ قَلْبِي بُغْضَ إمْرَأَةٍ أَهْوَاهَا، أَهَكَذَا إنَّ كُلَّ عَثْرَةٍ بَينَنَا زَائِلَةْ، إلَّا ابْنَاً بَينَ إمْرَأَةٍ ورَجُلٍ هُوَ العُمْرُ حَبِيبَهَا، سَامِحِينِي يَا حَبَّةَ القَلْبْ

مَاعِتْ: - أَهُوَ أَنْتَ؟!، هُوَ هُوَ يَا هَامِيسُ، مَا كَذَبَ الفُؤَادُ يَا إمْرَأَةْ، لَهَفِي عَلَيْكَ لَوْ دَرَيْتَ أيُّ إبنٍ هُو يَا سِنِفْرُو الغَافِلْ .. إنَّهُ نِخْتِنْبُو ثَمَرَةَ رُوحِكَ يَا سِنِفْرُو، إنَّهُ ابْنُ لَيَالٍ مِنْ لَوْعَةِ الفِرَاقِ وَقْتَهَا، يَا مَوْعُودَ

مَاعِتَ الآتِي فِي ذُبَالَةِ العُمْرْ، إنَّهُ ابْنُنَا يَا رَجُلاً مُبْتَلَى، يَا كُلَّ البُكَاءِ الّذِي رَبَّيْنَاهُ العُمْرَ تَبْدُو طِفْلَاً أَمَامَ بُكَائِنَا الآتِي، فَلنَبْكِي رُوْحَيْنَا الآنَ يَا سِنِفْرُو حَتَّى الفَنَاءْ .

إنَّهَا سَكْرَةٌ أَصَابَتْ بِعَمَهِهَا الجَمِيعْ، و"سِنِفْرُو" بَدَا كَغَرِيقْ، فَحَبْلُ نَجَاتِهِ غَرَقٌ مُخْبُوءْ، (أَيُّ عَقْلٍ يَسْتَوْعِبُ تِلْكَ الدِّرَامَا الإلَهِيَّةْ؟!، سِنِفْرُو أَيُّهَا المَعْفُوُّ عَنْهُ مِنْ مَصِيرٍ مُحْتُومْ، يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُ فِي سَرَّائِكْ هَا قَدْ أَتَاكَ بَلَاؤُكْ!، آ الرَّبُّ كَانَ مُفْلِتُكَ ليَوْمِكَ هَذَا العَصِيبْ؟

أ مُوقِنٌ أَنْتَ يَا سِنِفْرُو مِنْ حِكْمَةِ رَبِّكَ أَمْ سَتَذْهَبُ بَكَ المُصِيبَةْ؟!

إنْ يَكُنْ فَغَارِقٌ أَنْتَ مِنْ وَقْتَهَا مَعَ مَنْ غَرَقُوا هَالِكِينْ !

هَلُمَّ إلَى إيمَانِكَ أَيُّهَا الغَرِيقُ فِي مَلْهَاةِ القَدَرْ، فَلَنْ يُنْجِيكَ إلَّا القَدَرْ)

إسفِينِيسْ: - العَزِيزُ سِنِفْرُو، سَيِّدَتِي المُبَجَّلَةُ مَاعِتْ، أَيَّهَا السَّادَةُ جَمِيعُكُمْ ... إنَّهُ سِرٌّ مُعَلَّقٌ بِهِ مَصِيرُ عُصْبَةٍ كَانَ اغْتِيَالُ سِنِفْرُو بِدَايَتُهَا، سِرٌّ تَعْلَمُ نِصْفَهُ أَنْتَ يَا صَدِيقِي وتَحَتَّمَ أَنْ تَعْلَمَ نِصْفَهُ الآخَرَ رَحْمَةً بِكُمَا وبالجَمِيعْ، فَلْيَحْفَظْ الجَمِيعُ هَذَا السِّرْ (.....

الوَرِيثْ

فَتَحَ " خِنِمْ آمُونْ " البَابَ فِي تَوَتُّرْ، كَانَ الصَّوْتُ آمِرَاً ووَاثِقَاً ..." إفْتَح لِسَيِّدَكْ "، حَمْلَقَ فِي القَادِمَيْنِ مَلِيَّاً ثُمَّ تَهَلّلَتْ أَسَارِيرُهُ حِينَ تَحَقَّقَ مِنْ صَاحِبِ الصَّوْتْ، أَفْسَحَ فِي لَهْوَجَةٍ[1] وهُو يَلْهَجُ .... الكَاهِنُ الأَكْبَر !

خنم آمون: - تَفَضَّلْ يَا سَيِّدَنَا مِنْكَاو المُبَجَّلْ، يَاهْ يَا سَيِّدِي مَا أَسْرَعَ الزَّمَنْ، كَمْ مَرَّ مِنْ أَعْوَامٍ طِوَالٍ مُنْذُ آخِرِ عَهْدِكَ بِنَا، هَرِمْنَا يَا سَيِّدِي وفَقَدْنَا فِيمَا فَقَدْنَا مَلَامِحَنَا الشَّابَّةَ فَاعْذُرْ شَيخُوخَةَ خِنِمْ آمُونُ أَيُّهَا السَّيّدْ

مِنْكَاو: - إنَّهَا الأَعْبَاءُ الَّتِي تَعْلَمُهَا أيُّهَا العَزِيزُ خُنُمْ آمُونْ

خُنُمْ: - أَبْقَى آمُونْ رَعْ عَلَيْكَ عَافِيَتَهْ، أَ عَسَاهُ حُمَّ الأَمْرُ يَا مَوْلَاي

مِنْكَاو: - هُوَ العَزِيزُ خُنُمْ بِفَرَاسَتِهِ المَعْهُودَةْ، مَا أَخْبَارُ أَمَانَةِ مِصْرَ الّتِي أَمَّنَّا عَلَيْهَا المُخْلِصِينَ هُنَا؟

خُنُمْ: - بِخَيْرٍ يَا مَوْلَايَ .. غَيْرَ أَنَّ مَوْلَاتِي تُويَا اسْتَدْعَاهَا إيزُورِيسُ إلَى بَرِّهِ الغَرْبِيِّ وامْتِثَالَاً للسِّرِّ الأَعْظَمِ لَمْ نُرْسِلْ إلَى عِلْمِ الْمُوَقَّرِ بالخَبَرْ، وقَدْ تَمَّتْ طُقُوسُ التَّحْنِيطِ فِي مَرَاسِمٍ جَنَائِزِيَّةٍ لَمْ تَخْرُجْ عَنْ مُحِيطِ المَعْبَدْ، هِيَ الآنَ خَبِيئَةَ تَابُوتُهَا المَلَكِيِّ بَيْنَ تَمْثَالَيْ رَعْ وآمُونْ.

[1] فصيحة معناها عمل الشيء بسرعة.

مِنْكَاوْ: - لِيَرْعَاهَا إِيزُورِيسُ[1] ولتَتْقُلَ بهَا مَاعِتُ[2] بَعِيدَاً بَعِيدَاً عَنْ عَمْعَمُوتْ الشِّرِّيرِ[3] آمِينْ، فَرَدَّدَ خُنُمْ وسُوفْخَاتِبُ آمِينْ، ووَاصَلَ حَدِيثَهُ سَائِلَاً " خُنُمَ "

منكاو: - ومَا أَخْبَارُ سَادَتُنَا أُمَرَاءُ مصْرَ؟، عَسَى الجَلِيلُ قَدْ أَحْسَنَ تَنْشِأَتَهُمْ فَرَاعِينَاً يُبَاهِي بِهِمْ سِتِي مِرِنْبِتَاحُ العَظِيمُ آبَاءَهُ رَعْ وآمُونَ وتَاسُوعِ العَالَمَ المُقَدَّسْ، أَظُنُّكَ قَدْ فَعَلْتْ .

خُنُمْ: - أَلَا يَرْتَاحُ المُبَجَّلَيْنِ لَيْلَهُمَا مِنْ وَعَثَاءِ الطَّرِيقِ وغَدَاً لقَرِيبْ؟

منْكَاو: - إنَّ الأُمُورَ فِي مَمْفِيسَ لتُعَجِّلُ بوَرِيثِهَا الشَّرْعِيِّ يَا عَزِيزِي، وعَلَينَا أَنْ نَتَقَابَلَ بالأُمَرَاءَ فَوْرَاً، عَجِّلْ يَا خُنُمْ إنَّهُ العَرْشُ فِي خَطَرٍ إنْ لَمْ تَكُنْ للأَمِيرِ رَمْسِيس حَامِيَةٌ مِنْ تَمَرُّدٍ يَبْدُو مُحْتَمَلَاً، وطَالَمَا عَلَى رَأْسِ جَيْشِهَا مَارِقٌ كَإِسْفِينِيسْ، ثُمَّ رَاحَ يَرْقُبُ سُوفْخَاتِبَ بِنَظْرَةٍ ذَاتَ مَغْزَى لتَعْزِيزِ رِوَايَتِهْ، وبِالتَّالِي يُمَهِّدَانِ طَرِيقَاً إِلَى حِقْدِ رَمْسِيسْ !

خاتبْ: - للْأَمْرِ أَبْعَادٌ أَخْطَرُ مِنْ أَنْ نُبْطِئَ بِهَا عَنْ الأَمَرَاءِ يَا عَزِيزِي، فَلَمْ نَخْرُجْ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ ولَا تَرَكْنَا مَعْبَدَنَا عَبَثَاً إِلَى أَبَدٍ نَعُودُ فِيهِ فِي مَعِيَّةِ الفِرْعَوْنِ وتَحْتَ مِظَلَّتِهِ الإِلَهِيَّةْ، فَلتُسْرِعْ بِنَا خُنُمْ

خُنُمْ آمُونْ: - سَمْعَاً وطَاعَةً للمُوَقَّرَيْنْ، ورِكَعَ إِجْلَالَاً لَهُمَا وشَرَعَ مِنْ فَوْرِهِ خَارِجَاً مِنْ الرُّدْهَةِ لِأَمْرِهِمَا الطَّارِئْ .

---

[1] رئيس محكمة الموتى.

[2] ريشة ماعت وهي رمز ميزات الأعمال في الآخرة .

[3] حيوان أسطوري يأكل أرواح الموتى في الآخرة (رمز للجحيم).

فَخَلَا البَهْوَ لَهُما، وَظَهَرَا ثَعْلَبَيْنِ يَطْمَحَانِ لاسْتِعَادَةِ نُفُوذاً قَدْ أَوْشَكَ بِهِ الخَطَرْ مِنْ غَدْ، وتَجُولُ بِرَأسِ كُلٍّ مِنْهُمَا تَسَاؤُلَاتٍ عَنْ شَخْصِ كَبِيرِ الأُمَرَاءْ (هَلْ تُرَاهُ فِي عَظَمَةِ وشَكِيمَةِ وَالِدِهِ إلَهُ مِصْرَ المَعْدُور؟، و يَا تُرَى لَوْ صَدَقَتْ وِرَاثَتُهُ أَبِيهِ قَدْ حَازَ تَرْبِيَةَ الفَرَاعِينِ ونَشْأَتَهُمْ فَوْقَ ظُهُورِ الخَيْلِ ومُعْتَرَكِ العَجَلَاتْ، عَسَاكَ لَا يَخِيبَ ظُنُّكَ فِي أَمِيرِكَ الشَّابَ الّذِي تَجْهَلُ عَنْهُ كُلَّ شَيْءْ، لَا تَتَذَكَرَ مِنْهُ إلَّا الطِّفْلَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ أَمَانَةً رَهْوَةَ وهُلَامِيَّةَ الطَّالِعْ، اللّعْنَةُ عَلَى سِنِفْرُو بِمَا أَثَارَهُ مِنْ قَلَاقِلْ، وبِمَا تَبَنَّاهُ مِنْ دَعْوَةِ لدِينِ مُوسَى، تِلْكَ الدَّعْوَةُ الّتِي لَمْ تَلْقَ صَدَىً فِي مَمْفِيسِ القَوِيَّةِ وَقْتَهَا، اليَوْمَ يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَسُودَ فِي مَوَاتِ مَمْفِيسْ، اللَّعْنَةُ عَلَى إسْفِينِيسَ أَيْضَاً، لَوْ يَضْمَنُ منْهُ طَمَعَاً وطُمُوحَاً لِعَرْشٍ خَالٍ ومُتَاحٍ لَوْ رَغِبْ، لَمْ يَجِدْ مِنْكَاوُ لَدَى إسْفِينِيسَ عَجِينَةً تُرْبُو فِيهَا خَمَائِرُهُ وتَصْحُو فِيهَا آلِهَتُهُ الكَاذِبَةْ، آهٍ لَوْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي إسْفِينِيسٍ!، إذَنْ مَا كَانَ فِي حَاجَةٍ للعَنَاءِ ولَا حَاجَةً لأَمِيرٍ يَجْهَلُ عَنْهُ شَكِيمَتَهْ) .

يَقْطَعُ صَمْتَهُمَا الكَاهِنُ "خُنُمْ آمُونُ" مُعْلِنَاً مَقْدِمَ الأَمِيرِ، والّذِي وَلَجَ البَهْوَ مَمْشُوقَاً أَهْيَفَاً وَاثِقَاً فِي طَلَّةِ الآلِهَةْ، فَنَظَرَ "سُوفْخَاتِبُ" مَزْهُوَّاً إلَى " مِنْكَاوِ " فَإذَا بِهِ قَدْ بُهِتَ إعْجَابَاً الَّذِي كَفَرْ .

خَرَّ مَنْ فِي حَضْرَةِ الأَمِيرِ إجْلَالَاً دُونَ تَرَدُّدٍ كَأَنَّهُ أَرْغَمَتْهُمْ طَلَّتُهُ الشَّبِيهَةُ" بِرَعْمسِيسَ" الأَوَّلِ ورَهْبَتِهْ، وارْتَكَنَتْ نَفْسُ "مِكَاو" إلَى عُنْفُوانِ شَابٍ قَدْ خُلِقَ للمُلْكْ، وَطَابَتْ سَرِيرَتُهُ اللئِيمَةُ واطْمَأَنَّتْ لسِيَادَةِ آمُونَ فِي ظِلِّ فِرْعَونَ فَارِضَاً بَأْسَهُ لَا مَحَالَةْ، سَاجِداً يُحَدِّثُ نَفْسَهُ حَتَّى أَنَى أَمْرُ الأَمِيرِ إلَيْهِمْ أَنْ يُعَرِّضُوا وُجُوهَهُمْ لآتُونِ عَيْنَيْهْ .

كَانَتْ الرَّهْبَةُ تَأْخُذُ "مِنْكَاوَ" وتَمَلَّكَتْهُ حَضْرَةُ رَبِّ فِعْلِيٍّ لِمِصْر، مُتَعْتِعَاً رَاحَ يَجْمَعُ شَتَاتَهُ ويُثِيرُ شَهِيَّةَ شَابٍ جَسُورٍ للمُلْكِ، وحِقْدَ مَكْلُومٍ فِي أَبِيهِ يُطْلِقُ تَنَانِينَهُ بِالنَّارِ الحَامِيَةْ .

السَّرّ

إعْتَدَلَ "إسْفِينِسُ" وبَلَّشَ يَقُصُّ عَلَى "سِنِفْرُو "نِصْفَ سِرِّهِمَا المَجْهُولْ، ويَحْكِي سِرَّهُمَا كَامِلاً عَلَى قُلُوبٍ رَاجِيَةٍ ومُشْفِقَةْ ..

قَالْ: - هُنَاكْ .. كَانَ سِنِفْرُو يَتَعَافَى مِنْ سِيْفِ نِخْتِنْبُو القَاتِلْ، وقَدْ أْكُلُ الشَّكُ قَلْبَيّ سِنْفْرُو وزَوْجَهُ مِثْلَمَا أَرَّقَنِي السِّرُّ مِنْ وَرَاءِ القَاتِلْ، ولأَىِّ أَمْرٍ يُدَبِّرُ أَهَمُّ مِنَ القَاتِلِ الّذِي بَاتَ مَعْلُومَاً لثَلَاثَتِنَا، فِي أَثْنَاءِ زِيَارَاتِي الخَفِيَّةِ لأَعُودَ صَدِيقِي، كَمْ جَلَسَتُ إلَيْهِ وإلَى مِيرِتْ، نَتَبَاحَثُ للأَمْرِ الحِيَل والتَّدَابِيرْ، ومَا اهْتَدَينَا لحِيلَةٍ .. حَتَّى أَهْدَتْنَا السَّمَاءُ تَدْبِيرَهَا، إنْصَرَفَتْ بِرْعَا مِنْ زِيَارَةِ زَوْجِ وَزِيرَتِهَا الأَثِيرَةِ ومَعَهَا الكَهَنَةْ، تَبِعَتُهَا مَعَ نِخْتِنْبُو بَعْدَمَا رَعَى الأَخِيرُ حِيلَتَهُ الّتِي مَا ابْتَلَعَهَا مِنْكَاوْ وهَرَبَ مِنْ لَيْلَتِهْ، مَا ابْتَعَدَنا قَلِيلاً حَتَّى جَاءَنَا الصُّرَاخُ الذِي قَدْ أَفْزَعَ الجَمِيعَ وَقْتَهَا، وكَانَتْ الرِّيحُ قَدْ أَلْقَتْنَا إلَى دَاخِلِ قَصْرِ مِيرِيتْ نِيتْ الغَارِقِ فِي النَّدِيبْ، فَأَلْفَيْنَا السَّيّدَةَ مُتَهَالِكَةً وكَمَا غَادَرْنَاهَا فِي صَمْتٍ مِثْلَ طُرْشَانٍ وكَأَنَّ العَويلَ لَمْ يَكُنْ، فَخَرَّ نِخْتِنْبُو إلَى جِوَارِهَا مَأْكُولَ القَلْبِ مِنْ ذَنْبٍ بَغِيضٍ أَيْقَنَ بِفَدَاحَتِهْ، وكَأَنَّهُ الذَبِيحٌ يَطْلُبُ مَوْتَهُ الآنَ جَاثِيَاً تَحْتَ قَدَمَيْهَا، فِيمَا كُنْتُ علَى رَأْسِ صَدِيقِي الأَمِينْ، والذِي تَفَاجَأْتُ بِهِ حَيَّاً مُعَافَى .. بَلْ ومَدْهُوشَاً مِنْ نَعِيقِ تَاوْسِرتْ، فَأَوْمَأْتُ لَهُ كَمَنْ أُلْهِمَ مِنْ سَمَاءٍ أَنْ يَسْكُتْ، وتَسَلَّلْتُ إلَى الجَارِيَةِ فِي خِفَّةٍ إلَى حَيْثُ غُرْفَتِهَا مُتَتَبِّعَاً العَويلْ، لأُفَاجَأَ بسَبَبٍ صُرَاخِهَا المُفْزِعْ، كَانَ حَلِيلُ[1] الجَارِيَةِ مُلْقَىً عَلَى الأَرْضِ تَعْلُوهُ زُرْقَةُ المَوتْ، مُتَوَرِّمَ الوَجْهِ ونَافِرَ الأَوْدَاجِ مِنْ أَثَر السُّمّْ، وكَمَا عَلِمْتُ مِنْ تَاوسِرتِ

[1] زوجها

بِرُجُوعِهِ مُتَرَنِّحَاً يُرَدِّدُ ... الأَفْعَى يَا تَاوْ .. أدْرِكِي " نُي أُوسِرْ " يَا إمْرَأَةْ وخَرَّ بَعْدَهَا بِلَا حِرَاكْ .

كَانَ "نِي أُسِرْ" مِنْ عُمَّالِ الحُقُولِ وتَابِعَاً "لسِنِفْرُو "، يَأْوِي إلَى زَوْجِهِ " تَاوْسِرْت " بَيْنَ الحِين والحِينْ، حَتَّى أَمَرَتْ بِهِ ميري ليُقِيمَ مَعَ إمْرأَتِهِ كَي تَسْتَقِيمَ إقَامَتَهَا وتَسْتَدِيمْ، وهَذَا بَعْدَ مِيلَادِ "إبْسمَاتِكْ " كَيْ تَفْرُغَ "تَاوْ" لتَربِيةِ الوَلِيدْ، يَخْرُجُ كُلَّ صَبَاحٍ إلَى عَمَلِهِ ثُمَّ يَعُودُ مَعَ حُلْكَةِ اللَّيلْ حَتّى كَانَ موْعِدُهُ مَعَ حَتْفِهِ تِلْكَ اللَّيلَةَ وعَلَى بِضْعِ أمْتَارٍ مِنَ القَصْر، وَطَأَتْ قَدَمُهُ شَيْئَاً كَكَوْمَةِ رَوَثٍ فِي الطَّرِيقْ، لَمْ تُوحِلْ قَدَمُهُ كَمَا تَوَقَّعَ ورَاحَ يُكِيلُ السُّبَابَ لِكُلِّ شَيْء، ووَاصَلَ الطَّرِيقَ نَحْوَ إمْرَأتِهِ لكِنَّ السُّخُونَةَ والهُبُوطَ كَانَتَا تُسْرِعَانِ بِهِ فَجْأةْ، حَتَّى وَقَعَ صَرِيعَاً بَيْنَ يَدَيْ تَاوْ المَكْلُومَةْ.

تَبَلْوَرَتْ فِي رَأْسِي الحِيلَةُ مِنْ سَاعَتِي، وقُلْتُ مُوَاسِيَاً تَاوْسِرْت

القائد: - ليَرْحَلْ فِي سَلَامٍ إلَى مَرْقَدِهِ فِي خُلُودِ أُوزُورِيسْ، إسْمَعِينِي أيَّتُهَا الجَارِيَةُ جَيِّدَاً ،

تَاو سرت: - ليَأمُرْ سَيِّدِي فَمَا عَلَى تَاوْسِرْتَ إلَّا الطَّاعَةْ وَهِي تُحَمْحِمُ مِثْلَ فَرَسْ !

القائد: - لأجْلِ "بِرْ عَا " المَعْبُودَةِ تَكِتَّمِي مَوْتَ نِي أُوسِرْ لَا يتَسَرَّبَ خَبَرَهُ، لأمْرٍ يَخُصُّ مِصْرَ سَنُشِيعُ مَوْتَ سَيِّدَكِ سِنِفْرُو، وأَعِدُكِ بِجَنَازَةِ الأُمَرَاءِ لأَجْلِ زَوْجِكِ الفَقِيدْ، وإيَّاكِ مفْهُومٌ يَا إمْرَأَةْ؟!

تاو سيرت: - أمْرُ سَيِّدِي مُطَاعٌ ولأَحْزَنْ حُزْنِيَ الصّادِقَ ولتَحْزَنُوا حُزْنَكُمْ.

عُدتُّ عَلَى عجَلٍ حَامِلَاً جُثْمَانَ الرَّجُلِ وتَتَحَسَّسُ لَيَ تَاوْسِرْتُ طَرِيقِي لِمِخْدَعِ سَيِّدِهَا، ثُمَّ أَنِّي أخْبَرْتُ سِنِفْرُو بجِيلَتِي، فقَامَ سنِفْرُو يَتَسَرَّبُ إلَى خَارِجِ القَصْرِ فِي حَذَرٍ إلَى غُرفَةِ تَاوْسِرتْ، فِي انْتِظَارِي، ومَكَثْتُ عِنْدَ

رَأْسِ المَيِّتِ المُسَجَّى حَرِيصَاً أَنْ يَصِلَ رِثَائِي إِلَى آذَانِ نِخْتِنْبُو صَائِحَاً.. أَهُوَ لَا غَيْرَكَ يَا صَاحِبِي غَارِقَاً فِي دِمَائِهِ ومُفَارِقَاً الحَيَاةْ، هَذَا اللّحْمَ البَارِدَ لصَدِيقِ العُمْر؟!، ووَدَّعْتُ الجُثَّةَ هَابِطَاً إلى حَزِينَيْنِ فِي بَهْوِ القَصْرِ،

وَقَعَ نَظَرِي عَلَى إبْسِمَتِيكْ يَلُوذُ بِامْرَأَةٍ جَامِدَةٍ كَنُصُبٍ مِنْ أَنْصَابِ المَعَابِدْ الرَّاسِخَةِ السُّكَاتْ، ومَا زَالَتْ تَاوْسِرْتُ عَلَى أَرْضِيَّةِ البَهْوِ تُمَارِسُ هُوَايَةَ إمْرَأَةٍ جَائِعَةٍ للجَنَائِزْ، فَرَفَعَتُ مِنْ صَوْتِي أُرَدِّدُ " لَا أَحَدَ هُنَا تُواسِيهَ يَا إسفِنِيسْ، الكُلُّ ذَاهِبَ الفُؤادِ مِنْ هَوْلِ وفَجْأَةِ المَوتْ، هُمْ مَوْتَى إلَى حِينٍ كالمُسَجَّى العَزِيزِ فِي مِخْدَعِهْ، وفِي نَبْرَةٍ قَدْ بَحَّهَا الحُزنُ وزَكَمَهَا البُكَاءُ " وإلَى هُنَا يَقِفُ عَلْمُ صَدِيقِي مِنَ الحِكَايَةْ .

أَوْمَأَ "سِنِفْرُو" مُوَافِقَاً القَائِدَ وبَصَرُهُ عَلَي "مَاعِتْ"، فأَكْمَلَ "إسْفِينِيسُ حَدِيثَهُ كَأَنَّهَا حَدُّوتَةٌ مِنْ أَسَاطِيرِ التَّاسُوعِ الخُرَافِيَّةِ قَائِلَاً: تَوَجَّهَتُ لنِخْتِنْبُو بِحَدِيثِي آمِرَاً

القائد: - " إلَى المَعْبَدِ مِنْ سَاعَتِكْ، أَخْبِرْ كَهَنَةَ الجَنَائِزِ ليُأَدُّوا وَاجِبَهُمْ نَحْوَ سَيِّدِكْ، وكضَّابِطٍ شَرِيفٍ سَلِّمْ سَيْفَكَ إلَى قَائِدِ الصِّدَامِ وانْتَظِرْنِي، فَأَنْتَ مَقْبُوضٌ لِأَمْرِ مَوْلَاتِكَ كَمَا وَعَدْتُّ وأَمَا أَمْرُ الكَاهِنِ فَدَعْهُ لِي ".

وَ فِعْلاً مِنْ فَوْرِهِ إنْطَلَقَ نِخْتِنْبُو يُسَابِقُ ضَمِيرُهُ حُزْنَهْ، برَأسِهِ ضِبَاعٌ تَنَازَعُ لَحْمَهُ الّذِي سَمَّمَتْهُ بِلَا قَصْدٍ خِيَانَتُهُ لقَائِدِهْ، كَانَ عَلَيْهِ اسْتِشَارَتِي لَكِنَّهُ القَدَرْ، يَمَّمَ شَطْرَ المَعْبَدِ الّذِي يَسْكُنُهُ آمُونْ رَعْ .

إطْمَأَنَنْتُ للخُطَّةِ وارْتَحَتُ لذَهَابِ نِخْتِنْبُو، فَرَكَعَتُ أَمَامَ مِيرِيتْ نِيتْ الّتِي لَفَّتْهَا غُلَالَةٌ مِنْ صُفْرَةِ المَوتْ، ظَلَلْتُ أُعَالِجُ المَرْأَةَ حَتَّي انْتَبَهَتْ كعَائِدَةٍ مِنْ مَوْتْ !

القائد: - هَدِّئِي مِنْ رَوْعِكِ يَامَوْلَاتِي، عَزِيزُنَا سِنِفْرُو بِخَيْر .

إلتَفِتَتْ هُنَا وهُنَاكَ، تَمْسَحُ وجْهَهَا بِكَفّيْهَا تتَأَكَّدُ أَنَّ مُحَدّثَهَا حقِيقَةً لِا هَاتِفَ نَفْسْ

ميري: - أَحَقَّاً يَا إسْفِينِيسُ الشُّجَاعْ، هَذَا العَويلُ ذَهَبَ بنَفْسِي إلَى قَعْرِ الهَاوِيَةْ !، لأَحْرِمَنَّ هَذِهِ البُومَةُ تَاوْسِرتُ مِنْ لِسَانِهَا النَّدَّابِ كَانَ وَعْدَاً عَلَى مِيرِيتْ

القائد: - عُذْرَاً مَوْلَاتِي .. إنَّهُ نِي أُوسِرْ قَدْ مَاتَ لَدِيغَ الكُوبرَا يَا سَيِّدَتِي وأمَّا عَنْ الأَمْرُ فَهُوَ (.....، ..... ورُحْتُ أَشْرَحُ لَهَا كَيفَ وَاتَتْنِي الفِكْرَةُ وهِيَ تَرْنُو إلَيَّ بَيْنَ فَرَحٍ وإنْكَارْ وَأَنَا أَسْتَطْرِدُ فِي شَرحِ مَا سَيَكُونْ .....، .....، .....، .....، .....)

" فِيمَا حَكَاهُ لِي نِخْتِنْبُو أَنَّهُ قَدْ حَلَّ بسَاحَةِ المَعْبَدْ، نَزَل من فَوْقِ جَوَادِهِ عَامِدَاً إِلَى دَاخِلِ المَعْبَدِ مْسْتَأْذِنَاً الحُرَّاسَ فِي طَلَبِ كَهَنَةِ الجَنَائِزْ، أَخْبَرَهُمْ بمَوْتِ سِينِفْرُو وأَنَّ عَليَهِمْ المُغَادَرَةَ فَوْرَاً لنَقْلِ جُثَّتِهِ للتَّحْنِيطْ، و صَدَعَ الكَهَنَةُ لقَدَاسَةِ المَوْتِ وذَهَبُوا يَتَجَهَّزُونَ لِمَا بَعْد، إسْتَأذَنَ فِي الدُّخُولِ عَلَى الكَاهِنِ الأَكْبَرْ، فَعَلِمَ خَبَرَ سَفَرِهِ نَحْوَ جِهَهٍ لَمْ يُسْفِرْ عَنْهَا فِي مَهَمَّةٍ قَالَوا سَتَطُولُ قَلِيلَاً، سُقِطَ فِي يَدِ نخْتِنْبُو وقَدْ انْتَوَى قَتْلَ هَذَا الخَبِيثَ لِيُطَهِّرَ رُوحَهُ مِنْ الخِيَانَةِ فَجُنَّ مِنْ بَدِيهَةِ الثُّعْبَانِ العَجُوزْ، ورَاحَ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِهْ، أَيُسَلِّمُ نَفْسَهُ طَاعَةً لِي بَعْدَهَا يَعِيشُ حَسِيرَاً فِي انْتِظَارِ قِصَاصِ مِيرِيتْ نِيتْ، وفَاقِدَاً لشَرَفَهْ، أَمْ يَخْرُجُ يَطَلُبُ الشَّرَفِ خَلْفَ مَجْهُولِ القِبْلَةِ اللَّعِينْ؟، إنَّ فِي خُرُوجِهِ اتِّهَامَاً جَدِيدَا لَهْ، ثمَّةُ رَبْطٍ بَيْنَ هَارِيَيْنِ جَرِيمَتَهُمَا مُشْتَرَكَةْ، كَبَّلَهُ العَهْدُ وثَبَّطَ مِنْ عَزِيمَتِهْ، فَمَشَى مُتَثَاقِلَاً يُسُوقُ نَفْسَهُ رَاغِبَاً إِلَى مَصِيرٍ معْلُومْ، تَتَمَثَّلُ لعَينَيْهِ جَرِيمَتَهُ فَنْظُرُهَا هُنَاكَ، عَلَى سَرِيرٍ ينَامُ مَغْدُورٌ دُونَ عَلْمِهِ فِيمَ قُتِلْ؟ شَبَحَ مِيرِيتْ المُلْقَاةَ مُحَطَّمَةَ النَّفْسِ بِلَا وَعْيّ !، صُورَةَ إبْسِماتِكْ اليَافِعْ !، وَالمَوْتَ الّذِي بجَهْلِهِ اسْتَدْعَاهُ لخَرَابِ بَيْتٍ سَعِيدْ !، مَا أَقْبَحَ ذَنْبَكَ يَا فَتَى وأَنْتَ

مَاضٍ نَحْوَ مَصِيرِكَ فِي صَمْتِ حَمَلٍ يسِيرُ إِلَى الذَّبْح، بَينَمَا يُمْعِنُ مِنْكَاوُ سَاخِرَاً مِنَ الجَمِيعِ " .

كُنْتُ قَدْ أَنْهَيتُ تَدْبِيرِي وعُدْتُ إِلَى ثَكْنَتِي لأَجِدَ نِخْتِنْبُو فِي انْتِظَارِي كَمَا أَمَرْتُهْ، ورَاغِبَاً فِي العِقَابِ ودَارَ بَيْنَنَا الحَدِيثْ ..

نختنبو: - سيّدِي .. أَخْبَرُونِي بخُرُوجِ مِنْكَاوَ فِي مَهَمَّةٍ طَوِيلَهْ، مَا أَحْسَبُهُ إِلَّا هَارِبَاً لتَدْبيرٍ يعْلَمُهْ ،

القائد: - بِلَا إِذْنٍ مِنْ بِرْعَا يَخْرجْ !، لوْ أَذِنَتْ لَهُ لعَلِمْنَا الأَمْرُ كَمَا قُلْتَ يَا فَتَايَ نِخْتِنْبُو الشَّرِيفُو، لَوْ تَرَيَّثْنَا لفَقَدْنَا أَثَرَهُ حَتَّى يعُودَ ببَلْوَاهْ، فَتَجَهَّزْ للخُرُوجِ خَلْفَهُ تَطْهِيراً لذَنْبِكْ، فَوْرَاً الأَمْرُ لَا يحْتَمِلْ، ولْأُشِيعُ أَنا خَبَرَاً عَنْ مَوْتِكَ قِصَاصَاً .

صَدَعَ الضَّابطُ بالأَمْرِ وخَرَجَ يَعْدُو ويَتَجَهَّزَ للرّحْلَةِ المَجْهُولَةْ

القائد: - نِخْتِنْبُو

نِخْتِنْبُو: - لَبيْكَ سَيِّدِي

القائد: - نَحْنُ نَثُقُ بِكْ، فَعُدْ يَا شُجَاعِي بخَبَرِهْ .

جَلَسَ "هِنْفَرُ" لَا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ رِوَايَةِ "إِسْفِينِيسْ"، بَدَا رَجُلَاً خَارِجَ النَّصِّ وحِسَابَاتِ "مَاعِتَ" المَنْصِرِفَةِ عَنْهْ، والمُنْصَرِفُ إِلَيْهَا يُحَادِثُ آلَامَهُ .... (لَمْ يَعُدْ يَجْمَعُهَا وسِنِفْرُو حُبُّهُمَا فَحَسْب، وهَذَا نِخْتِنْبُو العَائِدُ مِنَ المَوْتِ يُعَزِّزُ الأَمْرَ ويَحْسِمُ خُرُوجَهُ مِنَ الصُّورَةْ، ومَا أَنْتَ لرَبِيبِكَ إِلَّا رَجُلْ، عُمُومَاً قَدْ حَسَمْتَ أَمْرَكَ يَا هِنْفَر مِنْ لَحْظَتِكَ الأُولَى، القَضِيَّةُ لَيْسَتْ شَرَفَاً كَيْ تِنْتَقِمُ لَهُ فَمَا هِي بالْخَائِنَةْ!، إِنَّهَا رُوحٌ طَارتْ إِلَى جَنَّةٍ غَيْرَ جَنَّتِكْ، مَا مَعْنَى أَنْ تُضَاجِعَ إِمْرَأَةً مَيِّتَةْ؟، هُوَ أَمْرٌ تَعَافُهُ مُرُوءَتُكَ وأَنْتَ هَذَا السَّائِرُ نَحْوَ إِيمَانٍ رُحْتَ تَخْضَعُ لَهُ ومَنْ مَعَكْ!، إِيهٍ يَا مَاعِتْ، أَمَا شَعُرْتِ بِوُجُودِ هِنْفَر مُنْذَ دَخَلَ هَذَا الّذِي لَا أَمْلِكُ أَنْ

أَبْغِضُه.؟، إنَّهُ سِنِفْرُو خَاصَّتُكِ يَتَكَلَّمُ بِمَنْطِقِ مُوسَى، مَا كَادَ يَنْتَهَى إسْفِينِيسُ مِنْ حَدِيثِهِ إلَّا وَخَرَّ الرَّجُلُ سَاجَدَاً لرَبِّهِ الوَاحِدْ، يُنَاجِيهِ بِمَنْطِقٍ لَا تَعْرِفُهُ صَلَوَاتُ الكَهَنَةْ، وبِأَدْعِيَةٍ تَأْخُذُ أَلْبَابَ الحُضُورَ فَيُسْلِمُونَ لَهُ عَنْ قَنَاعَةْ، هَذَا أنْتَ نَاءٍ عَنْ هَرْطَقَاتِ آمُونَ وسِلْسَالِ الآلِهَةِ بِرُمَّتِهِ مِنْ يَوْمِكَ، مَا بَالُكَ قَدْ زَلْزَلَكَ مَنْطِقَهْ !، هل تَعْتَزِلْ بِإيمَانَكَ دَارَاً تَعْبَقُ بأَنْفَاسِهَا قَانِعَاً بمَاعِتِكَ أَنْت؟، إنَّ فِي خَيَالِكَ مَاعِتَاً تَسْتَطِيعُ مَعَهَا كُلَّ شَيءْ، يُمْكِنُ لَكَ فِي أَحْلَامِكَ فَقَطْ أَنْ تَجْعَلَهَا تُحِبَّكْ)

قَامَ "إسْفِينِيسُ" مُسْتَأْذِنَاً بَعْدَمَا أَدَّى مَا عَلَيْهْ، ونَهَضَ "سِنِفْرُو" يَنزِعُ رُوحَهُ مِنَ المَكَانِ مُتَحَاشِيَاً النَّظَرَ إلَى "هِنْفَرْ"، لكِنَّ الأخِيرَ قَامَ مِنْ مَقَامِهِ مُسْتَمْهِلَاً الرَّجُلَيْنْ قَائِلَاً:

هِنْفَر: _ لوْ سَمَحَ سَيّدِاي أَنْ أَمْضِي مَعَهُمَا؟، وأَرْدَفَ: إطْمَأَنَّ هِنْفَرُ الآنَ عَلَى رَبِيبِهِ فَهَلْ لغَرِيبٌ لَا يَهْتَدِي طَرِيقَاً إلَى قَرْيتِهِ الهَادِئَةِ مِنْ دَلِيلْ؟!

أَطْرَقَتْ مَاعِتُ مِنْ خِزْيٍّ أَلْحَقَتْهُ برَجُلٍ شَرِيفٍ بِلَا قَصْدٍ مِنْهَا، تَعْلَمُ جَيِّدَاً أَيّ جُرْحٍ أَحْدَثَتْهُ فِي قَلْبٍ يُحِبُّهَا، تَهَاوَتْ إلَى حَشِيَّةٍ وقَدْ خَانَهَا جَسَدُهَا المُتْعَبْ .

وَبَلَّشَ يُرَبَّتُ "سِمِنْدِسُ "عَلَى صَدْرِ صَدِيقِهِ فتَحَدَّرَتْ دَمْعَةٌ كالرِّثَاءِ ولَمْ يَفُهْ بكَلِمَةْ، كَانَ الجَمِيعُ حَزَانَى لحَالِهِ وفِي خَجَلٍ مِنَ الرَّجُلْ، يُدْرِكُونَ عَبَثِيَّةَ الشَّرحِ ولَوْ لتّخْفِيفِ الأَلَمْ .

تَطَوَّعَ "إسْفِينِيسُ "ليُنْهِي مَأسَاةً وقَفَتْ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الجَمِيعِ كَحَالَةِ اللَّا سِلْمَ واللَّا حَرْبْ !، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُلْقِيَ بِحَجَرِهِ فِي بِرْكَةٍ رَاكِدَةٍ يسْتَعِرُ مِنْ تَحْتِهَا خَلِيطُ بُكَاءٍ وكَرَامَةٍ تَسْتَعْجِلُ الفَضَاءَ كَيْ تُعْرِبَ عَنْ أَلَمِهَا، تَكَلَّمَ فِي أَسَىً:

القائد: - عَلَى القَائِدِ أحْمُسُ أَنْ يُرَافِقُهُ إلَى هُنَاكْ، لَا تَعُدْ يَا وَلَدِي حَتَّى تَطْمَئِنَ لرَاحَتِهْ، هَيَّا تصْحَبُكُمَا السَّلَامَةْ .

مَضَى و"سِنِفْرُو" عَلَى أثَرِهِ فِي حُزْنٍ عَمِيقٍ قَدْ أفْرَخَ فَوْقَ سَعَادَتِهِ وأَطْعَمَ صِيصَانَهْ !

ذَهَبَ كُلٌّ فِي طَرِيقِهْ، يَعُودُ "إسْفِنِيسُ "إلَى ضَيْعَتِهِ وقَدْ أَحَسَّ بالحَنِينِ إلَى إمْرَأَتِهِ وبَنِيهْ، وكَذَلِكَ كَانَ عَلَى "سِنِفْرُو" وَاجِباً عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَهْ . رَاحَ يَتَحَسَّسُ طَرِيقَهُ إلَى "مِيرِيتْ نِيتَ "كَمَنْ تُثْقِلُهُ أَصْفَادٌ يَجُرُّهَا، كَيْفَ يُبَاغِتُ رُوحَاً تَهِيمُ بِهِ بعُثُورِهِ عَلَى ضَالَّتِهْ، إنْ كَادَتْ لِتُقِيمَ سُرَادِقَاً حِينَ تَفَوَّهَ بِاسْمِ "مَاعِت"ِ وهُوَ يَدْخُلُ غَيْبُوبَتَهْ، مَا عَسَاهَا تَفْعَلُ وهُوَ عَائِدُ إلَيْهَا بِشَخْصِهَا؟، رَغْمَ وَعْدِهَا القَدِيمِ لَا يَضْمَنُ جُنُونَ إمْرَأَةٍ ولَوْ كَانَتْ فِي حِكْمَةِ "مِيرِيتْ" .

إنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَدْعِي إيمَانَهَا ضَامِنَاً وَحِيدَاً للسَّلَامَةْ، إنَّ فِي ظُهُورِ "نِخْتِنْبُو" كَأَخٍ " لإبْسْمَاتِكَ " وهُوَ مَحَطُّ عَدَاوَاتِهَا لمَلْهَاةٍ مُسْتَهْجَنَةْ! مُحدثاً نَفْسَه: (مَهْمَا يَكُنْ يَا سِنِفْرُو فَهِيَ مَحْكُومَةً بأُبُوَّتِكَ لنِخْتِنْبُو .. عَلَيْهَا أَنْ تتَعَلَّمَ كَيْفَ تُحِبُّهُ مِنْ أَجْلِكْ، المُعْضِلَةُ كَيفَ تُحِبُّ مَاعِتْ؟!، مِنَ العَسِيرِ قَطْعَاً أَنْ تَقْبَلَ سِيِّدَةٌ بوَصِيفَتِهَا نِدَّاً فَضْلَاً عَنْ يَقِينِهَا بحُبِّكَ لَهَا!، إيهٍ .. فلْيُعِينُكَ اللهُ يَا سِنِفْرُو) .

إنْتَهَى إلَى سُورِ القَصْرِ فَشَابَهُ شَيءٌ مِنْ تَوَتُرْ، فَدَلَفَ فِي هُدُوءِ سَارِقٍ حَذِرْ، وكَانَ الصّبْحُ يَتَزَحْلَقُ رُوَيْدَاً مِنَ السَّمَاءْ .

وَمَاتَتْ بِرْعَا

خَرَجَ مَوْكِبُ الأَمِيرِ فِي أَلْفٍ مِنْ فُرْسَانِ "بُوتُو" عَرِيقَةِ المَجْد، يَسْلُكُونَ طَرِيقَهُمْ نَحْوَ " ممْفِيس " فِي أَرْيَحِيَّةٍ وتَمَهُّلْ، بتَدبيرٍ منْ كَهَنَةِ آمُونْ، خُطِّطَ للمَوْكِبِ أَنْ يَجُوبَ المُدَنَ والقُرَى مِنْ بَحْر مِصْر السُّفْلَى بِدَايَةً مِنْ "خَاسُوتٍ" إِلَى "خِيتُو " " فَتِمِنْحُورٍ " وصُعُوداً باتِّجَاهِ "رَقُوتٍ" و" بِيكْواتْ "، ومُرُوراً بالقُرَى الّتِي تَدِينُ للفْرعَونِ كإِلَهٍ بلَا فِقْهٍ ولَا ذَاتُهُ المُقَدَّسَةُ تُعْنِيهِمْ، ووُصُولاً إِلَى " بَرّ آمُونَ " شَرْقاً فَيَحْتَشِدُ البُسَطَاءُ حَوْلَ أَسْطُورَةٍ يَعْبُدُونَهَا فِي سَلَامٍ حَتَّى يَنْتَخِبُهُمِ للمَوْت، واتَّجَهَ المَوْكِبُ يَجْمَعُ الأَنْصَارَ هُبُوطاً نَحْوَ الجَنُوبِ فَمَرُّوا " بِطِمْيَاتَ " ونُزُولاً إِلَى " سِيبِي نِيتُوس " ثُمَّ " بِيتْخِيكا ".

فَفِي خِلَالِ عَامَيْنِ مِنْ فِرَارِهِ وَظَّفَ "مِنْكَاوُ" رُسُلَهُ لِيُبَشِّرُوا بالوَرِيثِ الشَّرْعِيِّ " لسِتِي مرِنْ بِتَاحْ "، كَانَ قَدْ أَلَّهَ"دَلُّوكَا" لِيَمْلَأَ الفرَاغَ السِّيَاسِي رَيْثَمَا يَتَهَيَّأَ " رمْسِيسُ " للعَرشِ اخْتِبَاءً بالأَسْرَةِ المَلَكِيَّةِ مِنْ غَوَائِلِ الدَّهْر، كَمَا لَمْ يَقْتَنِعْ " بِاسْفِينِيسَ " قَائِداً لأَرْكَانِ الجَيْشِ ولَوْ كَانَ الجَيْشُ مَعْدُومَ الوُجُودْ، ومَعَ مُضِيِّ السَنَوَاتِ تَحَرَّكَ نَهَمُهُ للنُّفُوذِ كَلَاعِبٍ أَصِيلٍ يُحَرِّكُ البَلَاطَ مِنْ وَرَاءِ جَدَارْ، وخُوفُهُ مِنْ اعْتِنَاقِ " دَلُّوكَا "مُيُولَهَا الإِصْلَاحِيَّةْ، واعْتِمَادُهَا الحِوارَ والمَشورَةَ وتَقَدّيمَهَا عَلَى وَحْيِّ آمُون، وذَلِكَ خِلَافاً لمَا اعْتَمَدَهُ الفَرَاعِينُ مِنْ اعْتِبَارِ شُخُوصِهُمْ أَبْنَاءً لرَعْ، ممَا كَانَ يُعْطِي الكَهَنَةَ فُرَصاً فِي نَفْخِ وتَضْخِيمِ ذَوَاتِهِمْ الإِلَهِيَّةْ، وتَطْوِيعِ

رقوت.. الأسكندرية/ بتخِيكا .. طنطا/ حت هيري ايب .. بنها / منحور.. دمنهور/ خيتو ..رشيد/ سيبينيتوس ..سمنود / بر آمون .. الفرما / طميات .. دمياط/ خَاسُوت ... سخَا/ هليوبوليس .. عين شمس / بيكوات ... أبو قير

البِرِيخِيتَ[1] لسَطْوَتِهِمْ، الأَمْرُ الّذِي قَدْ اسْتَعَصَى مُمَارَسَتُهُ مَعَ إلَهَةٍ مُتَوَاضِعَةٌ " كَدَلُّوكَا "، بَلْ وتَرَى نَفْسَهَا إمْرَأَةً عَادِيَّةْ !، كَيْفَ يَكُونَ الكَهَنَةُ أَرْبَاباً إنْ كَانَ فِرْعَوْنُ بَشَرَا؟!، يَجِبْ أنْ يَصْنَعَ الكُهَّانُ إلَهَاً وطَاغُوتَاً يَجْمَعُونَهُمَا فِي شَخْصٍ يُمَارِسُونَ مِنْ خِلَالِهِ رُبُوبِيَّتَهُمْ الّتِي يُشَرْعِنُهَا وُجُودُهْ، والرَّجُلُ رَأَى مَا يَصْنَعُهُ " سِنِفْرُو " فِي دَعْوَتِهِ الصَّامِتَةْ، كَذَا يَرَى تَهَافُتَ بَعْضِ الغَوْغَاءِ عَلَيْهْ، وشَكَّاً مِنْهُ فِي إيمَانِ "إسْفِينِيسَ" الّذِي بالضَّرُورَةِ كَقَائِدٍ للجَيْشِ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ صَاحِبِهِ الكَثِيرْ!، فَكَانَ اغْتِيَالُهُ " لسنِفْرُو " بِدَايَةَ تَحَرُّكِهِ فِي خُطَّتِهِ الزَمَنِيَّةِ المَحْسُوبَةْ .

وَصَلَ المَوْكِبُ " بِيتْخِيكَا " فَتَخَلَّفَ "نِخْتِنْبُو" ليَعُودَ أهْلَهُ ويُطَمْئِنُ قَلْبَ مَاعِتَ أَنَّهُ قَيْدُ الحَيَاةْ، مِنَ المُؤَكَّدِ وَصَلَهَا خَبَرُ وَفَاتِهِ عَنْ "أَحْمُسَ" وِفْقَ خُطَّتِهِ مَعَ قَائِدِهْ ! .

قَدْ مَرّتْ أَشْهُرٌ قَتلَهَا بَحْثَاً عَنْ "مِنْكَاوٍ "حَتَّى وَجَدَ ضَالَّتَهْ، وانْخَرَطَ وَاحِداً مِنَ الغَوْغَاءِ فِي "بُوتُو" يَرَى ويَتَسَمَّعُ الأَخْبَارْ، ثُمَّ قَرَّرَ الخُرُوجَ فِي صُفُوفِ الأَتْبَاعِ يَجُوبُ مَعَ المَوْكِبِ الدِّلْتَا، فَوَقَفَ عَلَى قُوَّةِ الرَّجُلِ الحَقِيقِيةِ الوَاضِحَةِ فِي اسْتِقْوَائِهِ بشَرْعِيَّةِ المَلِكْ، إنَّ "نِخْتِنْبُو "مَعَ الشَرْعِيَّةِ أَكِيدْ، ومُوقِنٌ أَنَّ قَائِدَهُ نَفْسُهُ يُؤَكِدُ الشَّرْعِيَّةْ، لكِنْ لِمَاذَا يَسْعَى "مِنْكَاوُ" لصِدَامٍ بَيْنَ الجَمِيعِ ومَعَ الجَمِيعْ؟! .

وَاصَلَ المَوْكِبُ تَقَدُّمَهُ نَحْوَ " حِتْ هِيرِي إبْ " فِي خُطَى الوَاثِقِ وعَلَى مَهَلٍ دُونَ "نِخْتِنْبُو "الّذِي رَاحَ يَتَسَرَّبُ إلَى ضَاحِيَةٍ عَلَى أَطْرَافِ المَدِينَةْ، يُطَمْئِنُ الجَمِيعَ عَلَى عُجَالَةٍ ويَمْضِي بَعْدَهَا نَذِيراً إلَى " مَمْفِيس " الحَالِمَةْ لَيْسَ شَيْءٌ كَعَهْدِهِ فِي قَصْرِ أُمِّهِ الرَّشِيقْ، بَدَا صَامِتَاً وخَالِيَاً مِنْ حَيَاةْ !، زَادَهُ دَهْشَةً وارْتِبَاكَاً أَنَّ بَيْتَ الخَالَةِ "هَامِيسَ" أَيْضَاً بَاتَ مَهْجُوراً

[1] عامة الناس.

ومُهْمَلاً تَمَامَاً، تَأْكُلُهُ الهَوَاجِسُ بِشُؤْمِهَا وهُوَ يَتَقَدَّمُ فِي حَذَرِ المُتَوخِي مُصِيبَةً ورَاءَ السُّورِ النَائِمِ كَعَجُوزٍ أَشعَثْ!، وَقَعَ فِي قَلْبِهِ حِينَ رَأَى "هِنْفَرَ" عَلَى كُرْسِيٍّ خَيزُرَانٍ رَثَّاً كَقَبْرٍ ملْعُونْ، وَحِيداً غَلَبَهُ الكَرَى بَيْنَ أَعَاجِيبِهِ ومَنْحُوتَاتِهِ الّتِي هَجَرَهَا الحُمُومْ .

وَدَّعَتْ أُمَمُ المُشَيِّعُونَ جُثْمَانَ "بِرْعَا دَلُّوكَا" فِي مَوْكِبٍ خَالٍ مِنْ بَذَخِ الفَرَاعِينِ كَمَا كَانَتْ فِي حَيَاتِهَا،

وَ انْصَرَفَتْ جُمُوعُ الشَّعْبِ يَلُوكُونَ حَدِيثَهُم المُعَادَ كُلَّمَا مَاتَ رَبٌّ عَنْ رَبٍّ مُنْتَظَر، أَيُّ رَبٍّ والسّلَامْ، رَجَعَ السَّادَةُ بِحُزْنِهِمْ الصَّادِقِ مُيَمِّمُونَ نَحْوَ القَصْرِ الفِرْعَوْنِيْ، كَمَا عَادَتْ زُمَرُ الكَهَنَةِ تَحْتَ سَمْعٍ وبَصَرٍ مِن رجَالِ " إِسْفِينِيسَ " إِلَى دَاخِلِ المَعْبَدْ، فِي حِينْ وَقَفَتْ " مِيرِيتُ " والقَائِدُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمَا وقَدْ خَلَا العَرْشُ مُجَدَّداً ولَا أَهْلَ مَشُورَةٍ سِوَاهُمَا، ومَا زَالَتْ مَخَاوِفُ"سِنِفْرُو" وأَتْبَاعُهِ مُعَلَّقَةً بِمَا يُخْفِيهِ ثَعْلَبٌ "كَمِنْكَاوْ"، هَذَا " إِسْفِينِيسُ " قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يَنْتَزِعَ مَرْسُوماً فِرْعَوْنِيَّاً مِنْ " دَلُّوكَا " يَضْمَنُ حُرِّيَّةَ العِبَادَةِ شَرْطُهُ وَلَاءٌ لِبرِعَا وللوَطَنْ، قَدْ كَانَ فِي حِكْمَةِ " دَلُّوكَا " مُتَّسَعٌ للجَمِيعْ، اليَوْمُ عَادَتْ مَخَاوِفُهُ بِشِدَّةْ، بَقِيَ أَنْ يَعْلَمَ نِيَّةَ هَذَا اللّئِيمَ ليَكْشِفَ " سِنِفْرُو " عَنْ دَعْوَتِهِ أَوْ يَتَخَفَّى بِهَا كَمَا هُوَ !، أَوْ خَيَارٌ أَصْعَبُ يَخْشَاهُ أَنْ يَكُونْ .

وقَفَتْ " مِيرِيتُ " وقَدْ بَدَتْ غَيْرَ " مِيرِيتْ " الّتِي يَعْرِفُهَا الرَّجُلْ، بَاتَتْ كَثِيرَةَ الغُمُوضِ لَا تُعْرَفُ لَهَا نِيَّةً مُنْذُ أَعْرَضَتْ عَنْ " سِنِفْرُو " مِنْ لَيْلَةٍ أَخْبَرَهَا فِيهَا عَنْ عُثُورِهُ عَلَى " مَاعِتْ "، لَمْ تَأْبَهْ لشَأنِهِ مِنْ يَوْمِهَا ،

وَ انْخَرَطَتْ فِي شُؤُنِ القَصْرِ خَاصَّةً فَتْرَةَ مَرَضِ " البِرْعَا "، وقَدْ أَرْجَعَ "إِسِفِينِيسُ " مَا تَعِيشُهُ للغَيرَةِ وَ أَنَّ الأَمْرَ سَيسْتَقِرُّ مَعَ الوَقْتْ، كَذَلكَ رَأَى " سِنِفْرُو "، إِنّهُ يَحْفَظُ لَهَا حُبَّهَا لَهْ، ويُكِنُّ لَهَا حُبَّاً يَعْجَبُ لَهْ، لَمْ تَرَقَّ فِي قَلْبِهِ إِلَى ذُؤَابَةٍ تَرَبّعَتْهَا " مَاعِتٌ " لكِنَّهُ حُبْ، فَغَادَرَ مِنْ لَيْلَتِهِ

احْتِرَامَاً لرَغْبَةِ " ميرِيتْ " فَحَتْمَاً تَذْكُرُ وَعْدَهَا، عِلَاوَةً عَلَى أَنَّ " مَاعِتَ " زَوْجٌ مَا زَالَتْ، ومَا حَدَثَ كَانَ عَنْ رَغْبَةٍ نَعَمْ .. لَكِنْ دُونَ وَعْيٍ مِنْهُمَا حَدَثْ، زَرَعَتْ "مِيرِيتُ "البَهْوَ تَوَتُّرَاً جِيئَةً وذَهَابَاً قَبْلَ أَنْ تَقُولْ:

مِيرِيتُ: - مَا العَمَلُ أَيُّهَا القَائِدُ، هَلْ هُنَاكَ مَنْ يَلِيقُ بالعَرْشِ ونَحْنُ فِي قِلَّةٍ مِنَ الأَشْرَافِ كَمَا تَرَى؟!

القائد: - رَأْسِي يَدُورُ يَا سَيِّدَتِي المُبَجَّلَةْ، لَيْسَ أَوْلَى بالعَرْشِ مِنْ مَوْلَاتِي مِيرِيتْ، لَا أَجِدُ مِنْ بَيْنَ أَشْرَافِ مِصْرَ مَنْ هُوَ أَجْدَرُ مِنْكِ مَوْلَاتِي، لَيْتَنَا نَعْرِفُ مَا يُدَبِّرُهُ هَذَا الخَبِيثَ مِنْكَاوْ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نُعَجِّلَ بِتَنْصِيبِ مَوْلَاتِي لنُحَافِظَ عَلَى وَلَاءِ الشَّعْبِ ولَا نُعْطِي لتَدْبِيرِهِ الفُرَصْ، قَالَتْ بِدَهَاءِ أَفْعَىً طَارِئٍ عَلَى إِمْرَأَةٍ مِثْلِهَا تَخْتَبِرُ دَخِيلَةَ إِسْفِينِيسَ الّذِي لَمْ يَنْتَبِهْ لخُبْثِ المَغْزَى

مِيرِيتْ: - لَدَيَّ رَأْيٌ آخَرَ، .. لِمَ لَيْسَ إِسْفِينِيسَ الشُّجَاعْ؟!

القائد: - بالقَطْعِ لَا يَامَوْلَاتِي، لَمْ أُفَكِّرْ ومَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَطْمَحَ للمُلْك، أَنَا سَيفُ وطَنٍ مُسَخَّرٌ لخِدْمَتِهْ، كُلٌّ لَهُ دَوْرُهُ فلْيُؤَدِهِ كَامِلَاً، لَسْتُ مُدَبِّرَ أَمْرٍ ولَا عَلِيمْ! .. لَا يا سَيِّدَتِي

مِيرِيتْ: - مَا دَامَ وَلَاءُ القَائِدِ لمِصْرَ بِلَا أَطْمَاعٍ فَلَا فَرْقَ أَرَاهُ بَيْنَ مَوْلَاتِكَ ... وبَيْنَ ابْنِهَا إِبْسِمَاتِكْ

القائد: - مَوْلَاتِي !، إِنَّ إِبسِمَاتِكْ طِفْلٌ يَا سَيِّدَتِي كَيْفَ يَدِينُ لَهُ الشَّعْبُ ومَا لَدَيْهِ حِكْمَتُكِ؟!

مِيرِيتْ: - حِكْمَتِي مِنْ خَلْفِهِ سَتَكُونُ يَا سَيِّدْ إِسْفِينِيسْ، أَتَعْتَقِدُ أَنَّ تُوتْ عَنْخْ كَانَ طِفْلَاً فَذَّاً يَحْكُمُ بِفِطْنَتِهْ؟!

القائد: - لَكِنَّ الأَمْرَ يخْتَلِفْ!، إِنَّ المَلِكَ تُوتْ وَرِيثٌ ملَكِيّ ولَا وَجْهَ للشَّبَهْ

مِيرِيتْ: - كُلُّ غَالِبٍ يَبْدَأُ حُكْمَهُ بِدَمٍ عَادِيٍّ، ثُمَّ يُخْلَعُ عَلَيْهِ مَا تَرَاهُ الخُرَافَةُ تَرْسِيخَاً فِي قُلُوبِ الغَوْغَاءْ، ومِنْ عَرَاقَةِ الآلِهَةِ ونَقَاءَ الدَّمِّ يَا عَزِيزِي الشُّجَاعُ إِسْفِينِيسْ !، فَقَطْ كُنْ مَلِكَاً وسَوْفَ تُصَاهِرُكَ الآلِهَةْ!، وفَقَطْ كُنْ فِرْعَوْنَاً يَخْتَرِعُ الرِّخِيتُ مِنْ تَسَفُّلِكَ رِفْعَةً ولِفَشَلِكَ حِكْمَةً يَا عَزِيزِي

القائد: - لنُرَتِّبَ للأَمْرِ يَا مَوْلَاتِي ولتَكُنْ مِصْرُ مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ لَا طَمَعَاً فِي مَجْدٍ زَائِفٍ أَرَى مَوْلَاتِي أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهْ

مِيرِيتْ: - هِيَ الضَّرُورَةُ يَا سَيِّدِي القَائِدْ، تَعْلَمُ زُهْدِي فِي الحُكْمِ كَمَا أَعْلَمُ أَنَا زُهْدَكَ وأَنْتَ مَنْ أَنْتْ، أَنْتَ قَائِدُ الجَيْشِ وآمِرُ القُوَّةْ، لَوْ شِئْتَ لَمَلَكْتْ، هَدَفُنَا وَاحِدٌ أَيُّهَا النَّبِيلْ فَلِمَ الخَشْيَةْ؟ .

دَلَفَ الحَاجِبُ إِلَى القَاعَةِ المَلَكِيَّةْ، ورَكَعَ يَسْتَأْذِنُ لرَسُولٍ يَطْلُبُ لِقَاءَ القَائِدِ عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةْ، فَأَشَارَ لَهُ القَائِدُ أَنْ يَدْخُلْ، وتَبَادَلَ مَعَ "مِيرِيتَ" نَظْرَةً مُتَوَجِّسَةْ .

دَخَل رَجُلُ عَامّيٌّ فِي زِيِّ تَاجِرٍ أَشْعَثٍ طَلِيقِ اللِّحْيَةْ، رَكَعَ للسَّيِّدَيْنِ فِي عَجَلَةٍ ثُمَّ قَالَ:

_ سَيِّدِي أَخْبَارٌ خَطِيرَةٌ أَحْمِلُهَا إِلَيْك كَادَ إِسْفِينِيسُ أَنْ يُنْكِرَهْ، لَوْلَا نَبْرَةٌ يُمَيِّزُهَا جَيِّدَاً فقَالَ فِي دَهْشَتِهِ الَتِي خَالَطَتْهَا الفَرْحَةُ ..

القائد: - نِخْتِنْبُو !!، وأَخِيرَاً عُدْتَّ أَيُّهَا الشُّجَاعْ، لَوَّتْ رَأْسَهَا "مِيرِيتُ" مُعْرِضَةً وهِي تَرْمِي" إِسْفِينِيسَ" بِنَظْرَةٍ تَطْفَحُ مِنْهَا النَّارْ، أَلَا يُفْتَرَضُ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ مَيِّتَاً؟!

غَيْرَ أَنَّ "نِخْتِنْبُو "رَكَعَ وانْحَنَى فَجْأَةً وقَبَّلَ قَدَمَيْهَا وهُو يُرَدِّدُ: عَمْتِ مَسَاءً "يَا أُمِّي"، سَامِحِينِي أَرْجُوكِ، تَغَيَّرَ وَجْهُ "مِيرِي "مِنْ قَوْلِهِ، وعَلَتْ

الدَّهْشَةُ وَجْهَ "إسْفِينِيسْ"، كَيفَ عَلِمَ بالأَمْرِ وهَذَا السِّرُ طَيٌّ بَيْنَ أفْرَادٍ قِلَّةٍ مَعْدُودِينَ!، فِي أَيِّ مَهَمَّةٍ كَانَ نِخْتِنْبُو؟!

مِيرِيت: - لَنَدَعْ أَمْرَ أُمِّي هَذِهِ لوَقْتِهَا، إنْهَضْ أَيُّهَا القَائِدُ واسْرِدْ عَلَيْنَا أَخْبَارَكَ الخَطِيرَةْ !

نِخْتِنْبُو: - مِنْكَاوُ يَا مَوْلَاتِي علَى أَعْتَابِ مَمْفِيسٍ فِي عُدَّةٍ مِنَ الشَّعْبِ

القَائِدْ: - مَاذَا تَعْنِي فِي عُدَّةٍ مِنَ الشَّعْبْ!، أَقَادِمٌ لحَرْبٍ هَذَا الأَفَّاقُ الأَشِرْ؟!

نِخْتِنْبُو: - بَلْ يَطْلُبُ عَرْشَ مصْرَ يَا سَيِّدِي

القَائِدْ: - هَلْ عِلْمِهِ بِمَوْتِ بِرْ عَا يُعْطِيهِ الحَقَّ أَنْ يَطْلُبُ عَرْشَ مِصْر، تَكَلّمْ فَإنَّ مِنْ وَرَائِكَ الخَبَرَ الأَلِيمْ !

نِخْتِنْبُو: - مَوْلَايَ مَا جَاءَ يَطْلُبُ العَرْشَ لنَفْسِهْ، إنِّهُ عَائِدٌ فِي ظِلِّ عَائِلَةِ رَعْمسيسَ المَلَكِيةْ

القَائِدْ: - وهَلْ فِي الوَادِي أَثَرٌ للمَلِكَةِ "تُويَا" مُنذُ مَاتَ الفِرْعَوْن؟!

بُهِتَتْ "ميريتْ"، لَمْ يَرِدْ هَذَا الأَمْرُ بِخَلَدِهَا أَبَدَاً، كَيْفَ نَسَتْ يَوْمَهَا تَدْبيرَ " مِنْكَاو ! "، وهِيَ الّتِي قَدْ شَارَكَتْ فِيهِ الرَّجُلَ فَوْرَ خُرُوجِ الفِرْعَون خَلْفَ إسْرَائِيل؟!، وكَسِرٍّ لَهُ القَدَاسَةِ يَجِبْ أَنْ يُنْسَى حَتَّى يُعْرِبَ عَنْ نَفْسِهِ تَجَنَّبَتْ السُّؤَالْ، وتَجَنَّبَ الرَّجُلُ الإشَارَةْ، وحَتَّى رَاحَ فِي طِيِّ السِّنِينَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وهَا هُوَ السِّرُّ يُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهِ فِي زَمَنٍ يُنَاسِبُ الآلِهَةَ وفِي الوَقْتِ الّذِي لَا يُنَاسِبُ البَشَرْ، إنْ كَانَتْ المَلِكَةُ " تُويَا "عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ فَلِمَ إخْتَرَعَ الكَاهِنُ تَارِيخَاً إلَاهِيَّاً " لدَلُّوكَا " حِينَ نَصَّبَهَا رَبَّةً لِمِصْر!، بَلْ كَادَ يَخْتَرِعُ لَكِ نَسَبَاً إلَى " رَعْ " لَوْلَا رَفْضُكِ المُلْكَ وقْتَهَا، كَيفَ تَاهَتْ عَنْكِ يَا مِيرِي تِلْكَ الحِكَايَةَ وأَنْتِ شَرِيكَةُ تَدْبِيرْ؟!

أتَكُونُ القِصَّةُ اسْتِدْرَاجَاً يَكْشِفُ بِهِ مِنْكَاوٌ كُلَّ طَامِعٍ فِي مُلْكِ مَوْلَاهُ فَيَضَعَهُ عَارِيَاً أَمَامَ سَيِّدِهِ مَتَى مَا حَانَتْ لَحْظَتُه؟!، أَفْعُوَانٌ مِنْكَاوْ، إنَّ لُعْبَةَ الحُكْمِ خَادِعَةْ، أَكَانَ لَهُ مَأْرَبٌ مِنْ وَرَاءِ دَلُّوكَا وكَادَ يَكُونُ مِنْ وَرَائِكِ يَا ميرِي !، وهَلْ تَبَدَّلَتْ مَطَامِعُهُ فلَجَأَ لخَبِيئَتِهِ كَوَرَقَةٍ رَابِحَةْ؟!

القَائِدْ: - فِيمَ انْشَغَلَتْ مَوْلَاتِي أَ هَلْ حَقَّاً تُويَا حَيَّةٌ وقَادِمَةً تُطَالِبُ بِعَرْشِهَا؟!

نِخْتِنْبُو: - لَا يَا سَيِّدِي، مَاتَتْ تُويَا مِنْ مَدَّةٍ كَمَا عَلِمْتْ، إنَّمَا هُوَ مِنْكَاوُ عَائِدٌ بالوَرِيثِ رَمْسِيسٍ كَبِيرُ إخْوَتِهْ، قَدْ جَابُوا الدِّلْتَا بِكَامِلِ قُرَاهَا فِي طَرِيقِهِمْ يَلْتَفُ حَوْلَهُ الأَنْصَارْ، وكُلَّمَا اقْتَرَبُوا مِنْ مَمْفِيسَ شِبْرَاً تَوَسَّعَتْ شَطِيرَتُهُمْ، قَدْ غَادَرْتُهُمْ الآنَ فِي هِلْيُوبُولِيس يَا سَيِّدِي وقَدْ عَجِلْتُ إلَيْكَ لنَرَى أَمْرَنَا !

مِيرِيت: - لَا عَلَى إسْفِينِسْ، هَا هِيَ الأَقْدَارُ تُذِيعُ حُكْمَهَا عَلَى النَّاسْ، وعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا

القَائِدْ: - ومَنْ يَضْمَنُ لمَوْلَاتِي أَنَّ القَادِمَ عَلَيْنَا هُو الوَرِيثُ الشَّرْعِيْ ! أَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حِيلَةً مِنَ الكَاهِنْ؟

ميري: - لَا يَا سَيّدْ إسْفِينِيس إنَّهُ بالفِعْلِ رَمْسِيسُ وَرِيثُ هَذِهِ الأَرْضَ السَّمْرَاءَ لَا غَيْرَهْ

القَائِدْ: - لمَاذَا أَزّ عَلَى قَتْلِ سِنِفْرُو، أَوَ كَانَ سِنِفْرُو بِالحَائِلِ بَيْنَ الأَمِيرِ وبَيْنَ عَرْشِهْ !، فِي الأَمْرِ سِرٌّ يَا مَوْلَاتِي لتِلْكَ العَدَاوَةْ، مَا مِنْ عَلَاقَةٍ تَرْبِطُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنْ وأَخْشَى مِنْ تَدْبِيرٍ لا نَعْلَمُهْ .

نَظَرَتْ إلَيْهِ السَّيِّدَةُ وكَأَنَّهَا تُرِيدُ الكَلَامَ غَيْرَ أَنَّهَا أَطْبقَتْ شَفَتَيْهَا حَيْرَةً وسَكَتَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا قَبْلَ أَنْ تُجِيبْ ..

(حَمْقَاءٌ أَنَا يَا إِسْفِنِيسُ الطَّيِّبْ !، تَظُنُّ أَنِّي أَجْهَلُ إيمَانَكَ المُسْتَتِرْ، أَنَا أَعْلَمُ مَدَى إخْلَاصَكَ لِمِصْرَ جَيِّدَاً كَمَا أَعْلَمُ حِكْمَتَكَ وأغْرَاضَكَ النَّبِيلَةْ، لِتَعْلَمْ ..لا شَكَّ عِنْدِي فِي حِفَاظِكَ عَلَى الطَّرَفَيْنْ، تُرِيدُ لِمِصْرَ أنْ تَمْضِي لمَجْدِهَا، كَمَا تُرِيدُ أنْ يَمْضِيَ سِنِفْرُو فِي دَعْوَتِهْ، أَعْلَمُ يَا إِسْفِينِيس جَيِّدَاً، لَكِنَّهَا حِكْمَةُ إمْرَأةٍ تَسْبِقُ حِكْمَتَكْ، السِّرُّ أَنْتَ تَعْلَمُهُ غَيْرَ أَنَّكَ لَا تُقَدِّرُ لَهُ العَوَاقِبْ، سَتَتَكَرَّرُ المَأسَاةُ يَا غَرِيرْ، النَّاسُ دَائِمَاً عَلَى دِينِ المُلُوكْ ،

والمُلُوكُ آلِهَةٌ مَا دَامَ هُنَاكَ مِنْكَاوْ، أَلَمْ تُدْرِكْ بَعْدُ لِمَاذَا غَيَّرَ مِنْكَاوُ أُصُولَ اللُّعَبَةْ !، لَمْ يَكُنْ يخِيفُهُ عِقَابٌ أَنْ يَغْتَالَ أَلْفَ سِنِفْرُو لَو أَنَّهُ نَجَحَ فِي تَأْلِيهِ بِرْعَا دَلُّوكَا !، إنَّهُ بَاحِثٌ عَنْ نَفْسٍ غَشِيمَةٍ تَنْبُتُ فِيهَا فِكْرَتُهُ، هَكَذَا الكَهَنَةُ يَا إسْفِينِيسَ لَا يُغْرِيهِمْ عَدْلُ مَلِكٍ صَالِحٍ تَمُوتُ خُزَعْبَلَاتُهُمْ فِي ظِلِّهْ، بِقَدْرِ طُغْيَانٍ تَنْتَعِشُ بِهِ تَهْوِيمَاتُ البُخُورِ وآلِهَةٌ تَنَامُ فِي المَعَابِدِ غَائِبَةً عَنْ صَرِيخِ العَابِدِينْ)

مِيرِي: - مَاذَا أَنْتَ فَاعِلٌ أَيُّهَا القَائِدُ بَعْدَ جَهْدِكَ العَظِيمِ فِي تَجْيِيشِ هَؤُلَاءْ، أتُرَاكَ تَمْضِي لِخَيْرِ مِصْرَ بِمَنْ تَحْتَ إمْرَتِكَ فِي ظِلِّ إبْسِمَاتِكْ !، أَمْ تُرَاكَ تَنْضَوِي بالَّذِينَ مَعَكَ تَحْتَ لِوَاءِ رَمْسِيسٍ؟

القائد: - إنَّ صَالِحَ البِلَادِ غَايَةٌ يَامَوْلَاتِي، فَإنْ عَادَ مِنْكَاوُ بشَوْكَةٍ تُؤَازِرُ وَلِيَّ عَهْدِهَا فَمَا لِيَ أَنْ أَكْسِرُهَا ،

و إنْ عَادَ بحَقِّ رَمْسِيسٍ وَحْدَهُ فِي العَرْشِ وبِلَا قُوَّةٍ فَوَاجِبِي أَنْ أَكُونَ شَوْكَتُهُ، أَلَيْسَ هَذَا مَا تُمْلِيهِ عَلَيَّ جُنْدِيَّةٌ شَرِيفَةٌ وعَلَى قَائِدٍ أَمِينٍ أَنْ يُطِيعْ؟

ميري: - وتَخُونُ إيمَانَكْ يَا إسْفِينِيسْ؟!

إرْتَبَكَ القَائِدُ مِنْ سُؤَالِهَا المُبَاغِتِ وتَلَعْثَمَ قَائِلَاً: ... أَيُّ إيمَانٍ يَا مَوْلَاتِي؟!

ميري: - إيمَانُكَ الَّذِي حَمَيْتَنَا بِهْ، وتَرَكْتَ سِنِفْرُو يَسْقِي بُذُورَهْ التّى قَدْ رَجَعْتُمَا بِهَا يَوْمَا !، إعْلَمْ أَنَّ مِنْكَاوَ قَدْ شَعَرَ بِكُمَا مِنْ يَوْمِهَا، لَا يُمْكِنُ لكَاهِنٍ خَبِيثٍ كَهُوَ أَنْ يَطْمَئِنَّ لعَائِدَيْنِ قَدْ عَايَنَا المُعْجِزَةْ، لهَذَا أَخْشَى انْتِقَامَاً بسَيْفِ الفِرْعَوْنَ وقَدْ زَعْزَعَ هَذَا اللّئِيمُ إيمَانَهُ بشُخُوصٍ لَا يَعْرِفُهَا، ولَا يُدْرِكُ وَلَاءَهُمْ لَهُ رَغْمَ كُفْرِهِمْ بِدِينِهْ، لهَذَا مُشَتَّتٌ فِكْرِي، كَيفَ نُقَدِّمُ الوَاجِبَ ونُبَقِّيَ المَصْلَحَةْ، ومَعَهُمَا نَضْمَنُ سَلَامَةَ المُؤْمِنِينَ مِنْ لَعْنَةِ كَاهِنٍ لَئِيمٍ والَّتِي سَيُغْرِي بِهَا الفِرْعَوْن؟

القائد: - لنَقُمْ بالوَاجِبِ إذَنْ بَأَمَانَةِ مُؤْمِنَيْنِ يَا مَوْلَاتِي، ولنُدَبِّرْ لَنَا مَخْرَجَاً قَبْلَ الفَاجِعَةْ .

ميري: - لَابُدَّ مِنْ تَضْحِيَةٍ يَا إسفِينِيسُ، رَتِّبْ أَنْتَ لِلِقَاءِ الفِرْعَوْنَ ودَعْنِي لتَدْبِيرِي، أَنْتَظِرُكَ مَسَاءً فِي قَصْرِي فَاحْذَرْ عُيُونَ الكَهَنَةْ، ورَنَتْ إلَى نِخْتِنْبُو وهِيَ تُوَلِّي مِنَ القَاعَةِ قَائِلَةْ: هَلُمَّ مَعِي يَا بُنَيَّ فَمَا عَادَ وَقْتٌ نُضَيِّعُهُ، إنْطَلقَتْ ومِنْ خَلْفِهَا "نِخْتِنْبُو" إلَى غَايَتِهَا، أَسْرَعَ الحَوْذِيُّ بِعَرَبَةِ السَّيِّدَةِ فَارْتَمَتْ فَوْقَ أَرِيكَتِهَا الوَثِيرَةِ والتَفَتَتْ إلَى نَخْتِنْبُو آمِرَةْ

ميري: - ليَذْهَبْ القَائِدُ لإشْبَاعِ شَوْقِهِ إلَى أُمِّهِ وأَبِيهْ، وليُوافِينِي بِهِمْ جَمِيعَاً إلَى القَصْرِ أَيُّهَا القَاتِلُ الشَّرِيفْ .

سُرَّ "نِخْتِنْبُو "مِنْ مُزَاحِ السَّيِّدَةِ الّذِي يَنُمُّ عَنْ الرِّضَى، ويَمَّمَ مِنْ فَوْرِهِ شَطْرَ بَيْتِ العَمِّ "سِمِنْدِسْ"، وقَدْ أَخَذَهُ إشْفَاقٌ نَحْوَ "هِنْفَر" المِسْكِينْ، كَيفَ يَنْسَى عُكُوفَهُ كَعَابِدٍ أَمَامَ تَمْثَالِ أُمِّهِ!، لَا يُغَادِرُ قَلْبَهُ مَرْأَى "هِنْفَرَ" عَلَى كُرْسِيِّهِ الخَيزُرَانِ رَثَّاً كَقَبْرٍ ملْعُونْ!، وحِيدَاً قَدْ غَلَبَهُ الكَرَى بَيْنَ أَعَاجِيبِهِ ومَنْحُوتَاتِهِ الّتِي هَجَرَهَا الحُمُومْ، لَيسَ إلَّا تَمْثَالَهَا فِي رَونَقِهِ كَأَمِيرَةٍ تَنَامُ فِي مِكَبِّ نُفَايَةْ، وتِلْكَ المَلَاءَةُ الّتِي يُنِيمُهَا فَوقَ فَخِذِهِ أَثَرَاً مِنْهَا، كُلَّمَا

أَفَاقَ مَسَحَ بِهَا عَنْ وَجْهِ "مَاعِتَ" شُبْهَةَ غَبَارْ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ تَبْقَى لَوْعَتَهُ بَرَّاقَةً كَوَقُودٍ لوَحْدَتِهْ !، كَمْ أَنْتَ حَائِرٌ ومُتَعَجِّبُ يَا "نِخْتِنْبُو" لتِلْكَ المُفَارَقَةْ، كَمْ سَالَتْ رُوحَكَ لأَجْلِه وهُو يَضَعُ وَثِيقَةَ مَوْتِهِ بَينَ يَدَيْك، هِي بِمَثَابَةِ الحَياةَ لأُمِّكَ المَيِّتَةْ، أُمُّكَ الّتِي مَاتَتْ قَبْلَ أنْ تُنْجِبُكَ فِي كَنَفِ هَذَا الطَّيِّبِ "هِنْفَرْ"، تَحَسَّسَ رِسَالتَهُ كَأَنّ فِيهَا وَجْهَهُ الّذِي اشْتَاقَهْ، فَضَّ خِتَامَهَا كَأَنَّمَا يُخَفِّفُ مِنْ فَجَأَتِهَا فِي وِجْهِ أُمِّهِ إشْفَاقاً لعِشْرَتِهْ، أوْ اعْتِدَالاً مِنْ فَرْحَتِهَا الَّتِي قَدْ تُمِيتُهَا، بَدَأَ يَقْرَأُ ذَاهِبَ الرُّوحِ بَينَ أحْبَّائِهِ الثَّلَاثْ ....

" لَقَدْ هَجَرْتُكِ يَا مَاعِتْ، ولَمْ تَعُدْ لِي حُقُوقٌ عَلَيْكِ كَزَوْج، هَا قَدْ وَجَدْتِّ سِنِفْرُو فَاتَّخِذِيهِ زَوْجَاً غَيْرِي، لأَنَّنِي لَا أُحِبُّ أَنْ تَقَعِي فِي الخَطِيئَةْ، فَلَا حَقَّ عَلَيْكِ مِنَ اليَوْمِ فَصَاعِداً، إذْهَبِي فِي الحَالِ بِلَا إبْطَاءٍ أَوْ تَرَاخٍ .... / تَوْقِيعُ زَوْجُكِ المُطَلّقُ هِنْفَر حُورْ مُحِبْ "[1]

كَأَنَّمَا انْتَقَلَ حُزْنَهُ إلَى قَلْبِ جَوَادِهِ فخَفَّفَ مِنْ عَدْوِهْ، ورَاحَ يَمْشِي برَاكِبِهِ مُبْطِئَاً بالجَرِيمَةِ الضَّاحِكَةِ البَاكِيَةْ!.

كتبت بمعرفة " توت حوتر اسمن " كاتب السجلات، وعلى ظهرها توقيع أربعة شهود وختم التسجيل

[1] نّصّ الطّلاق منْقُول بتَصرّف عَن برديات طيبة، وترجع في تاريخها إلى الأسرة الرابعة التي بدأت عام ٢٨٧٠ ق. م، وكتب تحتها

تَخَبُّطْ

أَتَى المَسَاءُ كَئِيباً هَذَا اليَوْمَ مِنْ أَمْشِيرْ، تَعْوِي رِيَاحُهُ خَارِجَ البُيوتِ كَأَنَّهَا الذِّئَآبُ الضَّارِيَةْ، أَمْسَتْ "مِيرِيتُ" وقَدْ نْهَشَتْهَا كِلَابُ الوَحْدَةِ الّتِي قَرَّرْتَهَا مِنْ يَوْمِهَا الآتِي مِنْ صَبَاحِهِ بالهُمُومْ، جَلَسَتْ فِي انْتِظَارِ فُرَقَاءٍ سَيَجْتَمِعَانِ للأَبْدْ، وتَبْكِي خَلِيلَيْنِ قَرَّرَتْ فِرَاقَهُمَا للْأَبَدْ!، بَينَمَا الرِّيحُ خَارِجاً تَفْتَرِسُ القَادِمِينَ فِي نَهَمِ السِّبَاعْ، وكَانَ "إبسِمَاتِكْ" يَتَلَوَّى تَوْقاً لأَبِيهِ العَائِدِ مِنَ المَوْتْ، وحَنِيناً لأخِيهْ، هَذَا الآتِي مِنْ غَيَاهِبِ القَدَرْ، مَضَتْ سَاعَةٌ عَلَى تَوْقِهِمَا القَلِقِ حَتَّى طُرِقَ البَابُ فِي حَذَرْ، تَوَافَدَ المَعْنِيُّونَ تِبَاعاً إِلَى بَهْوِ القَصْرِ المُنِيفْ، وتَلَاهَّتْ "مِيرِيتُ" عَامِدَةً عَنْ "سِنِفْرُو" وابْنَيْهِ تَارِكَتَهُمْ لإِشْبَاعِ تَوْقَهُمْ الفِطْرِيِّ، ورَاحَتْ تَرْقُبُ خَادِمَتَيْهَا السَّابِقَتَينِ بِنَظْرَةِ الغَرِيمْ، رَغْمَ مُجَاهَدَتِهَا كَيْ تَبْقَى السَّيِّدَةَ الّتِي تَعْرِفَانِهَا .

هَامِيسُ الطَّيِّبَةُ !، مَاذَا أَبْقَى مِنْكِ سِنْدَانُ العُمْرِ ومِطْرَقَتُهْ؟! التَقَتْ عَينَاهَا بِعَيْنَيْ مَاعِتَ فَسَرَى بَيْنَ غَرِيمَتَيْنِ عِرَاكٌ صَامِتْ!، يَاهْ يَا مَاعِتْ، جَمِيلَةٌ كَأَنْتِ، أَوَ بعْدَ كُلِّ هَذَا العُمْرِ تَقْتَحِمِينَ عَلَيَّ حَيَاتِي وتُعَكِّرِينَ بُحَيرَةَ مَا كَادَ غَرِينُهَا أَنْ يَلزَمَ قَاعَ الأَيَامْ، تَصْعَقُهَا عُيونُ "مَاعِتَ" الّتِي تقُولُ فِي تَحَدٍّ الوَاثِقِ .. النَّهْرُ وَاحِدٌ يَا مِيرِي إِعْتَرَضَهُ جَنْدَلٌ لَيسَ إِلَّا، أَ فَيَتْرُكُ النَّهْرُ مَجْرَاهُ لصَخْرَةٍ نَامَتْ فِي طَرِيقِهِ الحَالِمْ؟!، أَ لَيْسَتْ وَقَاحَةٌ مِنْ دلْتَا تَنْسِبُ وجُودَ جَعْفَرٍ[1] لِنَفْسِهَا؟! " .

[1] نهر

رَحَّبَتْ "مِيرِي" بالجَمِيعِ وتَوجَّهَتْ بالخِطَابِ إلَى" مَاعِتٍ" فِي نَبْرَةٍ لَا تَخْلُوَ مِنْ كَيْدِ النِّسْوَةِ:

ميري: - تَعْرِفِينَ يَا مَاعِتَ أنَّ مَوْلَاتَكِ لَا تُشَارِكُ خَادِمَتَهَا كَأْسَ نَبِيذْ، بَلْ تَتْرُكُ لَهَا سُؤْرَاً تَلْعَقُهُ شَاكِرِة

مَاعِتْ: - لَا يُنْكِرُ فَضْلَ مَوْلَاتِي إلَّا لئِيمْ، غَيْرَ أنَّ الكَأْسَ كَأسِي ولَوْلَا الأَقْدَارُ مَا تَرَكْتُ سُؤْرَاً لأَحَدْ، ولَوْلَاهَا الأَقْدَارُ مَا كَانَ وشَرِبَتْ سَيِّدَتِي كَأْسَ خَادِمِتِهَا! .

تَعْرِفُ "مِيرِيتْ "حُبَّ "مَاعِتَ" لهَا، وأَنَّهَا بِلَا ذَنْبْ، وتُوقِنُ أَيضَاً أَنَّ "سِنِفْرُو" أَهْدَاهَا قَلْبَاً مُتْرَعاً بِنَبِيذِ "مَاعِتْ" ،أكَلَتْهَا غَيْرَةٌ نَعَمْ، لكَنَّ ضَمِيرُهَا مُوقِنٌ بالعَفُو، بَيْدَ أَنَّهَا قَدْ تَمَادَتْ فِي اعْتِنَاقِ دَوْرِ المُتَعَجْرِفَةْ، والّتِي يجِبْ أَنْ يُبْغِضُهَا "سِنِفْرُو "قَبْلَ "مَاعِتْ "، فلَوَّتْ رَأْسَاً كَعِزَّةِ بِرْعَاً تُخَاطِبُ عَبْدَهَا فِي أَنَفَةٍ إلَى سِنِفْرُو قَائِلَةْ: - (أَنْتَ أَيُّهَا الزَّوجُ الَّذِي كَانْ، إلَيْكَ حَلَقَةَ بَعْثِكَ[1] ، فَمَا عَادَتْ مِيرِيتُ تَرْغُبُ فِيكَ زَوْجَاً، مِنْ وقْتِنَا لَا أَصِيرُ لَكَ "حِمتْ"[2] ، ولَا أَكُونُ مِنْ يَوْمِي "نِبِتْ بِرَّ"[3] خَاصَّتُكْ، بَلْ " سِنِتْ " أَصِيرُ لَكْ).

كَانَ "سِنِفْرُو "مُتَعَجِّبَاً قَبْلَ حَزِينٍ مِنْ قَوْلِهَا (إنَّ لَهَا مَكَانَةً تَعْلَمُهَا، لَمْ تَعْلَمْ بِطَلَاقِ مَاعِتَ مِنْ هِنْفَرْ، ولَمْ يُدَبِّرَا لأَمْرٍ يُغْضِبُهَا، إنَّ لِهِنِفَرْ حُسُنُ عِشْرَةٍ لَدَى مَاعِتَ ولكَ يَا مِيرِي حُسْنُ عِشْرَةْ، أَبَدَاً مَا فَكَّرَ أَحَدُنَا أَنْ يَتَجَاوَزَ مَشَاعِرَ أَحَدَنَا، معَ السِّنِينْ! .. نَحْتَسِبُ مَشَاعِرَنَا مَحْكُومِينَ بعَامِلِ الإِخْلَاصِ والوفَاءْ، إلَّا أَنْ تُشْفِقُ الأَقْدَارُ لَنَا بَعْدَ حِرْمَانْ) .

---

[1] دبلة الخطوبة

[2] زوجة

[3] ربة المنزل

نَظَرَ إلَيْهَا مُصَرِّحَاً بِمَا سَاوَرَ نَفْسَهُ المُعَذَّبَةْ، لكِنَّهَا كَانَتْ قَدْ حَسَمَتْ أَمْرَاً لَا رَجْعَةَ فِيهْ .

تَبَسَّمَ "إسْفِينِيسُ" فِي خَجِلٍ يُلَطِّفُ مِنْ كُومِيدْيَا سَوْدَاءٍ كَادَتْ أَنْ تُلْهِي الجَمِيعَ عَنْ دِرَامَا غَدٍ قَرِيبٍ مَجْهُولِ المَصِيرِ وأَرْدَفَ ..

القائد: _ أَيُّهَا السَادَةُ قُضِيَ الأَمْرُ فَلْنَدَعْ جَمِيعَاً مَا للقَدَرِ للقَدَرْ، ومَا للبَشَرِ فَلنَتَدَبَّرْ لَهْ، هَذَا رَمْسِيسُ عَلَى بُعْدِ فَرَاسِخٍ مَعْدُودَةٍ مِنْ عَرْشِهْ، وأَظُنُّنَا جَمِيعَاً نَدِينُ لَهُ طَّاعَةً كَبِرْعَا أَصِيلٍ أَحَقُّ بِمُلْكِهْ، وإنَّ مِنْكَاوَ لأَوَّلُ المُقَرَّبِينَ بَعْدَمَا رَبَّى إلَهَاً عَلَى يَدَيْه، .. فَمَاذَا سَنَفْعَلُ إزَاءَ تَدْبِيرِهْ؟

مِيرِي:- نِيَّتُهُ جَلِيَّةٌ لِمَنْ يَرَى يَا عَزِيزِي إسفِينِسْ، فَلطَالَمَا دَاهَنَ الجَمِيعَ، أَكَادُ أَرَى فِعَالَهُ مِنْ غَدِهْ، إنَّهُ مُطْمئِنٌ إلَى مَوْتِ سِنِفْرُو تَعْتَقِدُونْ !،

سنِفْرُو: - لَا يَعْلَمُ إلَى الآنَ أَحَدٌ بِنَجَاتِي مِنْ سَيفِهِ غَيْرَنَا يَا مِيرِي، حَتَّى أَتْبَاعِيَ المُخْلَصِينَ لَسْتُ بَيْنَهُمْ إلّا تَابِعَاً بَسِيطَاً يُدْعَى شِبْسِسْ كَارَعْ

القَائِدْ: - أَعْتَقِدُ هَذَا يَا مَوْلَايَ فِمُنْذُ هُرُوبِهِ وأَنَا أُحْكِمُ مِنْ حِصَارِي حَوْلَ المَعْبَدِ بِعُيُونٍ يَقِظَةْ

مِيرِي: - لِيَكُنْ صَوَابٌ مَا ذَهَبْتُمْ إلَيهْ، هَلْ وَرَاءَ اغْتِيَالِهِ لسِنِفْرُو مِنْ عَدَاوَةٍ لشَخْصِهِ أَمْ هُوَ اغْتِيَالُ الفِكْرَةَ يَا سَادَةْ؟

كَمْ كُنَّا حَمْقَى، إنَّ مَنْ يَغْتَالُ رَأْسَاً لَابُدَّ عَلِيمٌ بِمَا فِيهِ وخَبِيرٌ أَيْضَاً بِمَنْ وَرَاءَهُ، ولَيْسَ مِنْكَاو بِهَذِهِ السَّذَاجَةْ، إنَّ فِكْرَةَ الإلَهِ الّذِي يَمْنحُهُ نُفُوذَهُ المُطْلَقُ كَسَادِنٍ لَهُ لتَمُوتُ أَمَامَ إلَهٍ حَقِيقِيٍّ، النُّفُوذُ الّذِي عَادَ لَهُ بغُرُورِهِ كَامِلَاً بِغَرَقِ سِتِي مِرِنْ بِتَاحْ مَعَ هَامَانِهِ، غَيرَ أَنَّ الإلهَ القَادِرَ قَدْ عَادَ فِي قَلْبِ سِنِفْرُو ليُعِيدَ كَرَّتَهْ، وفِي بَقِيَّةٍ مِنْ أَهْلِهَا ظَنَّهُمْ مِنْكَاوُ أَنَّهُمْ قَدْ خَلَصُوا لسَطْوَتِهْ، فَمَا أَرَاهُ إلَّا مُنْتَقِمَاً ومَا أَرَاكُمْ إلَّا رُحَّلَاً مِنْ غَدِكِمْ، إنَّهُ هُوَ مَنْ أعْرِفُهُ وأَعْلَمُ كَيفَ يُفَكِّرْ .

القَائِدْ: - إذَنْ بتَعْبِيرِ مَوْلَاتِي لَا عَفْوَ ولَوْ لَازَمَهُ وَلَاءْ، وعَلَيْهِ فَقَدْ وَجَبَ الخُرُوجُ عَلَى سِنِفْرُو وعَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ ودُونَ تَأخِيرٍ فَقَدْ حُمَّ نُزُولُ رَمْسِيسَ إلَى حَاضِرَةِ المُلْك، إنْ لَمْ يَكُنْ ليُصْبِحُهَا أَمْسَاهَا، أ هَذَا مَا تَعْنِيهِ السَّيِّدَةْ؟!

سِنِفْرُو: - مَا بَالُهَا مِصْرُ تُخْرِجُ مُؤْمِنِيهَا كُلَّ حِينْ!، فَلْيَكُنْ أَيَّتُهَا البَلَد الطَّيِّبْ، أَ شَفَقَةً بِهِمْ تُرَاكِ تَفْعَلِينَ أَمْ هُوَ حِقْدُ البُخُورِ والتَّعَاوِيذْ

مِيرِي: - لتُنَادِي فِي أتْبَاعِكَ فلْيَتَجَهْزُوا مِنْ سَاعَتِهِمْ، ليَكُنْ إسْفِينِيسُ عَلَى رَأْسِ النّاسِ، فَإنَّ مِنْكَاوَ لَيْسَ بتَارِكِهْ، إلَّا أَنْ يَكُونَ للقَائِدِ تَدْبِيرٌ يُضْمِرُهْ .

أَطْرَقَ "إسْفِينِيسُ" كَأَنَّ عَلَى رَأْسِهِ الطَّيْر، وأَوْمَأَ إلَى السَّيِّدَةِ إيمَاءَةً غَامِضَةً لَا تَشِي بشَيءٍ تَفْهَمُهْ، إلَّا أَنَّهُ مَضَى خَارِجَاً يُحَدِّثُ "سِنِفْرُو" دُونَ أَنْ يَلْتَفِتْ وأَرْدَفَ:

القائد: - تَجَهَّزْ يَا صَدِيقِي وأَبْعَثْ رِسُولَكَ آتِيكَ حَيْثُ شِئْت، ونَادَى نِخْتِنْبُو لأَمْرٍ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتْبَعَ قَائِدَهْ، فَاسْتَأْذَنَ نِخْتِنْبُو ومَضَى لأَمْرِ القَائِدِ فِي صَمْتْ وتَبِعَهُمَا إبْسِمَاتِيكْ .

إنْتَهَى "سِنِفْرُو" عَازِمَاً عَلَى مَا قَالَتْهُ "مِيرِي"، فَنَادَتْهُ "مِيرِيتُ " تَبَقَّى أَمْرٌ يَا سَيِّدْ "سِنِفْرُو "عَلَيْنَا أَنْ نُنَاقِشَهْ، لْيَنْصَرِفْ السَّيّدُ "سَمِنْدِسْ" بمَاعِتِكَ وبِهَامِيسَ ولتَنْطَلِقْ أَنْتَ لرِجَالِكَ فَوْرَ انْتِهَائِنَا .

فَرَضَخَ "سِمِنْدِسُ" مَاضِيَاً بالمَرْأَتَيْن .

و خَلا المِكَانُ إلَّا مِنْهُمَا، فَسَقَطَ القِنَاعُ عَنْ إمْرَأَةٍ أَضْنَاهَا العِشْقُ و أَثْقَلَتْ كَاهِلَهَا تَضْحِيَةٌ كَبِيرَةْ، رَأَى دُمُوعَهَا تَغْسِلُ قَلْبَهُ ويَكْوِيهِ مِلْحُهَا فِي آنْ،

كَمْ يَحْتَرِمُ هَذِهِ المَرْأَةَ وكَمْ أَحَبَّ عِشْرَتَهَا، إنَّ القَلْبَ أَبَداً لَا يَعْتَرِفُ بالمَنْطِقِ ولَا تُخْضِعُهُ أَحْكَامُ العَقْل .

سنِفرُو: - لِمَ يَا مِيرِتْ؟!، تَعْلَمِينَ مَكَانَكِ منْ نَفْسِي، وإنْ يَكُ قَلْبِي مَارِقَاً عَنْكِ ومَا هُوَ بالجَدِيرِ بِكْ، لَكِنَّ نَفْسِي ومُرُوءَتِي تَأْبَيَانِ فِرَاقُكِ لَوْلَا إرَادَتُكْ

ميري: - أَمَا قَلْبِي فَأَحَبَّكْ، وأَمَّا نَفْسِي ومُرُوءَتِي تَعَافَانِ قُرْبَكَ يَا حَبَّةَ العَيْن، هَا قَدْ آبَتْ إلَيْكَ ضَالَّتُكْ، انْظُرْ إلَى المُفَارَقَةِ العَجِيبَةِ يَا حَبِيبِي، وكُحْلُهَا يَعَكِّرُ حُمْرَةَ خَدَّيْهَا كَغَرِينِ النِّيلِ إبَّانَ الفَيْضْ، أَلَمْ تَرَ وَجْهَكْ كَيفَ غَادَرَتْهُ الحِنْطَةُ مَكْرُوشَةً يَا حَبِيبَ مِيرِي؟، وَكَيفَ انْدَلَقَ النَّبِيذُ فَسَقَى غِيطَانَكَ اليَابِسَةْ!، كَإمْرَأَةٍ فَعَلَ حُبُّهَا لَكَ هَذَا وأَكْثَرَ أَرَى يَا نُطْفَةَ حَيَاةٍ لَمْ تُكْتَبْ لمِيرِيتَ المِسْكِينَةْ .

فَجَرَتْ بِقَلْبِ "سنِفْرُو" خُيُولُ الحُزْنِ حَتَّى رَأَتْ غُبَارَهَا فِي عَيْنَيْهِ وهُوَ يتَقَرَّبُ يَأْخُذُهَا إلَيْهْ، ومُشْفِقَاً فِي صِدْقٍ بَالِغٍ لَكِنَّهَا تَفَلَّتَتْ بِرِفْقٍ قَائِلَةْ

مِيرِي: - هَا .. أَتَتَذَكَّرُ طَرِيقَ عَوْدَتِكَ بجُثَّةِ الفِرْعَوْن؟

لَمْ يَرَ بُدَّاً مِنْ أَنْ يُجَارَى هُرُوبُهَا اللّطِيفْ فَقَالَ فِي صَوْتٍ طَافِحٍ بالبُكَاءِ

سنفرو: - نَعَمْ يَا مِيرِي جَيّدَاً أَتَذَكَّرُهْ، خَرَجْنَا وعُدْنَا مِنْ ذَاتِ الطَّرِيقِ المَعْهُودَةْ، مِنْ "رَعْمسِيسٍ " إلَى "سُكُوتْ " فَ " إيثَامْ " ثُمَّ "مَجْدَلْ"

وَ مِنْهَا إلَى " رَأْسِ الحِيرُوثَ " حَيْثُ وَقَعَتْ الوَاقِعَةْ!، مَحَطَّاتٌ لَا يَضِلُّ عَنْهَا الوَلِيدُ إنْ رَأَى مَا رَأَيْت!، لكِنْ لِمَ السُّؤَالُ عَنْهَا الآنَ ومَا أَهَمِّيَّتُهْ؟!

مِيرِي: - إنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقُ المَعْلُومَةُ فلْتُخَالِفْهَا لِغَيْرِهَا لضَمَانِ النَّجَاةِ بالنَّاسْ، مَا أَنْتَ بِصَاحِبِ أَسْفَارٍ ولَا مُوَظَّفَ جَيْشٍ ولَا تَعْرِفُ طَرِيقَاً سُوَى مَا سَلَكْتَ آنِفَا، أُحَاوِلُ اسْتِقْرَاءَ مَا سَيَدُورُ بِرَأْسِ عَدُوِّنَا،

أَبْلِغْ القَائِدَ فَإِنَّهُ دَرِبٌ وصَاحِبُ قِرَبْ[1]، لِيَكُنْ طَرِيقُكَ هُوَ طَرِيقُ رَمْسِيسْ .. تَفْهَمُنِي؟!

سِنِفْرُو:- أَفْهَمُكِ يَا مِيرِي جَيِّدَاً، أَنْ تَمْشِي الفَرِيسَةُ إِلَى الصَّيَّادِ كُلَّمَا أَخْلَيْنَا لَهُ يَكُونُ قَدْ أَخْلَى لَنَا! .. فِكْرَةٌ عَبْقَرِيَّةٌ يَا مِيرِيتْ، إِذَنْ فلْنَخْرُجْ إِلَى " هُولِيُبُولِيسْ" ومِنْهَا إِلَى " تَانِيسَ " ثُمَّ " بِيلُوسِيُوسْ" بِهَذَا يَكُونُ سَاحِلُ البَحْرِ رَفِيقُنَا حَتَّى وِجْهَتِنَا، نِعْمَ العَقْلُ يَا مِيرِي الحَبِيبَةْ .

آهْ .. لَسَعَتْ فُؤادَهَا الكَلِمَةُ فَأَسْرَعَ مِنْ وَجِيبِهْ، فَتَعَجَّلَتْ ذَهَابَهُ لتَنْفَرِدَ بأَوْجَاعِهَا بَعِيداً عَنْ عَيْنَيْهِ المُشِعَّتَيْنِ بالحَنِينِ والأَلَمْ ،وَضَعَتْ فِي كَفَّيْهِ يَدَيْنِ رِخْصَتَيْنِ ودَافِئَتَيْنِ مَنْ نِيرِ جَوْفِهَا المُسْتَعِرْ، تُقَاوِمُ وُسعَهَا الدُّمُوعَ أَمَلاً فِي أَنْ تَرْدُمَ النَّهْرْ، لَكِنَّ" سِنِفْرُو "كَانَ فِي أَعَالِي المَنَابِعِ مِنْهَا يَهْطِلُ فَيُرْغِمُ نَهْرَهَا أَنْ يَفِيضْ!، فصَرَخَتْ فِي حَشْرَجَةِ الوَدَاعْ مُشِيحَةً بِوجْهِهَا ..أَخْرُجْ فِي أَمَانِ الرَّبْ .

وَ دَّعَهَا كَسُفُودٍ يُنْزَعُ مِنْ عِهْنٍ مُتَثَاقِلاً حَتَى وَارَاهُ الوَصِيدْ .

سَفَعَتْهُ البُرُودَةُ اللّابِدَةُ خَارِجَ البَابْ، فَامْتَطَى جَوَادَهُ بِسُرْعَةٍ ولَوَّى وِجْهَتَهُ إِلَى حَيْثُ عَشَرَاتٍ مِنْ المُؤْمِنِينْ،

فَرَاحَ يَضْرِبُ فِي حُلْكَةِ اللّيلِ مُوغِلاً يَشُقُ تَيَّارَ الصَّقِيعْ، وَمَا زَالَ عَذَابُ مِيرِي يُلَاحِقُهْ، انْتَهَى أَخِيرَاً إِلَيْهِمْ جُلُوساً حَوْلَ نَارٍ عَظِيمَةٍ آوَوْا إِلَيْهَا كَأُمٍّ رَؤُومٍ تُفْسِحُ لِأَوْلَادِهَا، وكَمْ كَانَتْ دَهْشَتُهُ حِينَ وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى "إِسْفِينِيس وسَمِنْدِسْ" وعَلَى الجَمِيعِ مَا تَغَيَّبَ مِنْهُمْ أَحَدْ .

سِنِفْرُو: - أَجَدَّ جَدِيدٌ يَا إِسْفِينِيسُ يَسْتَدْعِي حُضُورَ السَّيِّدَاتِ فِي العَرَاءِ وأَمْشِيرُ غَاضِبٌ غَضَبَهْ؟

---

[1] كناية عن كثرة السفر

القَائِد: - ليْسَ مَنْ المُرُوءَةِ أَنْ نَتْرُكَ مِيريتْ نِيتَ لمَصِيرٍ لَا تَعْلَمُهْ، مَرْأَةُ مِنْ حِكْمَتِهَا أَحْدَثَتْ طَلَاقَكَ لَا عَنْ غَيْرَةٍ كَمَا خَدَعَتْنَا جَمِيعاً، إنَّهَا تُقَامِرُ بحَيَاتِهَا فِي سَبِيلِ نَجَاةِ الجَمِيعْ، وحُجّتُهَا أَمَامَ فِرْعَوْن أَنَّهَا كَافِرَةٌ بِكَ وبِدِينِكَ ولَمْ تَرْحَلْ مَعَكْ، وتَكُونُ قَدْ خَلَّتْ بَينَكَ وبَينَ مَاعِتَ وآثَرَتْكُمَا عَلَى نَفْسِهَا .

سِنِفْرُو: - مَا رَاوَدَنِي شَكٌ فِي نَجَاتِهَا، أَكُنْتُ تَارِكَاً عِشْرَتَهَا وابْنِي هَذَا أبْسِمَاتِيكْ لسُوءْ؟!

القَائِدْ: - أَعْلَمُ يَا صَدِيقِي ولهَذَا تَغَيَّرَتْ خُطّتُنَا تَمَامَاً .

سِنِفرو: - لنَفْعَلْ يَا صَدِيقِي مِنْ أَجْلِ الجَمِيعْ

مَاعِتْ: - لتَكُنْ سَلَامَةُ سَيِّدَتِي قَبْلَ سَلَامَةِ مَاعِتْ، كَمْ احْتَرَمْتُ الآنَ غَرِيمَةً بِهَذِهِ الخِصَالْ .. بَلْ كَمْ أَحْبَبْتُهَا يَا سَيِّدِي .

هَامِيسْ: - هَذِهِ سَيِّدَتِي النَّبِيلَةَ كَمَا أَعْرِفُهَا وهَذِهِ مَاعِتَ أُخْتِي الّتِي أُحِبُّ، فلْيَشْرَحْ القَائِدُ وعَلَينَا الطَّاعَةْ .

القَائِدْ: - إنْ حَدَثَ غَدْرٌ فَلِيَ رِجَالٌ يُعَادِلُونَ قُوَّةَ فِرْعَونْ، عَلَيَّ أَنْ أُشِيرَ إلَيْهِمْ بِخُطَّتِي بَاكِرَاً، فَإنْ رَأَوْا منْهُ غَدْرَاً انْحَازُوا إليْنَا فَكَانَ لَنَا أَنْ نُفَاوِضَ عَلى خُرُوجٍ آمِنٍ فِي مَنَعَةٍ ومِنْ دُونَ قِتَالْ، وإنْ رَأَوْا سَلَامَاً خَضَعْنَا لفِرْعَونَ آمِنِينَ وتَكُونُ ميريتْ فِي أَمَانٍ أَيضَاً

سِنِفْرُو: - مُجَازَفَةٌ لَابُدَّ عَنْهَا ونِعْمَ الرَّأيُ أَيُّهَا القَائِدْ، بَقِي أَمْرُ هَؤلَاءْ

القَائِدُ: - هَؤُلَاءِ لَا يَفْطِنُ لَهُمْ مِنْكَاوُ مَا تَاهُوا فِي بَحْرِ الجَمَاهِيرْ، إلَيْكَمْ مَا سَنَفْعَلُهُ وعَلَينَا أَنْ نَتَحَمَّلَ مَصِيرَنَا مَهْمَا أَلْقَى بِنَا رِحَالُهْ، ورَاحَ اللَّيلُ يُضْمِرَهُمْ مِنَ العُيُونِ كَآخِرِ ثُلَّةٍ عَلَى الحَقِّ صَابِرَاً عَلَيْهِمْ بالنَّهَارْ.

النِّهَايَةْ

الوَقْتُ زَاحِفٌ كالصَّقِيعْ، وكَأَنَّهُ سَاخِرٌ أَبَدِيٌّ مِنْ مُكُوثِ "مَمْفِيسَ" كَأَرْمِلَةٍ كَادَتْ أَنْ تُزَفَّ فَطَرَقَ بَابَهَا زَوْجٌ سَابِقْ، ووَقَفَ الجُنْدُ صُفُوفَاً خُشَّعَاً عَلَى جَانِبَيِّ الطَّرِيقِ المُؤَدِّي إلَى النُّصُبِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ آمُونْ، فِي زِيِّهِمْ الشّتَوِيِّ وكَالصُونَاتِهِمْ الصُّوفِيّةِ السَّوْدَاءِ مِثْلَ تَمَاثِيلٍ مُكَرَّرَةٍ السِّحْنَةِ فِي عُبُوسْ، وتَحْتَ تَمْثَالِ آمُونَ الّذِي لَمْ تُسفِرْ مَلَامُحُهُ عَنْ سَعَادَةٍ بِهِجْرَةِ الكَافِرِينَ بِهْ، ولَا عَنْ رِضَىً بِقُدُومِ فِرْعَوْنَ مِنْ نَسْلِهِ المَعْبُودْ.

وَقَفَتْ مِيرِيتْ نِيتُ فِي شِنْتِيِّهَا[1] الأَسْوَدِ تَتَوَسَّطُ حِفْنَةً مِنْ نِسْوَةِ البَلَاطِ تَبْدُو كالرَّبَّةِ "بَاسْتِتْ" فِي انْتِظَارِ المَوْكِبْ، تَعْتَافُ الوُجُوهَ حَتَّى ارْتَاحَتْ لابْنِهَا الشَّابِّ "إبْسْمَاتِكْ" بَيْنَ سَرِيَّةِ التَّشْرِيفَةِ المَلَكِيَّةْ، وقَدْ اطْمَأَنّتْ لاخْتِفَاءِ "إسْفِينِيسَ "مِنَ المَشْهَدِ فَمَلَأَهَا اليَقِينُ بِنجَاحِ خُطَّتُهَا فِي النَّجَاةِ بالمُؤْمِنِينْ، كَمَا طَمْأَنَهَا مَرْأَى ثَلَاثَةً مِنَ الفُرْسَانِ عَلَى رَأْسِ الحَرَسِ مُقَنَّعَيْنِ فِي صُورَةِ " مَاحِسْ"[2] ظَهَرَا كَنُوَّابٍ عَنْ "إسْفينيس"، ولَاحَتْ فِي الأُفُقِ رَايَاتُ المَوْكِبِ المَهِيبِ تتَهَادَى تَحْتَهَا الخَيْلُ ويَتَقَدَّمُهَا بِعَظَمَةٍ "رَمْسِيسُ" مِنْ فَوقَ مَحَفَّتِهِ الذّهَبِيَّةْ، تَحْمِلُهَا عَرَبَةٌ حَرْبِيَّةٌ تَجُرُّهَا ثَمَانِيَةٌ مِنَ الجِيَادْ، خَلْفَهُ يَرْكَبُ كَهَنَةُ "آبُو" فِي صَفَّيْنِ عَلَى رَأْسِهِمْ "مِنْكَاوُ" فِي حُلَّةٍ مِنْ جَلْدِ النَّمِرْ، نُقِرَ فِي نَاقُورِ المَوْكِبِ مُوذِنَاً بشُرُوقِ

---

[1] زي نسائي فرعوني

[2] إبنة رع وتعبد في صورة إمرأة وديعة برأس قطة فإذا غضبت تحولت إلى (سِخنتّ) أي لبوءة ضارية

وَجْهِ فِرْعَونَ عَلَى عَاصِمَةِ المُلْك، وانْبَرَت، تُجَاوِبُهُ التَّحِيَّةَ فِرْقَةُ المُوسِيقَى المَلَكِيَّةْ .

عَلَى غَيْرِ انْتِظَارٍ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْ فَارِسٍ كَأَنّهُ طَائِفٌ مِنْ حَوْلِ "آمُونْ" خَرَجَ فَجْأَةً بَيْنَ يَدَيْهَا، وتَحْتَ الدَّرِجِ البَازِلْتِيِّ الّذِي يَعْتَلِيهِ آمُونُ إنْحَنَى لتَحِيَّتِهَا، صُعِقَتْ "مِيرِيتْ" لرُؤْيَةِ "إسْفِينِيسَ"، إنّهُ الجُنُونُ قَالَتْ عَيْنَاهَا وهِيَ تُرْدفُ فِي حَذَرْ

ميري: - أتَرَكْتَ الرَّاحِلِينَ وجِئْتَ مُجَازِفَاً لحِقْدِ مِنْكَاوٍ أَيُّهَا المَجْنُون !

إسفنيس: - لَيْسَ بالأَكِيدِ يَا مَولَاتِي دَعِينَا لَا نُقَدِّرُ لأَشْيَاءٍ رُبَّمَا ليْسَتْ فِي حِسَابَاتِ الرَّجُلْ

ميري: - وسِنِفْرُو ! عَسَاهُ فِي أَتْبَاعِهِ الآنَ قَدْ نَزَلُوا هُولْيُوبُولِيسْ يُفْتَرَضْ بِهِ الآنَ أَلَيْسَ صَحِيْحَاً؟!

كَانَ المَوكِبُ قَدْ شَارَفَ السَّاحَةَ المُقَدَّسَةَ فقَطَعَ كُلُّ هَامِسٍ نَجْوَاهْ، وخَرَّ الجَمِيعُ رُكَّعَاً لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ أَنْ يَرْفَعَ نَاظِرَةً إِلَى رَبِّ مِصْر، وَاصَلَ السّيرَ حَتّى وَقَفَ عِنْدَ قَدَمَيْ "آمُونْ "، فَرِكَعَتْ صُفُوفُ العَبِيدِ بَنَمَارِقِ الرِّيَاشِ تَحْتَ قَدَمَيهِ الإِلَهِيَّتَيْن فَي خُشُوعْ، فمَشَى كَتَمْثَالٍ لَا تَهُزُّهُ رِيَاحُ الشّتَاءِ القَارِسَةْ، ولَا يَنَالُ مِنْ قُوَّةِ جُثْمَانِهِ البَازِلْتِيِّ زَمْهَرِيرُ أَمْشِيرَ المُعَرْبِدْ، حَتَّى اسْتَوَى جَالِسَاً فَوْقَ العَرْشِ جَامِدَ العَيْنَيْنِ كَعَادَةِ الآلِهَةِ يَنْظُرُ ولَا يَرَى أَحَدَا، أَشَارَ بِعَصَاتِهِ المَعْقُوفَةَ فَرَفَعَ العَبِيدُ مِنْ رُكُوعْ، فَتَقَدَّمَ "مِنْكَاوُ" فِي زَهْوِ طَاوُوسٍ إِلَى الجُمُوعْ، يُعِيدُ دِيبَاجَةً حَفِظَهَا النَّاسُ ومَلُّوهَا كَمَا مَلُّوا تَعَاقُبَ الآلِهَةْ، فَيَتَقَبَّلُونَهَا عَنْ صَغَارٍ وخَوْفْ، رَفَعَ عَقِيرَتَهُ فِي النَّاسْ كَأَنَّ شَيئَاً لَمْ يَحْدُثْ، ولَا وقَفَ مِنْ عُقُودٍ مَضَتْ يَخْتَرِعُ نَسَبَاً لِفِرْعَونَةِ مِصْر

منكاو: - قَدْ عَلِمْنَا بِمَوتِ دَلُّوكَا .. ذَهَبَ بهَا آمُونُ كَمَا أَجْلَسَهَا مُؤَقَّتَاً رَيْثَمَا يَفْرُغُ لتَرْبِيَةِ ابْنِهِ العَظِيمْ، ثُمَّ ابْتَعَثَهُ لَكُمْ عِوَضَاً عَنْ رَبِّكُمْ سِتِي مِرِنْ

بِتَاحِ قَدَّسَ أُوزُورِيسُ رُوحَهْ، والّتِي اقْتَضَتْ حِكْمَتَهُ الإلَهِيّةُ أَنْ يُضَحِّي بابْنِهُ كَي لَا تَعُودَ لإسْرَائِيلُ هُنَا بأَرْضِهِ بَعْرَةْ، وهَا هِوَ اخْتَارَ لَكُمْ خَلَفَهُ دَمَاً مَلَكِيَّاً يُحِلُّ بِهِ بَرَكَتَهُ علَى الوَادِي، ويُقِيمُ لَكُمْ بَهِ مَجْدَاً مَا رَأَى مِنْكُمُ إيمَانَاً بِهِ وفِرَارَاً إلَى ذَاتِهِ المَعْبُودَةْ، يَا شَعْبَ مِصْرَ، هَذَا رَبُّ مِصْرَ الشَّرْعِيُّ حَضْرَةْ مَوْلَانَا الفِرْعَونُ رَمْسِيسْ بنْ سِتِي مِرِنْبتَاحْ، صَاحِبُ مِصْرَ العُلْيَا والسُّفْلَى، فَدِينُوا لَهُ بالطَّاعَةْ، ولْيَعْلُو آمُونْ رَعْ ولْيَحْكُمُ ابْنُهُ رَمْسِيسُ طَوِيلَا جِدَّاً آمِينْ .

فَهَدَرَتْ الجَمَاهِيرُ فِي نَشْوَةٍ باسْمِهِ المُقَدَّسِ طَويلَاً، وحَتَّى أَشَارَ إلَيْهِمْ بِمِفْتَاحِ عَنْخْ، ثُمَّ تَيَمَّنَ المَلِكَ وأَرْدَفَ فِي ثِقَةٍ فَاقَتْ وَقَاحَةْ

منكاو: - عَلَى كُلِّ ذِي جَاهٍ فِي مِصْرَ أَنْ يُلْقِي بِجَاهِهِ تَحْتَ قَدَمَيْ مَوْلَاهُ الفِرْعَونْ، كَمَا عَلَى كُلِّ ذِي سُلطَانٍ أَنْ يَخْلَعَ سُلْطَانَهُ حَتَّى يَرُدَّهُ عَلَيهِ وإنْ شَاءَ اسْتَبْقَاهْ فَوْرَاً .

فَتَقَدَّمَتْ " مِيرِيتُ " فِي خُشُوعٍ فَسَجَدَتْ للمَلِكِ طَوِيلَاً وقَالَتْ

ميري: - مِيرِيتْ نِيتْ وزِيرَةُ دَلُّوكَا، وزَوجُ نَارْمَرْ وزَيرُ حَرْبٍ لَدَى مَولَايَ سِتِي مرنْبِتَاحِ قَدَّسَتْ رُوحَه الآلِهَة، أَنْخَلِعُ مِنْ سُلْطَانِي وأَضَعُهُ تَحْتَ قَدَمَيْ فِرْعَونَ وأَخْدُمُ الفِرْعَونَ حَيْثُ وأَينَ شَاءَ .. عِشْ طَوِيلَاً جِدَّاً مَوْلَايَ المَلِكْ، وانْسَحَبَتْ رَاكِعَةً تَنْتَظِرُ مَا يَأْمُرْ .

إلَّا أَنَّهُ أَتَى صَوْتُ " مِنْكَاو" شَامِتَاً

منكاو: - وأينَ سِنِفْرُو المَارِقِ مِنْ مِيرِيتْ العَزِيزَةْ هَأْ هَأ هَأ دَعِينِي أَكْشِفُ لمَوْلَايَ حَقِيقَةَ زَوْجُكِ الّذِي اعتَنَقَ دِينَ عَدُوِّ مَوْلَايَ بَلْ ويَدْعُو إلَيْهْ، ومَا أَظُنُّكِ إلّا كَافِرَةً بآمُونْ، نظَرَ يُفتِشُ عَن" إسْفِينِسَ " حَتَّى سَلَخَهُ بِنَظَرِهِ واسْتَطْرَدَ ...

وَ هَذَا قَائِدُ الجُنْدِ يَحْمِي سَعْيَكُمَا لنَشْرِ الفَسَادَ فِي الأَرْض !، فَمَا لِيَ لَا أَرَى رَأْسَ الأَفْعَى؟، هَلْ مَاتَ مِنْ سَيْفِ مِنْكَاو المُسَلَّطَ بِعَيْنَيْهِ عَلَى الجَمِيعِ مِنْذُ الفَاجِعَةِ أمْ مَاذَا يَا إسْفِينِيسَ الطَّ.. يِّ..بْ ! هَأهَأ

فرَفَعَ إسْفِينِسُ رَأْسَهُ وأَيْقَنَ بِتَمَكُّنِ الخَبِيثِ مِنْكَأو مِنْ قَلْبِ المَلِكْ، وَتَوَجَّهَ بِخِطَابِهِ فِي جَزَعٍ إلَى الفِرْعَوْن ..

القَائِدْ: - إسْفِينِيسُ قَائِدُ الجَيْشِ ..أَخْلَعُ نَفْسِي مِنْ سُلطَانِي وأَضَعُهُ تَحْتَ قَدَمَيْ مَوْلَانَا الفِرعَونَ وأَخْدُمُ الفِرْعَونَ حَيْثُ وأَينَ شَاءَ، ولِيَسْمَحَ لِي جَلَالَةُ المَلِكِ أَنْ أَسْأَلَ عَنْ أَيِّ فَسَادٍ يَتَكَلَّمُ كَاهِنُ آمُونْ؟، أنْظُرْ حَولَكَ أَيُّهَا الكَاهِنُ واسْأَلْ أَ هَذِهِ مَمْفِيسْ؟

بَلْ أَ هَذِهِ مِصْرَ الّتِي تَرَكَهَا فِرْعَونُ نَهْبَ الجَرَادِ والضَفَادِعِ والقُمَّلْ؟، أَ هَذِهِ التِي دَمَّرَ الطّوفَانُ عُرُوشَهَا وأَفْسَدَ مِنْهَا أَرْضَهَا؟

أَلَمْ يَأْخُذُ المَارِقُ سِنِفْرُو أَرَاضِيهَا بالحِيلَةِ والعَرَقِ حَتَّى أَخْرَجَتْ بُرَّهَا وآتَتْ ثِمَارَهَا كَسَابِقِ عَهْدِهَا وهُوَ المَارِقْ، فِي حِين اخْتَفَى منْكَاو الوَقِّيّ مكْتَفِياً بالتّعَاوِيذِ والبُخُورْ!، أَ هَذِهِ مِصْرَ الّتِي أَمسَتْ بَعْدَ الفِرْعَوْن خَاوِيةً مِنْ قُوَّتِهَا!

أَنَا المَارِقُ إسْفِينِيسُ مَنْ جَهَّزَ وأَلّفَ لَهَا جَيْشَهَا الّذِي تَرَى ثُمَّ وَضَعَهُ تَحْتَ قَدَمَي فِرعَوْنَ بِلَا طَمَعٍ فِي مُلْكٍ أَوْ مُغَالَبَةٍ لوَرِيثِهَا الشّرْعِيّ، المَارِقَان هُمَا مَنْ عَادَا بِجُثْمَانِ فرْعَونَ خَشْيَةً عَلَيْهِ منْ أَنْيَابِ الأَرْضِ ومِنْ مَخَالِبِ السّمَاءْ ! .. فعَنْ أَيُّ فَسَادٍ تَتَحَدّثُ أَيُّهَا الكَاهِنْ؟ ... عِشْ طَوِيلاً جِدَّاً مَوْلَايَ المَلِكْ .

بَدَأَتْ مَلَامِحُ رِمْسِيسَ تَلِينُ قَلِيلاً وعَطَفَ بِنْظَرِهِ نَحْوَ مُحَدِّثِهْ، وعَنَّتْ مِنْهُ ابْتِسَامَةْ، فَأَثَارَتْ ارْتِيَاحَاً فِي قَلْبَيْ " إسْفِينِيس ومِيرِيتْ" وارْتِيَاباً فِي

قَلْبِ الكَاهِنْ، وبَدَا الفِرْعَونُ لُغْزاً يَنْتَظِرُ الجَمِيعُ مَا تَنْطِقُ بِهِ مَشِيئَتُهُ المُقَدَّسَةْ، فِيمَا اسْتَغرَقَ رِمْسِيسُ مُفَكِّراً ..

(تُويَا الحَبِيبَةُ المُقَدَّسَةْ، أَيَّتُهَا الأُمُّ البَصِيرَةُ لتَرْعَاكِ إيزِيسُ فِي بَرِّهَا الغَرْبِيْ، إنَّ وَصَايَاكِ لمَاثِلَةً كَنِبْرَاسِ الدُّجَى أَمَامِيَ الآنْ، ونُبُوءَتُكِ عَنْ هَذَا الأفَّاقِ كَأَنَّكِ تَقْرَئِينَهُ مِنْ كِتَابِ الغَيْبْ، هُمْ الكَهَنَةُ بالهَيُولَى وهُمْ المُلُوكُ برَغْبَتِهِمْ فِي المَجْدِ جَنَاحَيْ عَنْقَاءٍ تُخِيفُ العَامَةَ فَتُحْنِي رِقَابَهَا طَائِعَةْ، إنَّ هَؤُلَاءِ لَعَلَى مَنْطِقٍ لَا يَسْتَوْجِبُ عَدَاوَتِي، ولَا هُمْ بالمُخْطِئِينَ فَيَلزَمُهُمْ انْتِقَامِي، هَذَا كَاهِنٌ مُتَسَلّقٌ يُعَلّقُ حَيَاتَهُ بتَرَفِهَا عَلَى استِعبَادِ عُقُولِ الغَوْغَاءْ، وتَسْوِيقِ الآلِهَةِ الزَّاكِدَةْ، وهَذَا أَنَا كَأَيِّ مَلِكٍ مُتَسَلّقٍ أَيضَاً، البِرِيخِتْ مَنْ يَجْهَلُونَ حَاجَةَ الآلِهَةِ لضَعْفِهِمْ لتَصِيرَ الآلِهَةُ آلِهَةْ، آهٍ لَوْ انْتَبَهَتْ العَامِةُ لهَذِهِ الحَقِيقَةْ !، مُخْطِئٌ التّاريخُ وسَاذَجٌ لَا يَعْلَمُ عَنْ دِرَايَةِ المُلُوكِ بأَبعَادِ اللعْبَةْ، ومُخْطِؤُنَ الكَهَنَةْ، لَا يَفْهَمُونَ أَنَّ المُلُوكَ يَتْرُكُونَ لَهُمْ عَنَاءَ تَغْييبِ الشُّعُوبْ، بَينَمَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ رَوَّضُوا المُلُوكَ بِفِخَاخِ العَظَمَةِ والتَّأْلِيهْ، رُبَّمَا فَهْمٌ مُتَبَادَلٌ صَامِتٌ أَوْ تَغَاضٍ لَا يَبْدُو أَنَّهُ مَقْصُودْ، إيهٍ يَا تُويَا الحَكِيمَةْ، إنَّهُ المَجْدُ خَلْفَ أَفَّاقٍ بآلِهَتِهِ الزَّاكِدَةْ، والّتِي تُقْنِعُ الشَّعْبَ بالعَنَاءِ فِي سَبِيلِ تَنْبَلٍ مِنْ نَسْلِهَا هُوَ أَوَّلُ الكَافِرِينْ) .

يَعُودُ الفِرْعَوْنُ مِنْ شُرُودِهِ جَامِدَ القَسَمَاتِ وقَدْ أَجْمَعَ أَمْرَهُ واسْتَقَرَّتْ نِقْمَتُهُ، وقَرَّ قَرَارُهُ كَأَيِّ مَلِكٍ عَلَى اخْتِيَارِ الصِّيتِ الَّذِي يَضَعُهُ فِي مَصَافِّ الآلِهَة، مَاذَا يُفِدُهُ صِيتُ مَلِكٍ عَادِلٍ يَضَعُهُ بَيْنَ رِجَالاتٍ فِي مَصَافِّ البَشَرْ؟!

مَالَ بِجِذْعِهِ كَأَنَّهُ يَهُمُّ بالوُقُوفِ مُسْتَنِدَاً بيُسْرَاهُ إِلَى مُتَكَأِ العَرْش وأَشَارَ بعَصَاهُ المَعْقُوفَةَ فِي غَضَبِهِ المَلَكِّي، وصَاحَ كَأنّمَا لَيْثٌ يَقْضِمُ فَرِيسَتَهُ بغْتَةً بَعْدَ مُلَاعَبَةْ رمسيس : - مُونْتُو حُوتِبْ

مُونْتُو حُوتِبْ: - أَمْرُ مَوْلَاي الفِرْعَونْ

رمسيس: - لِتَقْبِضْ بِأَمْرِنَا نَحْنُ فِرْعَونُ مِصْرَ عَلَى هَؤُلَاءِ المَارِقِينْ، ولتُرْمَى رُؤوسَهُمُ عَلَى أعْيُنِ الجَمَاهِيرْ إِلَى كِلَابِ السِّكَكْ، ليَرَوْا بأعْيُنِهِمْ مَصِيرَ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَ مِصْر .

فِي اللَّحَظَةِ الّتِي صَدَعَ فِيْهَا "مُونْتُو حُوتِبْ "بالأَمْرْ، اسْتَقَامَ "إِسْفِينِيسْ" وكَأَنَّهُ تَوَقَّعَ مِنْ فِرْعَونَ خِسَّةَ المُلُوكِ، نَعَمْ مَهْمَا كَانَ وأَيَّاً مَنْ كَانَ مَنْ فِلِلْمُلُوكِ خِسَّةٌ تُصَغِّرُ فِعَالَ العِظَامَ إِلَى جِوَارِ تَفَاهَاتِهِمْ، وتَنْفِي رِجَالاً يَبْدُوا المُلُوكُ ظِلَالاً إِلَى جِوَارِهِمْ، وكَأَنَّ وُقُوفَ " إِسْفِينِيسُ " اتِّفَاقَاً وإِشَارَةْ، عَلَى إِثْرِهَا انْدَفَعَ إِلَى السَّاحَةِ فِي مُرُوقِ السِّهَامِ فُرْسَانُ ثَلَاثَةٌ يَتْبَعُهُمْ " إِبْسِمَاتِكُ " رَاجِلَاً، وتَحَرَّكَتْ ثُلَّةٌ مِنَ الجُنْدِ خَلْفَهُمْ لِحِمَايَةِ " إِسْفِينِيسْ "، وهَمَّ آخَرُونَ بَيْدَ أَنَّهُم آثَرُوا السَّلَامَةَ فَسَمِدُوا بَعْدَ تَحْرِيكِ سَاكِنْ!، انْكَشَفَتْ قِلَّةٌ مِنِ الصَّادِقِينَ هَكَذَا وبِبَسَاطَةْ، تَأَكَّدَ "لإِسْفِينِسَ" لُعْبَةَ الكَاهِنِ بالوُعُودِ وبتَأْثِيرٍ مِنْ رَهبَةٍ وجُبْنْ، أَلَا سُحْقَاً لكُلِّ شَيءْ (بَاعُوكَ يَا إِسْفِينِيسَ مَنْ رَبَيْتَهُمْ للعَدْلِ وَلِلْمُرُوءَةْ، ولأَجْلِ خَوْفٍ كَاذِبٍ لَكِنَّهُ أَبَدَاً يَكْسِبُ المَعْرِكَةْ، دَائِمَاً يُنْفِقُ الشُّرَفَاءُ أَعْمَارَهُمْ مِنْ أَجْلِ مَنْ لَا يَعْرِفُونَ الشَّرَفْ، آهٍ يَا مِصْرْ !، آفَتُكِ الأَزَلِيَّةِ دِينٌ ..... هُوَ دِينُ الإِمَّعَاتِ واعْتِنَاقُ السّلَامَةِ عَلَى حِسَابْ الكَرَامَةْ) .

يَالَكَ مِنْ دَاهِيَةٍ أَيُّهَا الكَاهِنُ قَالَهَا الفِرْعَونُ فِي إِعْجَابٍ صَادِقٍ بحُنْكَتِهْ، ورَفَعَ الكَاهِنُ مِنْ عَقِيرَتِهِ وهُوَ يُلَوِّحُ بَيَدَيْهِ كَعُقَابٍ أَلْقَى بفَرَائِسِهِ مِنْ شَاهِقٍ فهَوَتْ لِسَاحِقٍ مُهَشَّمَةَ الأَوْصَالْ، فأَشْهَرَ مِئَاتٌ مِنْ حَرَسِ الفِرعَوْنَ سِهَامَاً لَا تَخِيبُ نَحْوَ " إِسْفِينِسٍ " ونَحْوَ مُنَاصِرِيهْ !، فَنَزَلَ

يَخْطُرُ كَذَكَرِ أَوَزٍ أَثْقَلَتْهُ الدُّهُونْ، فِي شَمَاتَةٍ يَتَفَرَّسُ أَقْنِعَةً ثَلَاثَةً كَنُسَخٍ مُكَرَّرَةٍ مِنْ " مَاحِس "

وَ بَدَا الرِّجُلُ عَالِماً بِمَنْ تَحْتَ الأَقْنِعَةْ، مُوَجِّهَاً حَدِيثَهُ بصَوْتِهِ النُّحَاسِيِّ المَقِيتْ ..

منكاو: - عُذْراً أَيَّتُهَا المَعْبُودَةُ مَاحِسْ !، فَاتَتْكِ الفُرْصَةَ أَنْ تَصِيرِي " سِخْمِتْ "، فَلَيْسَ فِرْعَونُ ابْنُ آمُونْ رَعْ بالفَرِيسَةِ لإِلَهَةٍ ثَانَوِيَّةْ!، وشَرَعَ يَنْزِعُ عَنْهُمْ الأَقْنِعَةَ فِي زَهْوِ المُنْتَصِرِينَ وهُوَ يرَدِّدُ فِي سَمَاجَةْ: -

.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا سِمْنْدسْ؟!

أَكَذِبٌ مَا أَقُولُ يَا نِخْتِنْبُو؟!

هَلْ لسِنِفْرُو رَأْيٌ غَيْرَ الرَّأْي؟!

يَتَرَاجَعُ فِي تُؤَدَةٍ بِظَهْرِهِ خَارِجَاً مِنْ مَرْمَى سِهَامٍ مُسْلَطَةْ .

يَنْظُرُ الفِرْعَوْنُ مِنْ عَلْيَائِهِ نَظَرَ إِلَهٍ مُحِيطٌ سَخَطُهُ بِالكَافِرِينْ، ثُمَّ أَشَاحَ بِنَظْرَتِهِ نَحْوَ " مُونْتُو حُوتِبْ .. ورَفَعَ عَصَاتَهُ المَعْقُوفَةَ الضَّمِيرْ فَتَسْقُطُ لإِشَارَتِهِ يُمِينُ " مُونْتُو حُوتِبْ " إِيذَانَاً بِرَسُولِ المَوْت، وتَعْلُو أَصْوَاتُ الجَمَاهِيرِ اسْتِحْسَانَاً لِعَدْلِ " بِرْعَا " الوَاقِعِ بالشُّرفَاءْ .

يَتُوهُ صُوْتُ " مَاعِتَ " فِي لَغَطِ الجَمَاهِيرْ، وتُزَاحِمُ البَشَرَ بِجَسَدِهَا الوَاهِنِ نَحْوَ قَلْبَهَا وكَبِدَهَا المُمَدَّدَيْنِ عَلَى القَارِعَةْ !، نِخْتِنْبُووو ... سِنِفرُوو ...

بِعَنَاءٍ تُحَاوِلُ التَّمَلُّصَ مِنْ الزِّحَامْ، تَسْعَلُ مُخْتَنِقَةً فِي ضِيقِ صَدْرٍ كَأَنَّهُ رَبْوٌ يَنْتَقِمْ، وعَلَى شَمْسِ مِصْرَ الحَارِقَة الَّتِي تَنَفُخُ نِيرَهَا بالصَّهْدِ تَوَلْوِلُ بَحَّتُهَا بالفَجِيعَةْ، وتُسابِقُ هَامِيسَ المَكْلُومَةَ نِحْوَ جُثَثِ الأَحِبَّةِ المُمَزَّقَةِ

بلَا إلتِفَاتٍ منْ القَوْمِ، وسُكُونٌ كَأَنَّهُ مَاتَ مَنْ بالسَّاحَةْ، بَلْ مَاتَتْ مَمْفِيسَ كُلِّهَا!، تُفَتِشُ عَنْ سِنِفْرُو فَلا تَجِدْ !، عَنْ نِخْتِنْبُو ولَا أَثَرْ !

تَنْتَفِضُ بِوَجَعِهَا القَاتِلِ وكُلُّ شَيْءٍ حَوْلَهَا سَاكِنٌ سُكُونَ المَوْتْ، وكَأَنَّهُ مَاتَ الزَمْهَرِيرُ وحَلَّ بالسَّاحِةِ صَيْفٌ خَانِقٌ فَجْأَةْ !، يَتُوهُ صُوْتُ "مَاعِتَ" فِي لَغَطِ الجَمَاهِيرْ، وتُزَاحِمُ البَشَرَ بِجَسَدِهَا الوَاهِنِ نَحْوَ قَلْبَهَا وكَبِدَهَا المُمَدَّدَيْنِ عَلَى القَارِعَةْ !، نِخْتِنْبُووو ... سِنِفرُوو ... بِعَنَاءٍ تُحَاوِلُ التَّمَلُّصَ مِنْ الزِّحَامْ، تَسْعَلُ مُخْتَنِقَةً فِي ضِيقِ صَدْرٍ كَأَنَّهُ رَبْوٌ يَنْتَقِمْ، وعَلَى شَمْسِ مِصْرَ الحَارِقَة الَّتِي تَنَفُخُ نِيرَهَا بالصَّهْدِ تَوَلْوِلُ بَحْتُهَا بالفَجِيعَةْ، وكَأَنَّهَا مَاتَتْ " مَمْفِيسُ " كُلُّهَا !، بَحْرٌ مِنَ العَرَقِ المُلْجِمِ وَسَطَهُ تُفَتِشُ عَنْ " سِنِفْرُو " فَلا تَجِدْ !، وعَنْ " نِخْتِنْبُو" ولَا أَثَرْ !

تَصْرُخُ .. أُمِّي " تُويَا ! " .. " أُوسِرْ " يَا أَبِي !، لَا مَنْ يُجِيبُ صَرَاخَهَا فِي سُكُونِ الدَّارْ، تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا فَزِعَةْ .. إنَّهَا الغُرْفَةُ وهُوَ سَرِيرُهَا الخَشَبِيّ!، هُو مَضْجَعُهَا !، يَا لَهُ مِنْ كَابُوسٍ مُزْعِجٍ كَادَ يأخُذُ رُوحَكِ يَا مَاعِتْ !، يَا رَبَّ مَاعِتَ ..

تَذَكَّرَتْ فَجْأَةً أَمْسَهُمَا القَرِيبْ ! .. فُجُورَهَا عِشْقَاً عَلَى مَرْأَىً مِنَ إثْرُوعَا المُقَدَّسْ ! .. وحَدِيثَهُمَا .. عشْقَهُمَا ... وفِرَاقَهُ فِي الصَّبَاحْ ! ..

إنَّهُ الصَّبَاحُ يَا مَاعِتْ، وسِنِفْرُو أَوْشَكَ عَلَى الخُرُوجِ وأنْتِ هُنَا تُكَبِّلُكِ الوَسَاوِس، هُرِعَتْ كَأَنَّ العَفَارِيتَ مِنْ خَلْفِهَا تُسَابِقُ الصَّمْتَ نَحْوَ جَلَبَةِ مَنْفْ، تَتَعَثَّرُ مُكِبَّةً عَلَى وَجْهِهَا المَرَّةَ تُلْوَ المَرَّة، حَتَّى وَصَلَتْ إلَى الجُمُوعِ الّتِي أَوْشَكَتْ أَنْ تَنْفَضَّ عَنْ السَّاحَةْ، وكَانَ الجَيْشُ قَدْ ابْتَلعَهُ الأُفُقُ وهَدَأَ فِي المَكَانِ غُبَارُهْ، وَكَلّتْ مِنْ التَّلْوِيحِ أَيَادِيَ النَّاسِ بالْوَدَاعِ وهُمْ عَائِدِينَ الهُوَيْنَى إلَى الدُّور، مَضَى سِنِفْرُو دُونَ نَظْرَةٍ أَخِيرَةْ، تَرَى بِحَسْرَةٍ مِنْ ضَبابِيَّةِ الدُّمُوعِ " مِيرِيتْ نِيتَ " حَالِمَةً بأَكَالِيلِ الغَارِ وهِيَ تِهُمُّ بِهَا عَرَبَتُهَا

المَلَكِيَّةُ نَحْوَ القَصْرْ، وتَصْطَحِبُهَا هَامِيسُ مُسْتَبْشِرَةْ، بَيْنَمَا "ماعت" فِي إنْكَارٍ مِنْهَا كَانَ " نِخْتِنْبُو " مِنْ بَيْنَ فَخِذَيْهَا يَسِيلُ دَافِئَاً وثَخِينَاً .

- تَمَّتْ -

قَلَمْ

السّيّدْ فَرَجْ الشَّقْوِيرْ

المُحتَويَاتْ

إهداء..... ٥
تقدمة..... ٧
الخُرُوجْ..... ٩
رَحِيلْ..... ١٣
اليَمْ..... ٢٠
الوَغَى..... ٢٥
هُدَى..... ٣٤
الطّامَّة..... ٤٠
فِرَارْ..... ٥١
لَيْلُ مَمْفِيسْ..... ٥٧
سُلْوَانْ..... ٦٦
بَتْخِيكَا..... ٧٩
سُورُ العَجُوزْ..... ٨٣

التِّيهْ..... ٩١
اغْتِيَالْ..... ٩٥
نِخْتِنْبُو..... ١٠١
بِلا قِنَاعْ..... ١١١
إلَى بَيْتِ إيلْ..... ١١٩
نَحْوَ بُوتُو..... ١٢٤
الحَقِيقَةْ..... ١٢٩
لِقَاءْ..... ١٣٧
الوَرِيثْ..... ١٤٢
السَّرّْ..... ١٤٥
وَمَاتَتْ بِرْعَا..... ١٥٢
تَخَبُّطْ..... ١٦٢
النِّهَايَةْ..... ١٦٩